سليمان مظهر

أساطير من الشرق



دار الشروق

أساطير من الشرق

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

سليمان مظهر

أساطير من الشرق

دار الشروق

هذه الأساطير

فى أذهان بعض الناس أن الأساطير ليست سوى « حواديت» تروى حول « المدفأة» فى ليالى الشتاء الباردة ، لا هدف من ورائها سوى التسلية والمتعة وقطع الوقت . . .

ويخطىء هؤلاء إذ يأخذون الأساطير على أنها خرافة فحسب ، ليس فيها من الواقع أو الأهداف شىء سوى ماتضم من خيالات غريبة شاردة لاتصلح لغير الأطفال . .

فما كانت الأساطير شيئا من ذلك أبدا . وإلا لما استطاعت قط أن تكون هى العمد الخالدة التى قامت عليها أركان الأدب العالمى ، ولما أصبحت هى الجذور التى تفرعت منها هذه الألوان المتباينة من الآداب والفنون .

فقد رافقت الأسطورة الإنسان منذ نشأته وماتزال ترافقه .

وفى كل أسطورة تتمثل عقائد أصحابها ومثلهم وعاداتهم ، وتتضح نظرتهم وفلسفتهم فى الحياة . وهى تعطى فكرة كاملة عن الروح المتأصل فى هذه البلاد التى اتحدت فى صراعها العنيف من أجل الحرية ، والخير، والسلام .

وما من أمة ارتفع شأنها أو هان ، إلا ولها أساطيرها ، وهى فى كل ألوانها ـ سواء كانت إلهية أو بطولية أو غرامية أو خلقية أو فكاهية ـ إنما تمثل جزءا ضخما من التراث القومى الذى يتلقاه الناس جيلا بعد جيل ، ويمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانبا حيويا فى تكوينهم وحيواتهم .

ولاشك أن كل هذه الأساطير قائمة على أساس من الحقيقة . غير أن الخيال الإنسانى مع مر الأيام ألبس الحقيقة من الأوهام أردية جعلتها بعيدة عن المعقول ، وإن تكن قريبة محببة إلى النفوس .

ومع ذلك ، فأغلب الأساطير يدور حول إنشاء جياة أفضل . وهى محاولات نشأت مع نشوء الإنسان ، يفسر بها أهم المشاكل التى واجهته فى بدء حياته على الأرض ، وعلى رأسها مشكلة خلق الكون ، ويجتاز بوساطتها الهوة بين العالم الذى يعيش فيه والكون

الغامض الذى يحيط به، ويحاول بها الوصول إلى معرفة سر القوى المسيطرة على العالم كله، ولماذا يقع الشر، وكيف ينتصر الخير.

وبالرغم من أن الإنسان يظن نفسه قد تحرر اليوم من هذه المحاولات، إلا أنه فى خضم غروره، ينسى أن محاولاته الحالية للوصول إلى الكواكب، ومغالبة الفضاء، ليست سوى محاولات أخرى متطورة لمعرفة أسرار الكون. وهى وإن كانت اليوم تبلغ ذروة عالية من ذرى الحضارة، إلا أنها لاتختلف فى شىء عما كان يملأ ذهن الإنسان القديم، بالقياس إلى المراحل الحضارية التى كان يعيش فيها ويترعرع بين أحضانها.

قصة الخلق:

هذه هى حقيقة الأساطير. التى يقول عنها سير «جوم» إنها علوم عصر ماقبل العلوم...

وهذه الحقيقة تتضح تماما عندما يتلمس المرء قصة الأساطير منذ بدأت، وقصة منشىء الأساطير نفسه منذ خلق..

فقد عاش الإنسان أول أمره حياة بدائية محاطة بمئات الأخطار والأسرار. وحملته مدهشات الكون وأعاجيبه التى لم يستطع إدراكها إدراكا علميا، على أن يتوهم لها تفسيرا، ويتخيل أصولا ووقائع يرتاح إليها وتزيل حيرة نفسه..

وكان أول ماملأ رأسه من تلك الخوارق التى تحيط به، إيمانه بوجود قوى مسيطرة خالقة عاقلة ذات قدرة أسمى من قدرة كل العناصر والكائنات.

وبدأ الإنسان يتأمل تلك القوى، ويجسم كل شىء خارق منها يحسه ولايستطيع الوصول إليه فيجعله إلها، يعمل على استرضائه بتقديم الضحايا والقرابين.. فالنار والرياح والشمس والقمر والنجوم والمياه والبرق والرعد، كلها آلهة طفق الإنسان ينسج حولها القصص، ويتناقلها خلفا عن سلف، جيلا بعد جيل.

ولكن الإنسان أخذ يعجب بعد ذلك لكل تلك القوى.. كيف جاءت هى الأخرى!؟ لابد أن هناك شيئا خالقا، شيئا أقوى من كل شىء، استطاع أن يصنع وحده كل تلك الأشياء..

ومن هنا كانت أقدم الأساطير التى وضعها الإنسان هى أساطير الخلق، نسجها حافلة بما تصوره لهذا الخالق، وكيف أقام السماء والأرض، وكيف جاءت الكائنات على اختلاف صورها وأشكالها لتعمر الكون.

المجتمع الإلهى :

تصور الإنسان الخالق الأول، مصدرا رئيسيا للقوة والخلق، يهيمن على كل شىء، ويسيطر على أركان الكون الشاسع. تصور هذا الخالق ومن حوله الآلهة الآخرون، ينظمون الحياة على الأرض، ويبصرون أعمال الناس، فيثيبون المحسن، وينكلون بالمسىء.

وتباينت صور هذا الخالق فى أذهان البشر، حتى آمن البعض بفكرة الرب الواحد الذى يتمثل دائما فى رب الأرباب أو كبير الآلهة، وجعلوا الآلهة الأخرى أتباعا له يكلفهم مساعدته، ويكل لكل منهم مهمة معينة، ويمنحهم قوى خاصة يمارسونها تارة بإرشاده، وطورا من تلقاء أنفسهم، دون أن يكون فى ذلك مساس به أو تجريد لما له من ربوبية مطلقة، وسلطان شامل على كل شىء. . !

وكان لابد للإنسان بعد ذلك أن يتخيل ذلك المجتمع الإلهى الذى يختلط فيه آلهة مختلفو النزعات والأهداف والمهام، فيهم الذكر وفيهم الأنثى. وكان لابد أيضا أن تختلط تلك الصور فى ذهنه بالعالم الأرضى الذى يعيش فيه هو نفسه. فنسج فى أساطيره كل ماتخيله لذلك المجتمع الإلهى، من صور الصراع والنزاع والحسد والطمع والجشع والخير والشر، مما يراه كل يوم ويشهده فى العالم البشرى.

قصة الطوفان :

عندما تصور الإنسان مجتمع الآلهة وتخيله، بدأ يربط بينه وبين مجتمعه، حيث كان لابد من اتصال الآلهة والبشر، واشتباك أعمال هؤلاء بأعمال أولئك، فنشأت صور جديدة ترسم ذلك الاتصال، ثم الاشتباك، ثم الصراع الذى كان لابد أن يكون. . !

وهنا تصور الإنسان قصة الطوفان. . قصة أول صراع بين الآلهة والبشر، حين يمعن أهل الأرض فى الفساد والسخرية بالآلهة، فيغضب الآلهة عليهم، وينزلون بهم نقمتهم بغمر صاخب تتفجر له عيون السماء، فيهبط طوفان هائل يقضى على البشر المفسدين، إلا واحدا يصطفيه الآلهة فينجو فى فلك يصنعه، وعلى يديه تعود الحياة من جديد. وبدت صورة الطوفان واضحة فى مختلف الأساطير، وتماثلت صورة الإنسان الذى اصطفته السماء، فهو شمس نيشتين عند البابليين، وتجتوج عند السومريين، وكزيزوتروس عند الأشوريين، ودوكاليون عند الإغريق. .

الأبطال والخوارق :

عاد الإنسان يطل إلى الأشياء الغامضة التى تحيط به . . . فَوَهِمَ أن لكل شىء حوله نفس الصفات التى لـه ، وافترض أن للجماد روحا وللنبات روحا وللآلهة روحا . وأنها تتصرف تماما كالإنسان : تحب وتكره ، وترضى وتغضب ، وتفعل كل ما يفعله هو نفسه . . !

واستمر الإنسان فى صراعه مع الطبيعة ، ومع الحيوان . . صراع عنيف ينتصر فيه الإنسان مرة والطبيعة والحيوان مرات ، فما كان لدى الإنسان سوى وسائل بدائية بسيطة ساذجة ، للنزول بها فى معترك هذا الصراع الرهيب .

ولم تعد وسائل الحرب العادية البسيطة تكفى ذلك الإنسان ، وهو يصارع قوى أشد منه وأقدر . فبدأ يتصور بخياله كائنات تستطيع بقواها الخارقة منازلة أعدائه ، ومن خلال خيالاته بدأ يستعين بأصحاب الخوارق فيما لم يستطع أن يفعله بنفسه ، فصور أنصاف آلهة يستمدون قواهم من السماء ، وصور أبطالا خارقين تتمثل فيهم مظاهر القوة عند الحيوان ، ومظاهر الجبروت عند الآلهة . ومن هنا ظهر جلجميش وأنجيدو عند البابليين ، ورستم عند الفرس ، وهرقل عند الإغريق ، وأمثالهم كثيرون فى عالم الأساطير.

مجتمع الجن :

لم يكتف الإنسان خلال بحثه عن مصادر القوة التى تساعده على الأعداء بمثل هؤلاء الأبطال . فبدأ يتخيل من جديد كائنات أخرى تستطيع القيام بما يعجز عن الإتيان به والوصول إليه . .

وهنا ظهر الجن فى أساطير الإنسان . . جن خيرون يستطيع بوساطتهم الوصول إلى مايجد نفسه عاجزا عن بلوغه بغير شىء خارق ، وجن شريرون يساعدونه فى الانتقام من الأعداء عند تصور أقصى أنواع الشر فى مجال الشر. وجعل الإنسان للجن من القوى والسمات الفائقة مايقدمهم عليه هو نفسه ، مادام هو أدنى قوة وأقل من الجن سلطانا . . !

تصور الإنسان أن مجتمع الجن مثل مجتمع الإنس من حيث التركيب . . ففيه حكام وأمراء ، وفيه أجراء وصعاليك ، وفيه خيرون وشريرون . ولكن أهم صفات هذا المجتمع أنه يساكن الإنسان ويعاشره . . يساكنه فى جسمه وفى ثوبه وفى طعامه وفى تفكيره وفى علاقته الجنسية وفى أخص خواطره . . !

هكذا تخيل الإنسان الجن الذين لايراهم رأى العين ويتوهمهم دائما فى الوقت نفسه. وأنشأ حولهم مجموعة غزيرة من الأساطير، وأدخلهم دائما خلال صراعه بين الخير والشر، وبين البشر والآلهة، ونظم أسلوبا للتعامل بينه وبينهم، وجعل عالمهم تصاعديا مطبوعا بالسلطة شأن المجتمع البشرى الإقطاعى، وأضاف إلى أشخاصهم صفات الشذوذ فى الهيئة والمسكن والسلوك والصوت. . حتى يستطيع بذلك أن ينم عن صفاتهم الخارقة للمصطلح العام، ويدل على التميز البالغ حد التفوق.

السحر والسحرة :

غير أن أشياء أخرى فى تفكير الإنسان دفعته إلى البحث عن وسائل جديدة لبلوغ أهدافه. . وسائل يستطيع أن يلمسها ويتبينها بنفسه فى الوقت الذى لايستطيع فيه أن يلمس ويتبين أشخاص الجن. . وهنا. . اتجه الإنسان نحو السحر. وفى كتاب الأدب الشعبى يقول مؤلفه الأستاذ رشدى صالح :

« ونحن إذا نظرنا إلى السحر الآن بتقديرنا الحديث رفضناه، واعتبرناه أسلوبا من التصرف الساذج، ولكنه كان فى التاريخ القديم قائما على استخدام القوة الخفية للكلمة، لأن اختراع اللغة ـ أى استبدال الصوت بالإشارة أو الرسم ــ كان انقلابا مذهلا بالنسبة للإنسان البدائى، فاعتقد أن فى الصوت قدرة خارقة تستطيع إذا نظمت فى بضع جمل ـ أى تعويذة ـ وتليت مرارا، أن تفرض سلطانها على أى ظاهرة أو كائن أو إله. ومن هنا اعتقد المصريون القدماء مثلا أن الكلمة هى الأداة الإلهية فى خلق العالم، حتى أن آتون رع يقول فى أسطورته : « خلقت كل الأشياء مما يخرج من فمى عندما لم تكن ثمة سماء ولا أرض ! ».

هذه القوة الخفية للكلمة هى قوة الإلزام أو الربط. . وتتضح تلك القوة مما جاء فى تعويذة إيزيس وهى تطرد الألم من جسد رع فتقول : « اخرج أيها السم. اخرج من جسد رع. . اخرج من جسد رع المحترق. لأنى أقول التعويذة. . إنى أنا التى آمر، إنى أنا التى أبعث بالرسالة. . اخرج على الأرض أيها السم القوى. . ولتعلم أن الإله الكبير قد أسر فى أذنى باسمه الكبير. . . ! ».

وهكذا أصبح السحر فى عقيدة القدماء بمثابة الروح من شعائر تلك العبادة. وتصور الإنسان محاولات جديدة لاسترضاء الآلهة والقوى الخفية التى ظل يجهل طبيعتها وغاياتها، فعمل على اجتلابها فى صفه لمعونته، ولم يجد سوى السحر سبيلا إلى ذلك، باعتباره القوة الجديدة التى يستطيع بها أن يقهر القوى المناهضة له أو الخارقة لكل مستطاع. وهكذا شاع الاعتقاد بأن الرقية أو التعويذة أو القسم يجبر القوى الخفية على

أن تطيع الإنسان . . حتى أننا نقرأ فى ألف ليلة وليلة كيف أن من ينطق بكلمة « افتح ياسمسم» يلزم هذه القوى على أن تشق الصخرة وتفتحها . . ! ولم يكن ذلك وحده ماتستطيعه التعويذة السحرية، بل إنها لتمكن الإنسان من تسخير القوى الخفية أيضا فى ربط أعدائه، حتى إن البابليين كانوا حين يدعون على أعدائهم يقولون : « ليقع عليكم حبل الله » . فكأنما الله إذا أراد أن يقتل إنسانا أو يشل حركته لزمه أن يستخدم حبلا . وتقول أسطورة طمهورث الفارسية إنه ربط أهرمان ليمنعه من إنزال الشر بالناس . وتصور أسطورة برميثيوس الإغريقية أن العقاب الإلهى كان بربطه إلى صخرة . . وهكذا استطاع الإنسان وقف غرمائه وأعدائه - أى وقف الشر - بالرقية أو التعويذة السحرية . وجعل السحر بذلك أساسا جديدا لصراعه مع العالم المجهول .

تشـابه الأسـاطير:

كان كل ذلك إذن أصلا لأساطير الإنسان فى مختلف حضاراته وبيئاته . . تلك الأساطير التى جاءت فى أغلبها متشابهة متفقة تثير الحيرة والتساؤل عن علة تشابه أساطير المصريين مثلا مع أساطير الهنود والفرس والصين والإغريق والأوربيين أيضا . هذا التساؤل يجيب عنه بعض الدارسين بأن الجنس البشرى كله قد نشأ أول مانشأ فى مكان واحد ثم تفرق وارتحلت معه معتقداته وأساطيره . ويذهب آخرون إلى أن حياة الإنسان لم تظهر فى مكان واحد بل فى أمكنة متفرقة، ولكن قام بين مختلف هذه الأوطان علاقات ثقافية هاجرت معها الأساطير وسواها من عناصر التراث القديم من أمة إلى أمة . وثَمّ رأى ثالث يقول إن سبب التشابه هو تشابه ظروف تطور التاريخ الإنسانى عامة وانتقاله من حالات قامت فى كل موطن، إلى حالات أخرى قامت فى هذا الموطن نفسه .

ومهما يكن الأمر، فالثابت برغم تشابه العناصر الأولى لكل هذه الأساطير، أن ثَمّ اختلافا وتباينا واضحا فى تفاصيلها . فكل أمة شكلت أساطيرها حسب ظروفها الطبيعية ذاتها . . فالمجتمعات التى استقرت فى أرض زراعية تشكل أساطيرها فى أهم مايشغلها وهو الماء والنماء وخصوبة الأرض، والمجتمعات التى عاشت على الصيد تشكل أساطيرها فيما يشغلها من الحيوان وأدوات الصيد وشياطين الغاب . والمجتمعات التى يحيط بها البحر تشكل أساطيرها على العواصف والأمواج والحور والجنيات !

وكما تباينت تفاصيل أساطير الأمم، تباينت أيضا أشكال أساطير الأمة الواحدة . فمع كل تلك المراحل من ظروف الحياة تنوعت الأساطير، فكانت هناك الأساطير الإلهية التى ترتبط بما وراء الطبيعة ارتباطا تفسره العلاقات المتبادلة بين الآلهة والبشر والتى

ينتصر الآلهة فيها دائما، والأساطير التى تتناول الخوارق التى تدور حول أنصاف الآلهة والأبطال خارقى القوة المتمتعين بقدرة جسدية أو معنوية فائقة ، والأساطير التى تدور حول وسائل البشر فى التخلص من مآزق البيئة التى تحيط بهم، والأساطير التى تهدف إلى وضع أسس خلقية يتباين فيها الصراع الدائم بين الخير والشر. . !

أصول العادات الحديثة :

ومع كل ذلك، يجب ألا ننسى أن هذه الأساطير التى عاشت حتى بدأت الديانات السماوية فأخذت تتلاشى كنظام حل محله النظام الدينى . . . هذه الأساطير لايزال لها بقايا فى معتقد كل أمة ، حتى الأمم التى تعيش فى ظل الصناعة والعلوم، بقايا لاتزال مسيطرة على العادات والتقاليد والثقافة الإنسانية بوجه عام. . !

من ذلك أن الفراعنة فسروا الفيضان فى أساطيرهم بأنه فيض الدموع التى تسفحها إيزيس وهى تبكى أخاها أوزيريس الذى قتله ست. وعندما جاءت المسيحية مصر وأزالت عبادة إيزيس، استمرت أسطورتها تعيش فى معتقد الفلاحين فى شكل أسطورة مسيحية جديدة تقول إن الفيضان ينبع من دموع القديس ميخائيل الذى كان كلما حل ميعاد الفيضان يدخل على العرش الإلهى يرجو الله أن يرحم عباده المصريين فيأمر بزيادة النيل، ويظل يتضرع ويبكى حتى يستجاب دعاؤه ويفيض النيل من فيض دموعه!

الأساطير للجميع :

وبعد . . فهذه هى قصة الأساطير التى دفعتنى إلى تقديمها لقراء العربية إيمانى بأنها لون رائع من ألوان الأدب الممتزج بالتاريخ . . لابد لكل صغير وكبير من الإلمام بها لفهم معتقدات البشر وعاداتهم وطبائعهم، وإدراك المثل والروح المتأصل لكل شعوب هذا العالم الكبير. وقد أخذت على عاتقى فى هذا الكتاب تقديم بعض أساطير الشرق، بعد إخراجها من الطابع المتزمت وتبسيطها وتقديمها فى صورة حية، سهلة التناول، تطرب لها نفوس القارئين.

سليمان مظهر

أسطورة فرعونية
رع أبــو الآلهـــة

كان « رع إله الشمس» أشهـر الآلهة الذين حاول الكهنة فى مصر القديمـة أن يقربوا بها إلى أذهان العامة فكـرة الخالق العظيم الواحد الـذى هو الأصل فى حياة كـل شىء . وقد جعلوا لرع مـن الذرية ثمانية أبناء . أربعة ذكور وأربـع إناث . كل ذكر منهم متروج بأنثى . فشـو وتفنوت رمز الهواء والنار، وجب ونوت رمز الأرض والسماء . وأوزيريس وإيزيس رمز النيل والتربة ، وست ونفتيس رمز الصحراء والضوارى .

وتقول العقيدة القديمة « إن السماء كانـت لاتزال متصلة بالأرض حين تمرد البشر على الآلهة الذين كانوا يعيشون بينهم ، وازداد بالبشر الفساد حتى ثـار غضب رع وقرر أن ينزل بهم نقمته . وبعد طوفان من الدم ، عفـا الإله عمن حافظ على عهده مـن الناس . غير أنه منذ ذلك اليوم امتنـع عن مخالطتهم وفصل السماء عن الأرض ليجعل منها مقاما وسكنا ، وليشرف من فوقها على كل أبناء البشرية . . » .

هناك . . فى قلب هليوبوليس . . كان يقبع قصر فخم لم تعرف مصر قصرا مثله على الإطلاق ، أمام أبوابـه تنتصب مسلات شامخة ، وعُمُد ضخمة . . وعلى جـوانب ممراته تصطف تماثيـل أسود وكباش ، تـرقب كل زائر غـريب ، وتنحـى كل مارد رجيـم . أما القصر نفسه ، فيموج بجموع هائلة من الخدم ، كلهم عيون مفتوحة ، وآذان مرهفة ، فى حراسة الإله الأكبر « رع» رب القصر العظيم .

وهنا . . . فى هذا القصر . كانت تجرى قصة الحياة . . .

يفتح رع إله الشمس عينيـه ، فيبزغ الفجر على الوجود . وينهض من فـراشه ليدلف إلى الحمام يستحم بالماء البارد . وتقبل عليه « أنوبيـس» إلهة الندى فتصب عليه أباريقها الأربعـة الطاهـرة . وينطلـق « حورس» فيـدلك جسـده . وينحنـى « توت» فيجفـف ساقيـه . وما يكـاد الجميع ينتهـون ، حتى يـرتدى الإلـه الأكبر ملابسـه المتلألئـة ذات البريق . وينطلق ومـن أمامه الرسل تتسابـق لإخلاء الطريق ، ومن حولـه جنود الموكب ينحنون حتى تلامس جباههم غبار الأرض . ويصل الإله إلى زورقه العلوى الراسى على ضفة النهـر ، فيستقله منزلقـا به على الأمواه بـلا مجداف ولا شراع ولا سكان [1] ويطلع النهار فيهتف الناس والآلهة على الضفتين :

---

(١) السكان : ذنب السفينة (أو ما يعبر عنه بالدفّة) .

«تباركت يارع . . يا خالق السموات والأرض! يامرسى الجبال وساقى البحار! يارسول الفرح والحرارة والضوء إلى أرض السلام . . ! » .

ومن الشرق، تبدأ دورة كل يوم، لتنتهى بعد ذلك فى الغرب حيث يختفى موكب رع فى طيات الأفق، فتظلم الأرض، وتضىء ظلمات العالم السفلى . . إقليم الجحيم الرابض فى الأعماق . وهناك، يستمر مسير الإله على صفحة نهر كبير، يخترق واديا يتفرع إلى اثنى عشر فرعا، تفصل كل واحد منها عن الآخر جدران هائلة ذات أبواب ضخام . . .

وتجرى رحلة الليل كما تجرى كل يوم . وتمر الساعات هادئة طوالا والإله لايزال يسير، حتى يلج الباب الذى يصل إلى حدائق « أيالو» ، حيث يرقد رقدة قصيرة فى قصره الكبير، ما أسرع ماينهض بعدها ليبزغ الفجر، وتبدأ إشراقة يوم جديد !

* * *

وكان الناس . . كل الناس فى هذا العالم الكبير . . يسجدون لرب النور كل صباح . . الرب السخى على كل خلقه فى هذه الأرض . فهو لاينى طوال تسياره يصرف كل أنواع الأعمال . يقابل الخلق ويهديهم . ويقضى فى شكاوى المظلومين . ويرفق بالمعذبين فيزيل عنهم الأوجاع . ويعلم الناس تعاويذ الوقاية من خطر الثعابين والحيات . ويمنحهم الطلاسم التى تطرد كل شرير من الأرواح . ولم يبخل رع على الناس أبدا بما يحمل من تعاويذ وطلاسم ، حتى لم يبق له منها سوى سر اسمه الإلهى ، الذى أطلقه عليه والداه يوم ولد ، ولم يبوحا به لأحد سواه . هذا الاسم كان هو وحده سر القوة التى يحكم بها رع عالمه الكبير . وكان يعرف أن من يصل إلى معرفة سر اسمه القدسى ، بشرا كان أو إلها ، فإنه يستطيع السيطرة على كل شىء فى الأرض وفى السماء . . !

والحق أن أحدا من الآلهة والبشر لم يكن ليطمع فى ذلك السلطان والجبروت سوى إيزيس . فقد طالما أبصرت مظاهر القوة التى يتمتع بها أبو الآلهة ، وتلك القدرة التى يطوى سلطانها كل شىء . وما أكثر ماتمنت إيزيس فى أعماق نفسها . أن تعرف سر ذلك الاسم القدسى الغامض الذى يخفيه إله الشمس . حتى تملك بفعله السحرى كل الأرض وكل السماء ، وتصبح به من بعد كبيرة الآلهة . . !

منذ ذلك الوقت امتلأ رأس إيزيس بفكرة الوصول إلى سر اسم الإله الخالد .

فراحت تتابع رع فى غدوه ورواحه، ترقب وتسعى ، حتى إذا ما أحست أن الإله قد بدأ ينوء تحت عبء السنين، وتقوست قامته بدبيب الشيخوخة ، ولم يعد يستطيع أن يضم فكيه، أو يقفل فمه، أو يمنع اللعاب القدسى من أن يسيل على الأرض. . هنا فقط أحست أنها تستطيع أن تتغلب عليه، لو هى استعملت مكر النساء . . !

والحق، أن إيزيس كانت أشد مكرا من ملايين من الرجال، وأقدر حيلة من ملايين من الأرواح. ومن خلال ذلك المكر وتلك الحيلة، عثرت إيزيس على الوسيلة التى تستخلص بها سر الاسم الإلهى الذى يخفيه رع . . . من بين شفتيه هو نفسه . . .

لقد كانت تعلم أن التعاويذ والرقى لاتنجح فى شفاء أمراض الآلهة والبشر سواء ، إلا إذا اختلطت فى التلاوة باسم المصاب نفسه . . اسمه الحقيقى . . الاسم المسلط على الشيطان الموجع الذى يسبب الأوجاع . فهى إذا استطاعت أن تصيب الإله الأكبر بمرض خبيث، أو أذى مستعص ، فلن يستطيع أحد، بشرا كان أو إلها، أن يشفيه . أما هى، فلن يكون أمامها سوى أن تتقدم إليه، وتقنعه بأن برأه فى مقدورها هى وحدها، على أن تخلط فى التلاوة اسمه الحقيقى بالتعاويذ. وهنا فقط . . سيجد الإله نفسه بين أمرين : إما أن يتحمل الألم الفظيع الموجع، وإما أن يكشف لها سر اسمه القدسى . . وهو كل ماتبغيه!

شىء واحد كان يقف عقبة فى سبيل التنفيذ . . هو كيف تستطيع أن تسبب له الأذى، وما من أحد يملك قط أن يؤذيه، بغير أن يستعمل سر الاسم فى تعويذة الشيطان . . !؟

ولكن المكر النسوى لم يعجز عن بلوغ سبيل آخر . . فقد كانت تعرف أن اللعاب المقدس المتساقط من فم رع يستطيع أن يمنح قوة السحر القدسية لأى شىء يختلط به . .

وهذا هو مايجب أن تهتم به . . !

وانطلقت إيزيس تتبع رع أينما ذهب وسار، حتى إذا ماشهدت بعض اللعاب يسيل من بين فكيه على تراب الأرض، أسرعت فأخذت حفنة من التراب مزجتها باللعاب المقدس، وعجنتها بيديها البارعتينى فى شكل حية . . تشبه تمام الشبه تلك الحية التى تتوج رؤوس الآلهة والفراعين . وفى غبار الطريق الذى يمر به رع خلال رحلة كل يوم، دفنت إيزيس حيتها بعد أن نفخت فيها الحياة بتعاويذ سحرية تحيى الجماد!

وجاء الصباح . . وانطلق رب الشمس يستأنف رحلة النور الخالدة . وبينا هو فى طريقه إذ مر حيث ترقد الحية المسحورة . وفى لحظة ، كانت قد أنشبت فى عقبه أنيابها ، وأفرغت من السم نارا صاح لها الإله صيحة ارتجت لها جنبات الكون ، واضطربت العربة فى يده واختلت ، فأسرع عائدا يجرى ويصرخ ، حتى استقر فى« أيالو» فتمدد على الأرض ، والدموع تنهمر من عينيه مما يعانى من ألم مرير . . .

ودوت من السماء أصوات الآلهة وهى تنطلق مسرعة إلى حيث رقد رع . ولكن الإله الأكبر كان يرتعش ، وينتفض ، ولايستطيع كلاما قط ، بينما السم الزعاف يتسرب إلى كل عضو فيه ، ويسرى فى عروقه كالنيل عندما يدفع أمواهه إلى الأراضى العطشى أثناء الفيضان .

ومرت الساعات طويلة رهيبة قبل أن ينتبه الإله إلى ماحوله . وعندما فتح عينيه دعا إليه من أحاط به من الآلهة ، وشرع يشرح لهم ماجرى فى صوت أليم خفيض :

ـ انصتوا يامن خلقتكم قدرتى . لقد وخزنى شىء آذانى وأوجعنى وجعا لا حدّ له . ذلك الشىء لم أصنعه ولم أخلقه ولم تصغه يدى كما صاغت المخلوقات كلها . فما سره؟ ومن الذى استطاع أن يؤذينى؟ إن أحدا لايعلم سر اسمى الذى منحه لى أبواى وظل مودعا خبيئا فى صدرى ، ولا أحد يستطيع أن يؤثر فى جسدى بسحر أو تعاويذ إلا إذا عرف سر الاسم . فكيف أصبت بهذا الأذى؟ كيف . . كيف . . !؟

ولم يعرف الآلهة كيف يجيبون . وطال بهم السكوت حتى عاد رع يهتف بهم فى صوت مخنوق :

ـ ليمثل أمامى كل أبناء الآلهة الخبيرين بالتعاويذ الشافية والطلاسم الواقية ، ليقرءوا التعاويذ القادرة على طرد الأذى الذى لحق بجسدى وأوجعنى أشد الوجع وآلمنى أبغض الإيلام . . !

وأقبل عليه الآلهة يبكون ويولولون . وبكل ما استطاعوا من قدرة راحوا يجربون تعاويذهم لتسكين آلام الإله . غير أن القدرة التى منحوها لم تكن تستطيع أن تخفف لدغة الثعبان الذى عجن جسده واختلط بالمادة المقدسة من لعاب الإله . . !

وصرخ رع يطلب إيزيس ربة السحر ، التى تحمل ترياق الحياة ، وتطرد كلماتها الآلام ، وتوقظ همساتها الموتى . . . !

ووقفت إيزيس تسأل رع :

ـ ما هذا الذى أصابك يا أبا الآلهة ؟ أى مخلوق وخزك؟ وأى فرد من أبنائك انتقض عليك؟

أجاب رع :

ــ لست أدرى يا ابنتى بأى قدرة استطاع من وخزنى أن يسبب لى الوجع والإيلام . . . فجربى تعاويذك وانشرى سحرك واخنقى الألم الذى يكاد يقضى على . .

قالت إيزيس :

ـ لاعليك يا أبا الآلهة ، سأجرب تعاويذى وأدحر خصمك الملعون . . سأجبره على الخضوع والاستسلام أمام قدرة تعاويذى وكلماتى . . !

وانفض موكب الآلهة . وتركوا إيزيس ربة السحر تحاول دحر أوجاع الإله . . .

* * *

خاطبت إيزيس رع فى صوت خفيض رقيق :

ـ إن سحرى سيطرد السم الزعاف . ويطرد عنك كل ما أصابك من أوجاع . فهيا يا أبا الآلهة ، بح لى بسر اسمك الإلهى ، اسمك القدسى الغامض ، يمنح تعاويذى القوة ، فترد عنك عدوك ، وتزيل عنك الغمة .

وانتفض رع . فما خطر بباله قط أن سيأتى يوم يضطر فيه إلى البوح بسر اسمه القدسى . وداخله الريب فى إيزيس ، واستشف من خلال كلماتها مكيدة تدبر له . وراح الإله يماطل ابنته ، ويسرد متلطفا لها كل الألقاب التى يعرف بها فى السموات والأرض :

ـ أنت تعرفين أن اسمى « خبرى» فى الصباح ، و«رع» فى الظهر ، و«تومو» فى المساء . وتعرفين أن لى أسماء أخرى كثيرة ، وأشكالا أخرى عديدة . فأنا خالق السماء وخالق الأرض . . أنا شمس الصيف ووهج الظهيرة . . أنا النور والظلام ، ومرسى الجبال ومجرى البحار . . أنا من يتولد الضياء من فتح عينى ، ومن غمضهما يتولد الليل . أنا كل هؤلاء يا إيزيس ، فانطقى بتعاويذك وأبعدى عن جسدى ما لا أطيق .

وابتسمت إيزيس وفى رأسها منه سخريات كبار . وراحت ربة السحر تتلو التعاويذ واحدة تلو أخرى ، وفى كل مرة تتخذ واحدا من أسماء الإله ، فما صنعت كلها شيئا بآلامه ، وما أحس هو لها من برء على الإطلاق .

واستمرت إيزيس تطيل فى التلاوة، والوقت يجرى ويمر، والآلام تسرى وتزداد مع تسلل السم المختلط باللعاب القدسى فى كل عضو من أعضاء رع . . .

وعادت إيزيس تتحدث من جديد :

ـ أبدا لن يستطيع اسم واحد من كل تلك الأسماء أن يشفيك . إن اسمك السرى الغامض هو وحده الذى يملك القدرة على منح تعاويذى ما يشفيك . فهيا يا أبا الآلهة، بح لى بسرك أشفك على الفور . فأنت أنت من تعلم أن السحر لايملك شيئا إذا لم يختلط بالاسم الحقيقى لأى مصاب . . ولو كان اسمك القدسى أنت . . !

وضغط الإله على فكيه، والسم يسرى وينتشر فى جسده . . النار اللافحة تحرقه، والبرد المثلج يفريه، وهو بين النار والجليد ينهار ولايستطيع أن يفعل شيئا قط . . .

وفجأة صرخ الإله . . فقد انتصرت عليه الأوجاع، وحلّت من لسانه القدسى عقدته . . ومن خلال الصرخة الهائلة لفظ رع بتلك العبارة المؤدية إلى كشف السر:

ـ لينتقل اسمى الحقيقى من جسدى إلى جسدك يا إيزيس . . افتحى مغاليق صدرى أيتها الابنة ينتقل سرى القدسى من أحشائى إلى أحشائك ! !

وفتحت إيزيس صدر الإله . . وانتزعت من حناياه الاسم السحرى . وقرنت ربة السحر تعويذتها باسم الإله، فاندحر الأذى، وتوقف السم، وانتهى الألم الملعون . . !

وهنا فقط . . نجحت إيزيس . ومنذ ذلك اليوم صارت تقبض على سر السلطان والقدرة . . السر الذى يجعلها كبيرة الآلهة، وربة الربات، وصاحبة السيطرة والنفوذ على أبى الآلهة نفسه . . رع العظيم . . ! !

مع زوال القوة، ودبيب الشيخوخة، نزل الهوان برع . وبدا الإله غير الإله، ووضح العجز بدل المجد، والانهيار بدل الصعود . . .

وأطل البشر من حولهم، فإذا إلههم هرم عاجز، شقى ساخط، لايستطيع أن يفعل شيئا على الإطلاق . . .

وهنا . . بدأ الانقلاب . . .

وبعد أن كان البشر يسجدون ويصلون للإله العظيم . . راحوا يسخرون ويضجون ويتغامزون . . ويهاجم بعضهم بعضا من أجل الهزؤ بأبى الآلهة . . ويقولون :

ـ انظـروا . . لقد شـاخ رع . . شاخ الذى عظـامه من فضـة ، ولحمه مـن ذهب ، وشعره من لازورد . . !

واضطرب رع ، واستشعر المهانـة والخزى ، وملأه غضب صاخب على كل مخلـوقاته فوق ظهر الأرض .

وهتف رب الشمس فى الآلهة الذين يحيطون بموكبه كل يوم :

ـ ائتـونى بابنتـى سخمت . . . وادعوا إلى آبـاء الآلهة والأمهات والأبناء . نـادوا « نو» جدنـا الأعظم الـذى يسكن وسـط السماء . ليأت الجميـع إلى قصرى سرا ، بغير ضجة تنبه الناس ، أو ترشدهـم إلى الاجتماع الإلهى . . !

ومن كل أركـان الكون ، حضر الآلهة . وانطلقت الجموع القـدسية إلى القصر الكبير يعقدون مؤتمرهـم العائلى . وكما كانوا يفعلون من قبل ، ضرب الآلهة حلقتهـم حول عرش رع ، وعفروا جباههـم بالتراب أمامه . وعندما انتهت مراسم اللقاء ، تحدث رع ، وسكت الجميع :

ـ أيها الآلهة ، أجدادى وأبنائى . . ها أنتم أولاء ترون البشر، مخلـوقاتى التى أخرجتها من فمـى عندمـا لم تكن سماء ولا أرض ، يتهـامسون على ويـأتمرون بى . لقـد أصبحوا يتعمدون احتقارى ويسخرون بهيبتى ونفوذى . فما الذى أنتم بهم فاعلون؟

وتكلـم « نو » الجد الأعظـم لكل الآلهة . . ذلك الذى يسكن وسط السماء :

ـ وما الذى تراه أيها الإله . . !؟

وأجاب رع :

ـ أيها الجد العظيـم . . يامـن منحتنى سر الـوجود . . إنما أنـت الذ ى يشير على بما أفعل مع العبيد المارقين . .

ومن جديد تكلـم نو :

ـ يا ولدى رع . يا إلها أكبر من الإله الذى صنعك . . احكم بالعدل ، وأقم الدعوى على المذنبين حتى يبين المارق فيعاقب ، ويظهر المذنب فيدان .

ولم يقتنع رع :

ـ إذا نحن انتظرنا حتى نقيم العدل ، استشعر المارقون بالخوف ، وعرفوا المصير الذى

سيأخذ بـالمذنبين . . . فى ذلك الوقت سيعمدون إلى الصحارى والقفـار يختبئون فيها ، ولا يعود لنا إليهم من سبيل . . !

وتشاور الآلهة ، ثم أحنوا جباههم وهم يقولون مجتمعين :

ـ ليعاقب البشر دون محاكمة . . ولتكن عينك الإلهية . . ابنتك العزيزة «سخمت» . . هى الجلاد!

وهكذا كان . . .

وانقضت « سخمـت» لبؤة ممفيس ، وأشـد الربات وطـأة وشراسة وحبا للـدماء . . انقضت تلاحـق البشر فى كل مكان ، تثخن فيهـم طعنا بالخناجـر والأنياب ، وتضرب هنا وهنـاك . . تذبـح وتقتل ، وتعـب الدم عبا ، انتقـاما لأبيهـا المقدس ممـن كانـوا به يسخرون .

ومن كل أركان الأرض الملتاثة ، علت صرخـات البشر ذليلة خانعة تطلب الغفران . ومن عليـائه أطل رع ، فـإذا مصر كلها أنهار مـن دماء ، وصفـوف طويلـة من أجسـاد الأشقياء . وأغمض الإلـه الرحيم عينيه ، فما تصـور قط أن « سخمت» تفعل كـل هذه الأفاعيل بأفراد شعبه الذين خلقتهم يداه .

وانفثأ غضب رع ، وأخذته بهم شفقة غامرة رحيمة ، وصاح فى ابنته :

ـ كفى يا ابنتى . . إنما أردنا معاقبتهم لا إبادتهم!

ولكن لبؤة ممفيس التى أسكرتها خمر الدم ، أبت أن تذعن لأبيها ، وصاحت فيه :

ـ بحـق حياتك يارع إن قلبـى لمغتبط بالفتك والتقتيـل . . فدعنى أنزل بـالبشر كل مايستحقون من عقاب .

ولكن الفتك والتقتيل كانا شيئا بشعـا مخيفا . ولم يك بد من أن يسرع رع بإنهاء رحلة النهار، فهبط الليل ، وسادت الظلمة ، وتوقفت شاربة الدماء عن الطواف المجتاح على أمل أن تستأنفه فى الصباح .

وأطل رع حزينا إلى شعبه المسكين . . أبدًا ماكـان يريد لأبنائه من البشر تلك المجزرة الهائلة التى أنزلتها بهم الربة المتعطشة للدمـاء . ولا بد مع الصبح الجديد من وضع حد لعذاب أهل الأرض .

وهتف رع فيمن حـوله من أرباب السماء أن يأتـوه سراعا برسل حـاذقين أسرع جريا من الهواء . وعندما أتوا أمَرهَم بالذهاب إلى جزيرة « فيلة » وإحضار كمية هائلة من ثمار الرمان ، وثمار أخرى تجلب النوم .

وماهى إلا لحظات ، حتى كانت الثمار قد وصلـت . وكان الإله قد استدعى طحان هليوبوليس وأمـره بعصر الثمار ومزجها بمسحوق حب الشعير الذى أعـدته الخادمات ليصنعن منه الجعة . وعندمـا امتزجت كل تلك الأشياء ، نتج عنها مـزيج مسكر بلون كلـون الدم البشرى ، يمـلأ ستة آلاف مكيـال ، وأمر رع بنقـل المكاييـل إلى كل أنحـاء الأرض . وصب الـرسل السائل الأحمر فى كل مكـان . . فامتلأت به الكهـوف والحقول والأنهار.

وجاء الصباح . ونهضـت « سخمت» تستأنف دورة التقتيل وعب الـدماء . وأطلت الربـة أمامها فـإذا طوفان شـامل من الدم يغـريها ويدعوهـا لرى الظمأ . وراحـت ربة التقتيل تعـب من السـائل المسكر المخـدر وهى تظنـه دما بشريـا صرفا حتـى ارتوت . وظلت تشرب وتشرب حتى هـدأت ثورتها ولان قلبها ، وانطلقت سكـرى مخدرة لاتفكر فى متابعة التذبيح والتقتيل . . واستلقت فى راحة لتضع حدا للمجزرة المجنونة الهائلة .

* * *

وعادت الحياة من جديد على ظهر الأرض . . .

واستمرت الأيام تمضـى ، وفى أعقابها السنون ، والشيخوخة تنخر بـدبيبها الثقيل فى جسد رع ، حتى يأتى زمن جديد يعود البشر فيه إلى التهامس عليه ، والسخرية به . . .

ويعود إلى الإله حـزنه . غير أنه فى هذه المرة لايفكـر قط فى تعذيب البشر، بـل تملؤه الرغبة فى التنحى عن الملك ، والخلود إلى الراحة والهدوء .

ويعلنها رع داوية فى مجمع الآلهة :

ـ لم أعد أطيق البشر بعد . . ولن يكون أمـامى إذا استمر بقائى بينهـم إلا أن أبيدهم عن آخرهم . . !

وهتفت الآلهة فى دهشة :

ـ لاتتحـدث عن المتاعب يـا إله . . وابق حيث أنـت . . فالبشر مازالوا فى حـاجة إليك .

وأجاب رع .

ـــ لقـد وهنـت أعضـائى ، ودب فى جسدى الانحـلال . . ولـن أبقـى حتـى تهون شيخوختى أكثر مما هانت . لهذا فسأرحل إلى حيث لا يصل إلى بشر قط . . !

ونادى رع ولديه شو . . إله الجو ، ونوت . . إلهة السماء . .

ـ يا ولـدى شو . . أنا تارك لك مقاليـد الملك ، فأكمل مشيئتى وتـول أنت الأمر . وأنت يا ابنتى نوت . . احملى أباك على ظهرك ودعيه معلقا فوق الأرض .

وحاولت نوت أن تعترض . غير أنها أذعنت للأمر فتحـولت إلى بقرة ، وحملت أباها رع فوق ظهرها الكبير . .

وطلع الصبـاح التالى على النـاس ، فإذا رع العظيم قـد غادر قصره . وأطـل الناس أمامهـم ، وإلى ما فـوق رؤوسهم فـإذا بقرة إلهيـة هائلـة قائمـة ومن فـوق ظهرهـا الإله الغاضب من جديد على أهل الأرض !

وسجد الناس ، وراحـوا يتوسلون إلى الإله العظيم أن يبقى بينهـم . وإذ وجدوا من العبث إقناعه . . قرروا أن يظهروا له برهانا على توبتهم . . فأقسموا له أن لن يكون الغد حتى يقتلوا أمام عينيه كل الذين تهامسوا عليه وأتمروا به . . !

ورضى رع . . ونزل من فوق ظهر ابنته . . وعاد إلى قصره الكبير .

وطلع الصباح التالى على الناس ، وقد خرجوا حـاملين أقواسهـم وسهامهم يرمون بها خصوم الإلـه . ولم تستمر المذبحة طـويلا . . فقد ارتفـع صوت رع يخاطب النـاس من جديد :

ـ مغفـورة لكم خطايـاكم يا أبنائى . . فـأنتم إذ ضحيتم بـالمذنبين فإنما كفرتـم عن ذنوب سواهم من الناس . . !

واكتفى النـاس بمن ضحـوا بهم من مـذنبين . . غير أنهم اتفقوا على التضحيـة بعد ذلـك بكل مـن يهين الإله . . حتـى يتقـوا غضبه ، ويكفـروا عـن إهانتـه ، ويتقربـوا إليه . . !

ومع كل ذلك كان رع رحيما بأبنائه مـن البشر . . فلم يحتمل قلبه أن يضحى بعض البشر ببعضهم تكفيرا عـن ذنوب المذنبين . . فقرر أن يهديهم إلى أن يستبدلـوا بالمذنبين

الثيران والطير فى القربـان . . على أن يتلو الكاهـن الذى يتولى تقديـم القربان تعـاويذ خاصة تحل الحيوانات محل المذنبين .

وهكذا أبرم الإله رع تحالفه مع من بقـى حيا من البشر . . ثم اعتلى ظهر البقرة الإلهية ابنته العزيزة نوت . . فارتفعت به وتقوست حتى أصبحت كالقبة .

غير أن نوت لم تستطـع أن تصمد طـويلا . وكـادت تنهار تحت ثقـل رع ، فخارت قواها ، ووهنت قوائمها ، ولم تجد بدا من طلب يد العون . عندئذ قال رع :

ـ ياولـدى شو . . ضع نفسك تحت ابنتى نوت ، وآزرهـا على حملى . اجعلها تستند على ذراعيك القويتين من الجانبين . واحفظها فوق رأسك العظيم .

وأطاع شـو . . وسلمت نـوت من السقوط . وامتـد بطنها كقبـة زرقاء صـارت هى نفسهـا فيها بعد السماء التـى تغطى الكـون . وراح رع ينشـر على صفحتها النجـوم لتنير الليل . وانصرف مـن بعد إلى تنظيـم العالم الجديد الـذى اكتشفه مـن فوق ظهـر البقرة المترامية الأطراف . . .

واستمرت الحياة تسير . . !

أسطوة فرعونية
حكاية الأخوين

لايكاد نوع واحد من أنواع الأساطير يخلو من قصة المرأة التى تكون سببا فى صراع جبار بين أخوين. وهذه الأسطورة المصرية القديمة تعد مثلا رائعا لذلك اللون من ألوان تلك القصة . . يزاح من بين سطورها الستار عن وسائل المرأة فى غرس بذور العداء بين الإخوة، كما يسفر عن ألوان أخرى من الغدر والخيانة والدهاء، تتفنن فيها المرأة سواء كانت من القمة أم كانت من الحضيض، . .

« أنوبو » و« بايتى » شقيقان، يملكان دارا صغيرة على ضفاف النيل العظيم، يقيمان فيها معا. وكان أنوبو الأكبر متزوجا، فكان يتولى شؤون الإدارة والتنظيم، فى حين كان بايتى الأصغر عاملا، يغزل الخيوط ويرعى البقر ويحرث الأرض .

وكان بايتى الصغير يعود من الحقل كل مساء، يسوق بقراته فى هدوء، وعلى ظهره حمل من حشائش الأرض يقدمه لها خلال الليل. وكان متى دخل الدار، يحيى أخاه وامرأته، ثم ينطلق إلى « الحظيرة » يأكل ويشرب وينام. وما تكاد الشمس تستيقظ، حتى ينهض من نومه ليعجن الدقيق، وينضج الخبز، ويقدم المائدة حافلة لأخيه وامرأته. وبعد أن ينتهى بايتى من تناول فتات الخبز، يمنحه أخوه حصته ويصرفه إلى شؤون الحقل . . ويمضى الفتى فيسوق بقراته أمامه، وينطلق إلى الحقل حيث ترعى البقرات وتسمن، لتعود فتضع عجولا صغيرة كثيرة يستغلها « أنوبو» ويخفى ثمنها، ثم لايعطى أخاه منها شيئا قط . . !

وذات يوم، عندما بدأ موسم إعداد الأرض للزرع، ذهب الأخوان معا إلى الحقل حيث يشقى الصغير، ويقف الكبير ليشرف على العمل، ويداه فى وسطه، يأمر وينهى، ولا يفعل شيئا أبدا .

وعندما أتم بايتى حرث الأرض قال له أنوبو :

ـ لقد حان وقت الزرع . . فاذهب إلى الدار وأحضر منه كيس البذور .

وذهب بـايتى الصغير إلى الدار . ودخل على امـرأة أخيه وهى منهمكـة فى تصفيف غدائر شعرها الطـويل . وطلب الفتى من المرأة أن تعطيه كيـس البذور ليعود مسرعا إلى الحقل . وأشـارت المرأة إلى قاعة المخزن ، وقـالت له بلا اكتراث أن يتخير الكيـس الذى يريد . ودخل بايتى فانتقى كيسا كبيرا ملأه قمحا وشعيرا ، ثم رفعه على ظهره ، وسار فى طريقه إلى باب الدار ، ليسرع بالكيس إلى حيث ينتظر أخوه .

ورفعت المرأة عينيها إلى الفتـى . . كان رائعا قويـا كواحد من الآلهة ، تطـل من كل جزء من جسده فتوة الشباب وعنفوانه .

وأحست المرأة كأن فى أعصابها النـار ، وفى جسدها سموم الأفاعى . وقـالت له ومن عينيها تنطلق دعوات كالصراخ :

ـ ما أثقل هذا الحمل فوق ظهرك . ومع ذلك فأنت تبدو كمن يحمل قشة . . !

واضطرب الفتى لإطراء زوجة أخيه . ولكنه سار فى طريقه كمن لم يسمع . وعادت المرأة تقول له :

ـ ما أجمل أن يكون للمرأة زوج نضر قوى ، مفتول العضلات ، مملوء بالعنفوان ! وما أتعس امرأة تعيش مع زوج من قش ، كما أعيش مع زوجى !

وازدادت المرأة اقترابا من الفتـى الصغير ، ووضعت كفها الساخنـة على ذراعه المفتول وهى تهمس :

ـ إنـك أقوى من أخيك يـابايتى ، وأبهى منه عنفـوانا وروعة . لكم تمنيـت أن أكون زوجتك أنت !

وانتفض الفتى كأن قـد لدغته أفعى ، ودفع عنه امـرأة أخيه فى غضب وثورة ، وراح يلقى فى أذنيها أقذر النعوت وأقبح الأوصاف لتعريضها بـأخيه ، وكأنه ما أحس غرضا آخر من وراء محاولات المرأة المشحونة بالإثم والعار . . .

وفتح الفتى الباب ، وانطلق إلى الحقل ، وهو يجهد أن يخفى غضبه ، حتى لايكتشف أخوه سره .

وانهمك الفتى فى العمـل ، وكأن شيئا لم يحدث قط . . وما حاول أبـدا أن يفتح فمه ليقصّ على أخيه من أمر زوجته شيئا . . .

أما هـى . . فقد أرعبها أن يعـرف زوجها الأمر . وامتـلأت رغبة فى الثأر مـن الفتى الذى طعن أنوثتها وأذل كبرياءها . . ولو أدى الأمر إلى القضاء عليه .

وأخذت المرأة تلطخ جسمها بالطين، وتخمش ذراعيهـا وكفيها، لتوهم زوجها حين يعود بـأنها آثار معـركة عـامرة بالمقـاومة، عنـدما حـاول أخوه اغتصـابها، ورفضت أن تستسلم له . . !!

وهبط الليل، وسبق الأخ الأكبر أخاه إلى الدار، فى حين كان بايتى يسوق البقرات فى الطريـق إلى الحظيرة . وعجب أنوبـو عندما وجـد امرأتـه لاتستقبله بباب الـدار تحمل المصباح . وزاد عجبه عندما وجد أنها لم تعدّ الماء لتسكبـه على يديه وقدميه . وانطلق إلى حجرتها، وقد أحس شيئا غير عادى، ففوجئ بها راقـدة تبكى وتتوجع، وكل جسدها تلطخه آثار طين وتراب . . والخدوش تغطى منه كل الذراعين والكفين . . !

وقالت له المرأة ، من خلال الشهقات والدموع :

ـ إنه أخوك يا أنوبو . . لقدحاول أن يفعلها معى عندما حضر ليأخذ البذور. كنت أجلس أصفـف شعرى فاقترب منى، وألقـى كيس البذور على الأرض، وشرع يتفـاخر بقوته ويسخـر من ضعفك . . وعندمـا نهيته هاجمنى وألقـانى على الأرض، وحاول أن يسرق منى مـاتملكه أنت وحـدك . وقاومته بكل عنـف وإصرار وأنا أقول لـه إن أخاك كأبيك فلا تسرق عرضـه . ولكن الإثم كان لايريد أن يغيب عن نظـرات عينيه، فأقسم أن ينالنى بالقوة . . وإذ امتنعت عليه أخذ يضربنى ويشتمنى حتى سقطت من إعياء . ثم ظل يقسم أن يقتلنى إذا بحت لك بما حدث . . ومع هذا فأنا أشكو إليك ولا أخفى عنك أمرا . . وإن كنت أعلم أننـى بذلك أضع حدا لحياتى التى سيسلبهـا منى عندما يعرف أننى أخبرتك . . . هذا إذا لم تسبق أنت وتضع حدا لحياته هو !

وأخذ الإثم والعار برأس أنوبو . . ولم يطق تخيـل تلك الصورة التى اطلع عليها من خلال كلمات امرأته. فأخرج خنجره فشحذه، وانطلق بـه إلى الحظيرة متربصا خلف الباب فى انتظار وصول أخيه .

ومضت لحظات . . ثم ظهر بايتى وهو يسـوق أمامه بقراته فى الطريق إلى الحظيرة . ولم تكد أولى البقرات تدلف من الباب حتى سمعها تقول له :

ـ حذار ، حـذار . . إن أخاك متربص لك وراء الباب وفى يـده خنجر مشحوذ . . فانج بنفسك !

ودخلت البقرة الثانيـة . . فسمعها هى الأخرى تعيد ماقـالت الأولى . وكلما دخلت بقرة جديدة سمع نفس التحذير والإنذار .

وأخذ العجب بالفتى الصغير. . وانحنى بناظريه يحاول استطلاع ماخلف الباب . . فإذا قدما أخيه تتحركان فى بطء . . استعدادا للهجوم . .

وفى لحظة . . أدار بايتى رأسه ، وانطلق يعدو بكل مافى جسده من قوة ، ومن خلفه انطلق أخوه رافعا خنجره الطويل المسنون . . !

واستعان بايتى بالإله رع حورس ، وأخذ يهتف فى رعب :

ـ أيها الإله الشمس . . يامن تنتصر للمظلوم من الظالم ، أقم الحواجز والسدود بينى وبين أخى . . . !

واستجاب الإله لدعوات الفتى . فإذا نهر هائل يجرى بينه وبين أخيه . . تمتلئ مياهه بأفواه التماسيح . وإذ رأى الفتى ذلك توقف عن الجرى والتفت إلى أخيه الواقف يغلى على الضفة الثانية :

ـ يا أخى أنوبو . . ابق مكانك حتى تطلع الشمس . . فتحكم بعدها بينى وبينك ، ويأخذ كل واحد منا حقه . ولكنى أنبئك منذ الآن أننى سأذهب إلى وادى الطلح . . ولن أقيم بعد ذلك فى مكان تكون أنت مقيما فيه . . !

وعندما طلع النهار، وأشرق رع حورس، وقف الأخوان يحتكمان إليه . وقال بايتى يخاطب أخاه :

ـ لماذا حكمت على بالموت قبل أن تستمع إلى دفاعى؟ أنا لست خائنا ولايمكن أن أكون . لقد بعثتنى لأجلب البذور، فراحت امرأتك تقول إننى أقوى منك وأكثر عنفوانا . وزينت لى الإثم وهى تقول إنها كانت تتمنى أن أكون أنا زوجها . فعنفتها ونهيتها ثم انصرفت . وفى الوقت الذى رفضت فيه أن أخبرك بالأمر حفاظا عليها ، كانت هى تختلق قصص الإثم لتقتص منى . واستمعت أنت إلى الأفعى فخنت أخوتى وغدرت بى ، وأردت أن تقضى علىَّ !

وسكت الفتى لحظات وهو يمسح دموعه . . ثم عاد يقول :

ـ وبرغم كل ما أردت أن تصنع بى يا أخى سأصفح عنك . . فعد إلى بيتك وزوجتك ، واعتن وحدك ببقراتك . أما أنا فسأذهب إلى وادى الطلح ، ولن أقيم بعد حيث تكون . . !

وبكى أنوبو وهو يعتذر لأخيه :

ـ أنا مؤمـن بخطئى ، وسأعرف كيف أنتقم من المرأة الخائنة . . ولكـن أنت يا أخى لاتشتط فى غضبك ، وابقَ معـى نعشْ كأحسن مايكون الأخوة ، وانـزع عن رأسك هذه الأفكار التـى ملأتـه . . فلن تستطيـع الحياة وحـدك بوادى الطلـح ، حيث الـوحوش والشياطين .

وهز الفتى الصغير كتفيه وهو يجيب :

ـ لقـد انتهى مـاكان يربطنـا منذ سللـت خنجرك لتطعننى . ومـع هذا ، فـإن كنت لاتزال تحب أخاك ، فسيمهد لك رع حورس سبيل التوبة عندما أقع أنا فى مصيبة ، ولا يكون هناك من أحد ينقذنى سواك .

وهتف أنوبو :

ـ كيف أستطيـع إنقاذك يابايتـى ، وأنت فى وادى الطلح ، وأنا أقيـم هنا ، ولا أدرى من أمرك شيئا .

قال له بايتى :

ـ سأضـع قلبى على إحدى زهرات الطلـح بقوة السحر . فإذا حـدث وقطع أعدائى سـاق الشجرة فسيقـع قلبى على الأرض . وعنـدئذ ستفـور الجعة فى كـأسك وتتعكـر ، وستحس مرارة كالنار فى حلقك . فإذا أردت فى تلك اللحظة أن تنقذنى ، فألق بالكأس على الأرض ، وأسرع إلى وادى الطلـح بـاحثـا عـن قلبـى الـذى سيكـون قـد غـاص واختفى . . فإذا وجدته فضعه فى إناء ماء بارد . وعندئذ ترتد إلى جسدى الحياة ، وأنهض لأنتقم بنفسى من كل من أراد لى الموت . . !

وانطلق بـايتى إلى وادى الطلح وعـاد أنوبو إلى بيتـه ، فهاجم امـرأته ومزقهـا بنفس الخنجر الذى أرادت أن يقتل به أخاه ، وحمل الجثة الخائنة فألقى بها إلى الكلاب . . !

عـاش بايتـى فى وادى الطلح هـادئا سعيدا ، يقضـى أوقـاته فى مطـاردة حيوانـات الصحراء ، ويعود مع الليل إلى بيت أنيق صغير أقامه فى جانب الوادى .

وبينما هو جالس ذات يوم ، مر به الآلهة التسعة الـذين يدبرون شؤون مصر . وقال له الآلهة :

ـ ألا تؤلمك العزلة يابنى؟ أليس من الخير لك أن تعود إلى بيتك بعد أن ثأر لك أخوك من امرأته؟

وسجد بايتـى للتاسوع المقدس . والتمس من الآلهة أن يتركـوه فى وادى الطلح حيث يعيش . .

ورأى رع حورس أن يخفف عن الفتى وحشة العـزلة . فأمر الإله الخلاق « خنوم» أن يخلق له امرأة تشاركه الحياة . وخلق لـه « خنوم» زوجة أجمل من كل نساء الأرض ، تشبه إيزيس . . !

وهبطـت الزوجـة لتقع بين أحضـان الفتى الصغير . ومـلأته فـرحة غـامرة وسعـادة لاتوصف . ولم يدر أن ربات الجهال السبع ماكدن يشاهدنها وهى تقع بين ذراعيه حتى تنبأن فى صوت واحد بأنها ستموت بالسيف . !

وأحب بـايتى امرأته حبـا لم يحبه رجلٌ لامرأةٍ قـط . وبلغ به الحب حدا جعلـه يغار عليها من النيل نفسـه ، فمنعها من مغادرة الدار أو الاقتراب من النيـل حتى لايخطفها النهر . ومن أجل أن يؤكد لها مدى حبـه وإخلاصه ، كشف لها عن سر قلبه المعلق على زهرة شجرة الطلح ، وحذرها من قطعها حتى لايفقد حياته ويموت . . !

وخرج بـايتى للصيد ذات يـوم . وكان الضجر قد استبـد بامرأتـه لطول ما أقـامت وحدها فى البيـت ، فانتهزت الفرصـة ، وغادرت الدار منطلقة إلى حيـث شجرة الطلح التى حذرها من الذهاب إليها ودفعهـا الفضول إلى رؤية القلب المعلق على الزهرة . وإذ أشبعت فضولها ، جلسـت على جانب النهر ، وكشفت عـن ساقيها الجميلتين ، ودلتهما فى الماء وهى تحركهما فى صخب ولذة وانطلاق .

واضطرب النيل وأثـاره مرأى الساقين الجميلتين ، وأحس جـوى إليها فدفع أمـواجه تضمها وتحاول اختطافها . ولكنها سارعت بـرفع ساقيها العاريتين ، وانطلقت تجرى فى خوف إلى داخل الدار .

وأسف النيـل لهرب المرأة التى رغب فيهـا . وراح يتوسـل إلى شجرة الطلح أن تـدعه يخطفها ، ولكـن الشجرة رفضت تـوسله ، وظلت على رفضهـا وهو على توسلـه ، حتى أشفقت به آخر الأمر ، فمنحته خصلة من شعر المرأة ، شم فيها عبيرها ويطفئ بها ظمأه المجنون . . !

وحمل النيل خصلـة الشعر وراح يجرى . ولم يتنبه خلال جـريانه إلى مغتسل فـرعون الذى كان يمتد من جانب الشط ، فاذا بخصلة الشعر تسقط فى حوضه ، وإذا بالطيب الساحر يتسرب منها إلى ثياب فرعون فيثير أعصابه ، ويقسم ليقتلن رئيس الغسالين إذا لم يأته بسر الطيب . . !

وطفق رئيس الغسالين يبحث وينقب، حتى عثر آخر الأمر على خصلة الشعر فى الحوض، فحملها إلى فرعون الذى شمها، فأحس نشوة صاخبة مجنونة، وأمر بالسحرة أن يأتوا إليه للتو .

واجتمع كل سحرة المملكة عند الملك . وأخذوا يفحصون خصلة الشعر ولايفهمون لها سرا . ولكن واحدا منهم هتف آخر الأمر:

- أيها الملك، هذه الخصلة انتزعت من شعر إحدى بنات الإله رع حورس .

وأقسم الملك ليبحثن عن ابنة الإله ذات العبير الساحر وأرسل رسله يجوبون كل أنحاء الأرض . وعاد بعضهم ليرفعوا تقارير فشلهم إلى الملك . أما الآخرون الذين ذهبوا إلى وادى الطلح، فلم يعد منهم سوى واحد فقط، استطاع الهرب من بايتى الذى قتل كل رسل الملك عندما حاولوا التسلل لمعرفة مكان امرأته .

وانطلق الرسول الهارب إلى الملك يخبره بمكان ابنة الإله رع حورس .

وأمر الملك فرقة من الفرسان والرماة بالذهاب إلى وادى الطلح . وأرسل مع الفرقة امرأة أوصاها بمرافقة ابنة الإله متى تم اختطافها، ومساعدتها على التأنق والتزين . وكمنت الفرقة بين الغاب حتى خرج بايتى للصيد . . فهاجموا البيت الصغير واختطفوا المرأة التى خلقها «خنوم»، وانطلقوا بها إلى فرعون .

* * *

عاشت المرأة فى القصر سعيدة كملكة . واستقر بها الرأى أن تبقى هناك أبد الدهر، ولاتعود إلى وادى الطلح حيث الرجل الذى لم تخلق لسواه . وعندما بدا لها أن سيأتى اليوم الذى لابد أن يعثر عليها فيه زوجها، انطلقت إلى فرعون تكشف له سر القلب المعلق على زهرة شجرة الطلح، وكيف يفقد الرجل حياته متى قطعت الشجرة وسقط القلب . . !

وانطلق رسل الملك من جديد إلى وادى الطلح . وعندما عادوا كانت الشجرة قد قطعت، وكان القلب قد اختفى تحت الأرض .

ومضى نهار كامل . . وجاء مساء . . .

وجلس « أنوبو » الشقيق الأكبر فى بيته يملأ كأسه، فاذا بها تتعكر وتزبد . ومن خلال زبد الجعة شهد أنوبو وجه شقيقه . . فأدرك أنه فى حاجة إليه .

ولبس أنوبو حذاءه، وحمل سلاحه، وأخذ طريقه إلى وادى الطلح. وعندما دخل بيت أخيه وجد الجثة لاتزال ساخنة فوق الفراش. وراح يبحث هنا وهناك عن القلب الضائع، ولكنه لم يستطع أن يعثر عليه.

واستمر أنوبو يبحث ويجدّ فى البحث . . وراحت الأيام تنقضى وتعقبها الشهور، وهو لايزال يبحث عن قلب أخيه حتى مضت ثلاث سنوات. وأدرك فى النهاية أن الأمل قد ضاع، وقرر أن يعود إلى المدينة.

وفى اليوم الذى يسبق الرحيل، نزل أنوبو يبحث عن قلب أخيه آخر مرة. فظفر ببذرة فى شكل قلب، لم يكد يضعها فى كأس به ماء بارد، حتى انتفخت، وظلت تتشبع بالماء وتنتفخ حتى صارت فى حجم القلب. ولم يكد القلب يبلغ حجمه الطبيعى حتى تحرك الجسد الذى كان لايزال محنطا فوق الفراش، وفتح بايتى عينيه، وعادت الحياة إليه!

* * *

انطلق الأخوان عائدين إلى منفيس. وخلال الطريق راح بايتى يقص على أخيه كيف سينتقم من المرأة التى خانته، والملك الذى قتله . . واتفقا معا على الطريقة التى يمكن أن يدخلا بها القصر.

وفى الصباح، تحول بايتى إلى صورة ثور . . يحمل كل علامات التقديس. من سواد الشعر، وبياض الجبهة، وانتصاب نسر مبسوط الجناحين على الظهر وصورة جعران على اللسان، مع غزارة فى شعرات خُصلة الذيل . . !

وطلب بايتى من أخيه أن يقوده فى تلك الصورة إلى القصر حيث تعيش امرأته . . وقال له :

ـ سر بى إلى بلاط فرعون. فهناك سيحسنون وفادتك ، ويقدمون لك خير الطعام، ويثقلونك بالذهب والفضة . . وسينظر الناس إلىّ نظرهم إلى تحفة خارقة، ويقدسوننى، ويجعلون لى فى الأرض أعيادا. عندئذ عد أنت إلى بيتك، واتركنى داخل القصر حيث أنزل نقمتى بكل من فيه . . .

وانطلق أنوبو يقود الثور فى الطريق إلى القصر. وأطلت الملكة فإذا ثور مقدس فيه كل علامات التقديس يقوده فلاح. فأمرت باستدعاء صاحبه.

ودخل أنوبو يقود الثور حتى القاعة التى يجلس فيها الملك والملكة، فلم يكد الملك يرى الثور حتى انحنى له، ثم أمر بأكياس من الذهب والفضة تهدى للفلاح، وأخذ الجنود الثور إلى حظيرة أنيقة، لايغلق بابها أبدا، وكلف أمهر العبيد بالسهر عليه، وتدليله، ورعايته كل صباح ومساء.

وراحت الأيام تمضى، وبدأ الثور ينزل وحده من الحظيرة إلى الحديقة، ولا أحد يمنعه، فما كان أحد فى مصر يجرؤ على اعتراض طريق ثور مقدس، أو حرمانه من التمتع بحريته.

وذات يوم، دخل الثور حرم القصر. ووقف أمام أجمل نساء فرعون وأحلاهن. . . ولم تكن سوى الملكة . . . زوجته . . !

وانتبهت امرأة فرعون إلى الثور، ومدت كفها تربت شعره. ولم تكد تفعل حتى سمعت من بين شفتى الثور صوتا يدعوها . . فانحنت لتنصت . . وقال الثور: انظرى . . هأنذا حى . . !

وهتفت الملكة فى فزع ورعب :

ـ أنت . . !؟ من تكون أنت . . !؟

وقال الثور :

ـ أنا بايتى زوجك الذى خلقك من أجلى الإله . . لقد طلبت من الملك قطع الشجرة لأموت . . ولكنى مع ذلك مازلت حيا فى جسد ثور . . !

وغادر الثور حرم القصر. وترك زوجة فرعون أشد ماتكون فزعا ورعبا . . .

ومضى ذلك اليوم . . وتبعه آخر . . .

وبينما كان فرعون يجلس إلى زوجته حول مائدة عامرة بأطايب الطعام والشراب، جعلت هى تملأ له الكأس تلو الكأس . . حتى ثمل وانهار. وأسلس لها القياد . . هنا قالت المرأة لفرعون :

ـ عدنى بحياة رع حورس، أن تمنحنى كل ما أطلب منك . . !

وضحك الملك فى نشوة لاتعى وهو يقول :

ـ وحياة رع حورس . . لأمنحنك ماتطلبين . . !

ـ إذن امنحنى كبد ذلك الثور الحبيب . . !

وفى نشوة الخمر . . وانتظار اللذة . . أمر الملك بذبح الثور . .

وانطلق الجزارون وفى أيديهم السكاكين ، وعندما غادروا الحظيرة كان كل شىء قد انتهى . وكان جسد الثور محمولا على أعناقهم وقد فارق الحياة !

ومر الجزارون وجسد الثور معهم أمام باب فرعون . وبينما هم يمرون ، قطرت الجثة دما أمام الباب ، لم ينتبه إليه أحد . ومر اليوم وجاء صباح ، فإذا شجرة لبخ قد ارتفعت حيث قطر الدم . . وهى تحمل ثمارًا حلوة لذيذة مقدسة . . !

وأحيط الملك علما بالمعجزة . فأقام حفلا رائعا للشجرة . . اشترك فيه كل أهل مصر . .

ومضت أيام . . .

وهبط الملك إلى الحديقة ذات يوم وإلى جواره زوجته . وتحت شجرة اللبخ المقدسة ، جلس الملكان يتساقيان كؤوس الحب . وإذهما فى نشوتهما انتبهت الملكة إلى صوت يقول لها :

ـ أيتها المرأة الخائنة . . أتفعلين ذلك وأنت تستظلين بظلى أنا زوجك بايتى . . !؟

وصرخت المرأة وهى تحملق فى الشجرة التى عادت تقول :

ـ هأنذا ماأزال حيا برغم كل أوامرك وخياناتك . لقد طلبت قطع شجرة الطلح ليموت قلبى ، وأمرت بذبح الثور لأفقد الحياة . . ولكنى مع ذلك لا أزال حيا أتبعك فى تلك الشجرة التى تطل عليك كل صباح ومساء . . !

ومضت أيام أخر . . .

وبينما الملكة تقضى مع الملك وقتا لايكاد خلاله يستطيع أن يرفض لها طلبا . . قالت له :

ـ عدنى بحق رع حورس . . أن تمنحنى كل ما أريد . . . !

ـ وحياة رع حورس . . لأمنحنك كل ماتريدين .

ـ أصدر أمرك بقطع شجرة اللبخ . . وليصنع لى من خشبها خزانة جميلة رائعة . . !

وفى اليوم التالى أمر الملك بقطع شجرة اللبخ ، ووقفت الملكة تتشفى حين كان النجارون يشقون الساق ليصنعوا لها خزانتها .

وفجأة . . وبينما هـى تأمـر وتنهى . . طـارت إلى فمها قطعـة صغيرة من الخشـب ابتلعتها بالرغم منها . . ولم تهتم لها أبدا . . .

ومضت أيام وشهور . . وجاء الملكة المخاض . . .

وولدت امرأة فرعون ولدا ذكرا . . . لم يكن سوى بايتى . . هو نفسه . . !

وفرح الملك بـالطفل الصغير . وأعلنه وليا للعهـد ووارثا للملك من بعـده على كل أرض مصر . . !

وراحت السنـوات تمضى والأمير يكبر والملك يقترب من الشيخـوخة . وعندمـا بلغ الفتى عنفوانه ، كان فرعون فى طريقه إلى السماء . . .

وملأت الأفـراح كل مصر وهـى تحتفل بالملـك الجديد . وبينما الكهنـة يضعون على رأس فرعون تاجه . . طلبوا منه أن يتزوج أمه . . زوجة الفرعون الراحل !

وجلس فرعون الجديد على العرش . . ودعا إليـه كل الكهنة ، وكل القادة ، وكل من فى مصر من أعيان . . .

وبينما الجميع ينتظرون أن يعلن الملـك زواجه بالملكة . . انطلق صوتـه عميقا يحكى كل ما كان . . . منذ خرج هاربا من دار أخيه . . حتى أجلسته الآلهة على عرش مصر . وبين هذا وذاك عـرف الجميع مـن تكون المرأة التـى تقف أمـامهم لتكـون زوجة الملـك الجديد . . !

وارتفع صوت الملك يسأل كهنته وقواده عن الحكم الذى ينزلونه بالمرأة الخائنة . . وفى صوت واحد قال الجميع :

ـ الموت . . !

ونفذ الحكـم . . وبالسيـف قطع رأس الملكـة . . تماما كما تنبـأت لها ربات الجمال السبع . .

أما بـايتى . . فقد استمـر يجلس على عرش مصر عشريـن سنة . . طار بعـدها إلى السماء . . تاركا عرشه لأنوبو . . . الأخ الذى كاد يقتله ذات يوم بسبب امرأة . . . !؟

أسطورة فرعونية
رحلة إلى الآخرة

برع المصريون فى السحر حتى صار علما يتقنه العلماء ويتفننون فيه . وأصبح لهؤلاء السحرة النفوذ الأكبر والمقام الأسمى أمام الفراعنة ، يدعونهم لتأويل أحلامهم والانتصار بهم على أعدائهم بخارق مايقدمون من معجزات .

وقد نبغ أبناء بعض الملوك فى السحر حتى أقيمت لهم التماثيل . . ومن بينهم ساتنى الذى يجيء ذكره فى هذه الأسطورة . والذى يكشف خلال رحلته سر يوم القيامة والحساب عند قدماء المصريين .

كان يكره نفسه . . . فبرغم العلم الخارق الذى وهبه له الإله بتاح ، والحكمة والمهارة والبراعة فى السحر ، لم يكن « ساتنى » ابن الفرعون « أوزيناريس » ليعرف السعادة قط . وكان عقمه هو سر تعاسته ، فما استطاعت زوجته الأميرة « ماهى » إنجاب ولد يخفف عنهما شقاء الوحدة ، وما عرفت رموزه السحرية ، ولا الطقوس والتعاويذ ، كيف تمنحه القدرة على إنجاب ولد . . بعد أن حرمته عليه الآلهة .

ومع هذا فما كفت « ماهى » قط عن الصلاة للإله « بتاح » رب منفيس ، والابتهال إليه أن يجود عليها بولد . ولم يحتمل قلب الإله بتاح كل تلك الآلام التى تعتمل فى قلب المرأة التى تقدم له كل يوم عشرات القرابين . وأخذته بها شفقة رقيقة حانية ، فأرسل إليها رسله تهتف فى أذنها ، إذ تملكها النعاس وهى تصلى فى المعبد :

ـ أبشرى يا ابنة فرعون . فالآلهة التى لاتنسى عبيدها المخلصين ، قد استجابوا لصلواتك !

وفى نفس اللحظة ، سمع « ساتنى » فى نومه هاتفا يهتف به :

ـ يا ابن فرعون ستضع امرأتك طفلا سمه « سنوزيريس » ولتهنأ مصر بالخوارق التى يأتيها لكل الناس .

وكان الإله بتاح عند وعده . فما مضت أيام حتى كانت « ماهى » قد وضعت طفلا سماه أبوه « سنوزيريس » لم يكد يرى النور حتى هتف باسم بتاح . . ثم سجد يصلى . . . !!

وكانت هذه أولى معجزات سنوزيريس الذى أدرك أبوه لأول وهلة أنه أمام قوة خارقة لم يكن لسحره أن يواجهها بشىء قط . بل إن سحره ماكان ليستطيع أن يجعل من الوليد محدثا يناقش الكهان كما فعل وليده وهو مازال فى المهد، وكاتبا يبز المكلفين بتعليمه كما حدث مع ابنه عندما بلغ سن السادسة . . !!

والحق ، أن « سنوزيريس» كان أكثر من معجزة . وكان ـ وهو فى تلك السن ـ يشترك مع كهنة بتاح فى قراءة كتاب الحكمة ، ويدهشهم بقدرته الخارقة على تفهم القديم من نصوصه التى وضعها الإله توت قبل ذلك بمئات السنين . . !!

وذات يوم ، بينما كان « ساتنى» يغتسل على سطح بيته ، وإلى جواره ولده سنوزيريس ، شق السكون صوت عويل يرتفع فى الطريق ، تختلط به أهازيج موسيقى الموت . وأطل « ساتنى » فإذا مأتم رهيب ، لواحد من الأغنياء يشيع إلى مدفنه الأخير فى موكب فخم ، يزيد جلاله شجو الألحان التى تسير معه حتى مقابر منفيس .

ومضت لحظات ، وإذا ميت آخر يعبر الطريق ، ملفوف فى خرقة ، يشيعه بضعة أفراد من ولده ، إلى خارج منفيس . . بغير موسيقى ولا احتفال ولا موكب . . حتى الدمع نفسه ، ماكلف أحدهم نفسه أن يذرفه من وراء الجثمان .

وهتف « ساتنى» وهو يطل إلى السماء :

ـ يا أوزيريس . . ياسيد « الأمنت» العظيم القدرة فى العالم الآخر . . اكتب لى دخول دار الأموات فى عظمة وجلال كهذا الغنى ، ولا تحرمنى شجو الموسيقى وندب النادبين ، كما حرمت هذا الفقير .

ونظر إليه ولده « سنوزيريس» طويلا ثم قال :

ـ يا أبت ، إنى لأتمنى لك أن تموت ميتة هذا الفقير ، لاميتة ذلك الغنى . . !

وتألم « ساتنى» وهو يسمع أمنية ولده . وقال يعاتبه :

ـ لكم تؤلمنى ياولدى سنوزيريس . . أهذا هو الدليل على حبك لأبيك ؟

وأجابه الصبى :

ـ إذا أردت . . فأنا على استعداد لأطلعك على مصير كل منهما فى الآخرة : الغنى الذى بكاه الناس ، والفقير الذى لم يجد من يبكيه . . !

وعجب « ساتنى» وراح يسأله :

ـ وكيف تستطيع ذلك ياسنوزيريس . . !؟

عندئذ ، أمسك « سنوزيريس» بيد أبيه ، وأخـذ يتلو تعاويذ بدت غريبة حتى على أبيه الساحر العظيم . . ثم انطلق به يقوده إلى جبل منفيس حيث هبطا معا فجوة ضيقة بين الصخر، ما كادا يهبطانها حتى وجدا نفسيهما فى قاعة قادتهما إلى أخرى أكثر سعة ، ثم إلى ثالثـة تزيد اتساعـا عن كل قاعات قصر الفـرعون نفسه . وهنا شهـد « ساتنى» جماعة مزدحمة من الناس . . فيها الفقير والغنى ، الوضيع والرفيع ، الجميل والقبيح .

وعاد « سنـوزيريس» يقـود أباه ويجتاز به البـاب إلى قاعة رابعـة ، حيث شهدا قـوما مولين وعلى ظهورهم حمير تأكل . . وقوما آخـرين يمدون أيديهم إلى الطعام المعلق فوق الظهور فلا يستطيعون إليه سبيلا ، إذ تقف دونهم حفر يحفرها قوم آخرون ، تتسع وتتسع وتحول بينهم وبين الوصول إلى الزاد!

وتحولا معا ليجتازا القاعـة الرابعة إلى الخامسة . وشهد « ساتنى» باب القـاعة يرتكز على عين رجـل راح يستغيث ويصرخ . . ومـن خلفه نـاس يبكـون ويلحون فى طلـب الدخول فلا يسمح لهم أبدا . . .

وكان لابد لساتنـى وولده كى يدخلا القاعة الخامسة ، أن يطـآ الرجل المنطرح تحت الباب . وكان هذا جزءا من العقاب الذى قدر له : أن يطأه كل الأموات الذين يجتازون قاعات العذاب إلى مكان السعداء . . !

وكانت القاعة السادسة . . .

وشاهـد « ساتنى» محكمة الموتـى منعقدة ، يرأسهـا القاضى الأكبر أوزيريـس سيد «الأمنـت» . . أى الدار الآخـرة . . متربعـا على عرش مـن ذهـب ، وفـوق رأسه تـاج الجنوب الأبيض المرصع من جانبيه بريشتـى نعام . وإلى جوار أوزيريس كان يتربع الإله أنوبيس ، والإله توت ، وحولهما من شمال ويمين اثنـان وأربعون قاضيا من الآلهة تكتمل بهم هيئة المحكمة .

وكـان هناك فى وسـط القـاعة ميـزان توزن فيـه الحسنـات والسيئات . . يستجـوب أنـوبيس الميـت ويدون تـوت أجـوبته . فمـن رجحـت حسناتـه السيئات قـاده الآلهة المحيطون بأوزيـريس إلى جنة الأموات الصـالحين حيث يتمتع بالسعـادة الخالدة . وأما من رجحـت مساوئه حسنـاته ، فإنـه يسلـم إلى « معت» كلبـة سيد الأمنـت المفترسة ، المستلقية تحت قدميه ، مستعدة دائما لتمزيق كل محكوم عليه بالعقاب .

وتفـرّس « ساتنـى» فى إلهة العقـاب . . فإذا فمهـا فـاغر كـأتـون ، ومخالبها حـادة كسكين ، ورأسها مدبب كتمساح ، وجسمها بشع كتنين . . . !

وبينما « ساتنى» يتأمل إلهة العقاب إذا به يلمح رجـلا نبيل الطلعة ، يرتدى ثوبا من كتان فاخر، يقف إلى جـوار أوزيريس . وسأل « ساتنى» ولده عمن يكـون هذا الرجل فأجاب :

ـ هذا هو الفقير الذى رأيته مكفنا بخرقة بالية ومحمولا بلا موكب إلى خارج منفيس . إنه هو نفسه الذى تمنيت يا أبى ألا تموت ميتتـه . لقد حل أمام محكمة الموتى، فرجحت حسناته سيئاته . إنه تعذب كثيرا فى الأرض ليسعد طويلا فى السماء . ولكى تتم سعادته خلع أوزيـريس عنه كفنـه الممزق ، وألبسه كفن الغنـى الذى رأيته مشيعـا فى حفاوة إلى مقبرة منفيس . هذا الغنـى نفسه هو الذى وطئته قـدماك عندما ولجت القـاعة ، وكان محور البـاب مرتكـزا فى عينه اليمنـى يفريها كلما فتـح أو أغلـق . . فقد حـوكم الغنـى فرجحت سيئاته حسنـاته ، وحكم عليه بالعقاب الصارم . وهكذا تـرى يا أبت أننى قد تمنيت لك فى الأرض ميتـة الفقير لاميتة الغنى . . لأننى كنـت أعلم مصير كل منهما فى الآخرة . . .

وقال « ساتنى» يسأل ولده :

ـ لقـد رأيت يـا بنى فى « الأمنت» مـا أدهشنى ، فهل تستطيـع أن تخبرنى عـن هؤلاء الذيـن رأيناهـم مـولين وعلى ظهورهم تـأكل الحمير. . ؟ وعـن أولئك الذيـن لايملكون سبيلا إلى الزاد بسبب الحفر التى تزداد وتتسع تحت أقدامهم . . ؟

أجاب سنوزيريس :

ـ أجل يا أبت . الأولون هم أبناء هذه الأرض الذين لعنتهم الآلهة . يعملون ليل نهار ليضمنـوا بقـاءهـم . فتتحـول نسـاؤهم إلى حمير نهمـة . تنهـب أمـوالهم وتـأكـل على ظهورهم . أما الذين يمدون أيديهم عبثا إلى الطعام ، فهـم أولئك الذين استأثروا بخيرات الأرض وماشبعوا ، فعوقبوا بالحرمان جزاء حرمانهم الآخرين . . !

وما كاد سنوزيـريس ينتهى من شرح ماعمى على أبيه ، حتى أخـذ بيده ليعود به إلى الأرض من جديد .

. . . وظل سنوزيريس يقدم الخوارق كل يوم إلى أهل الأرض . . !

وذات يوم بينما كان فرعون جالسا على عرشه فى منفيس ، بين مستشاريه وقواده وكبار موظفيه ، دخل الحاجب يعلن وجود مشعوذ حبشى بالباب ، يبغى المثول بين يدى فرعون ، ويزعم أنه يحمل رسالة مختومة . وعندما أذن الملك ، دخل القاعة رجل حبشى سلم ثم قال :

ـ أنا قادم من بلادى أيها الملك ، لأسأل هل فى استطاعة أحدكم أن يقرأ القصة المدونة فى الكتاب الذى أحمله دون أن يفضه؟! لو أن أحدكم استطاع فسأعود إلى بلادى . . بلاد الزنوج لأقول إن علماء مصر هم خير علماء الأرض. أما إن عجزتم وعجز كتابكم وعلماؤكم عن ذلك فأنا عائد إلى بلادى لأعلن أن مصر بلد متأخر لايعيش فيه سوى الجهال والأغبياء . . ! وأحس الملك ، والقادة ، والجميع ، كأن الأرض تميد بهم ، وهتفوا جميعا :

ـ وحق بتاح العظيم . . كيف يمكن لعالم أو كاتب مهما برع فى تفهم الرسوم الهيروغليفية ، والنصوص الغامضة ، أن يقرأ قصة فى كتاب دون أن يفضه!؟

غير أن فرعون كان يخشى أن توصف بلاده بالجهل والتأخر، فأرسل إلى ولده «ساتنى» كبير السحرة والحكماء يستدعيه . وحضر الابن وسجد لأبيه الذى قال له :

ـ أسمعت يا ولدى ما قال المشعوذ الحبشى؟ إنه يتحدى كل علماء مصر وكتابها أن يقرءوا قصة فى الكتاب الذى يحمله دون أن يفضه؟

وأجاب ساتنى :

ـ ياصاحب الجلالة . . ما من أحد يملك القدرة على أن يقرأ كتابا دون أن يفضه . ومع ذلك فأمهلنى عشرة أيام أتدبر خلالها كيف أمنع الزنوج من أن يتهموا بلادنا العزيزة بالتأخر والجهل . . !

ووافق الجميع على الانتظار. وأعدت للمشعوذ الحبشى غرفة ينزل بها حتى يعقد الاجتماع المنشود . . ويرد فيه ساتنى على التحدى الغريب . . !

* * *

انطلق ساتنى إلى بيته وفى القلب منه غيظ مجنون . . كانت الحيرة تأخذ به ، وخوف الفشل يرعبه ، واستلقى على فراشه يبغى النوم ، ولكن هيهات للنوم أن يزوره أبدا .

ودخل سنوزيريس على أبيه ، فوجده يتقلب كمن يرقد فوق جمر. وسأل الابن أباه :

ـ ماذا بك يا أبت؟ بح لى بسر ألمك وأنا كفيل بأن أبدد أوجاعك وآلامك . . !

وأجاب ساتنى :

ـ دعنى ياسنوزيريس . . إن مابى ليتعدى قدرة الصغار على تخفيف الآلام والأوجاع . . حتى لو كانوا يملكون كل أصول السحر . .

ولكن سنوزيريس لم يزل بأبيه يلح ويحلف ، حتى اضطر ساتنى آخر الأمر أن يقص عليه قصة المشعوذ الحبشى ، وتحديه لكل أهل مصر . حتى فرعون . . !

ولم يكد سنوزيريس يسمع القصة حتى برقت عيناه ببريق غريب ، ثم انفجر ضاحكا فى صخب كبير أثار عجب ساتنى فراح يقول له :

ـ ما الذى يضحكك كل هذا الضحك ياولدى؟ أو تسخر منى . . !؟

قال سنوزيريس :

ـ إنما أضحك لأن الهموم التى تهدّ قواك لم يسببها سوى ذلك الأمر التافه الضئيل . انهض ياأبت ، ولك منى العهد أن أقرأ قصة الحبشى كاملة ، دون أن أفض كتابه . . !

وسرى عن ساتنى . . وإن ظل ينتابه بعض الشك . .

وانطلق ساتنى إلى الفرعون أوزيناريس ، فقص عليه الأمر ، ورجاه أن يدعو أهل القصر كلهم إلى الاجتماع . . ويأمر بإحضار المشعوذ الحبشى . .

واكتمل الجمع . ووقف الحبشى وسط القاعة يتحدى . . وفى يده الكتاب مغلقا مدفونا بين طيات ثيابه .

ووقف سنوزيريس يرد التحدى :

ـ ملعون أنت أيها الحبشى . لقد أغضبت آمون الإله الأكبر، وبتاح رب منفيس . وجرؤت على القدوم إلى مصر . حديقة أوزيريس ، وبلاد رع العظيم . . ووقفت تتحدى بقولك . . سأعود إلى بلادى . . بلاد الزنوج وأعلن أن علماء مصر كلهم جهلاء . ألا فلينصب عليك غضب آمون . . وهأنذا أمام سيدك وسيدنا فرعون العظيم . . أتلو كل حرف من قصة الكتاب الذى تخفيه تحت ثيابك . . وإذا نجحت فى مهمتى فإياك أن تنكر على ذلك . . .

وانحنى الحبشى أمام سنوزيريس، وقد أحس شيئا من الرهبة وقال :

- إذا نجحت فى مهمتك فلك منى العهد أن أعترف بنجاحك أمام الجميع . . .

وساد القاعة صمت غريب . . الفرعون والأمراء والكهنة والقادة . . وأفراد الشعب كلهم ، فى انتظار كلمة النصر المعلقة على شفتى سنوزيريس الصغير.

وبدأ سنوزيريس يتلو قصة المشعوذ فقال :

هى قصة مجهولة جرت حوادثها فى عهد فرعون « سيا - آمون» . فى ذلك العهد كان ملوك الحبشة أعداء لمصر، وكانوا يتحينون الفرص للنيل منهم بمختلف الوسائل والأساليب . وقد اجتمع مرة ثلاثة من سحرة الأحباش الماهرين، وأخذوا يبحثون الوسيلة إلى إهانة مصر وإذلال شعبها .

قال الأول :

- إن باستطاعتى أن أرمى مصر بسحر يغرقها فى الظلمات الدامسة ثلاثة أيام وثلاث ليال، دون أن يتسلل إليها خيط واحد من النور . . !

وقال الثانى :

- وأنا باستطاعتى أن أرمى مصر بسحر يجدب كل مافيها من حقول لسنوات ثلاث . . !

وقال الثالث :

- أما أنا فباستطاعتى أن أرمى مصر بسحر ينقل ملكها إلى الحبشة حيث يجلد علنا خمسمائة جلدة . ثم يعود إلى بلاطه فى أقل من ست ساعات . . !

وصفق ملك الأحباش للاقتراح الثالث . . فقد استهوته فكرة جلد فرعون مصر. وسأل الساحر عن اسمه فأجاب :

- أنا « نازى» ابن السيدة « زنجاو» .

قال ملك الأحباش :

- نفذ اقتراحك الخارق يانازى . . وأنا أعدك بحق آلهتى أن أصونك من انتقام فرعون، وأغدق عليك أثمن الهدايا .

عندئذ صنع نازى محفة من شمع محمولة على أكتاف أربعة حمالين . ثم تلا تعاويذ جعلت الحياة تدب فى الحمالين الأربعة ، وخاطبهم قائلا :

ـ اذهبوا فى الحال إلى مصر واستحضروا ملكها على المحفة أمام ملكنا العظيم . وبعد أن يجلد خمسمائة جلدة ، عليكم أن تعيدوه إلى بلاطه فى أقل من ست ساعات .

وأجاب الحمالون الأربعة :

ـ سمعا وطاعة يامولانا .

وطار الحمالون الأربعة إلى مصر بقوة السحر . وعندما بلغوا القصر، راحوا يتلون تعاويذ خدرت كل حرس البلاط . ثم حملوا الفرعون « سيا ـ آمون» فى المحفة ونقلوه إلى قصر ملك الحبشة حيث جلد خمسمائة جلدة . . . ثم عادوا به إلى بلاطه قبل أن تمضى الساعات الست بكثير. . !

وفى الصباح . . أفاق فرعون محطما منهوكا . وأحس كأن فى جسده النار.

ودعا الملك إليه رجال بلاطه وقال لهم :

ـ ما الذى حدث لى فى الليل . . ؟ لقد حملت فى محفة إلى خارج مصر. . !

وبهت أفراد الحاشية ، وتبادلوا النظرات ، وقد ظنوا أن الخبل قد أصاب الملك .

وأدرك الفرعون مايدور بخلدهم ، فكشف عن ظهره الذى ألهبته السياط وقال لهم :

ـ وحق بتاح الكبير، لقد نقلت ليلا إلى قصر ملك الحبشة حيث جلدت خمسمائة جلدة ، ثم أعدت إلى بلاطى فى أقل من ست ساعات . . !

واقترب كل رجال البلاط من الملك يتفحصون آثار السياط . فما تمالكوا أن أغمضوا أعينهم لفرط القسوة والبشاعة التى نزلت بجسد الملك .

وكان بين رجال البلاط ساحر اسمه « بانيشى» ماكاد يرى آثار الجلد حتى صاح :

ـ إنه سحر الزنوج ياصاحب الجلالة هو الذى فعل بك هذا . ولكن . . وحقك يامولاى . . وحق آمون ورع وبتاح لأنزلن بهم عقابا ماتصوره واحد منهم قط جزاء مافعلوا وأثموا . . .

واستعان بانيشى بتعاويذه وطلاسمه . وصلى لتوت رب السحر فمنحه سحرا عظيم القدرة دهن به فرعون ليقيه من عدوان الزنوج . وعندما جاء الليل التالى سلط نازى سحره ليعيد الكرة مع فرعون ، ولكن عبثا . أما بانيشى فقد سلط سحره الخارق على ملك الزنوج فنقله ليلا إلى مصر حيث جلد أمام الفرعون وكل سكان مصر بضعة آلاف

جلدة . وكرر بانيشى سحره ثلاثة أيام متوالية ، حتى ثار ملك الأحباش فدعا إليه نازى وقال له متوعدا :

ـ إنك أنت سبب المصائب التى حلت بى . . وعليك أن تنقذنى من سحرة مصر، وإلا فلن يكون رأسك فوق عنقك متى أصبح الغد . . !

وأجاب نازى :

ـ سمعا وطاعة يا مولاى . سأذهب بنفسى إلى مصر لأنازل خصمى الساحر المصرى فى عقر داره . . !

وانطلق نازى الحبشى إلى مصر . وبينما كان فرعون مجتمعا بمستشاريه وقواده انتصب نازى وسط القاعة ، وراح يصرخ بأعلى صوته :

ـ أنا نازى ساحر الزنوج . . أتحدى فى مجلس فرعون كل سحرة مصر . . وعلى الأخص ذلك الساحر الذى خطف ملكى ونقله إلى مصر بالرغم منى .

ونهض بانيشى ساحر مصر وأجاب :

ـ أنا لك يانازى . . أنا لك يامن جرؤت على أن تنقل فرعون مصر سيدك وسيد الأرض كلها إلى الحبشة حيث ضرب بالسياط . أنا لك يامن جرؤت مرة أخرى أن تأتى إلى مصر وتتحدانى فى عقر دارى . وحق أنومو سيد هليوبوليس ، لقد قادتك آلهة مصر إلىّ فى الوقت المناسب ، وسأنزلن بك العقاب الذى تستحق . فابدأ أيها المتحدى بسحرك . . ولنر لمن تكون الغلبة ومن يفوز بالنصر . . ؟

ولم يكد بانيشى يتم كلامه ، حتى تلا الحبشى تعاويذه . وفجأة شبت النار فى مجلس فرعون الذى راح يصرخ ومن حوله رجال البلاط .

ـ أنقذنا يا بانيشى . . أنقذنا . . !

وتلا بانيشى إحدى تعاويذه الواقية . فهبت من الجنوب ريح عاتية مالبثت أن أخمدت النار .

وعاد الحبشى يتلو تعويذة أخرى . فانتشر فى القاعة ضباب كثيف أخفى كل فرد عن أعين الآخرين . ولكن بانيشى رد عليه بتعويذة أخرى ، فإذا الريح تهب فجأة فتزيل الضباب المتلبد عن القاعة . .

ثم كانت التعويذة الثالثة التى تلاها نازى . فإذا بقبو ضخم يقوم حول المجلس ،

فيعزل من فيه عن كل أرض مصر. وما كاد القبو يطبق على فرعون ورجاله حتى صرخوا صرخة رعب وفزع. وتلا بانيشى تعاويذه، فاذا زورق مسحور ومعاول تهدم القبو، وتنقل حجارته لتلقى بها فى بحيرة موريس.

عندئذ استسلم الساحر الحبشى، وحاول أن يهرب متخفيا. لكن بانيشى لم يلبث أن كشفه فى هيئة أوزة ملقاة على ظهرها. . وإلى جوارها صياد مستعد للقضاء عليها.

وخلع الساحر الحبشى كبرياءه، وراح يقبل الأرض ويطلب الغفران.

ـ عفوك ياسيدى . . أنا أعترف بجرمى وألتمس منك الغفران. امنحنى مركبا استقله إلى بلادى فلا أعود إلى مثل مافعلت قط.

وأجابه بانيشى:

ـ قسما بكل آلهة مصر. لن تفلت من قبضتى قبل أن تتعهد أمام الجميع بعدم العودة إلى مصر أبدا . .

وأقسم الساحر الحبشى:

ـ وحق جميع الآلهة . . لن أعود إلى مصر قبل أن تمضى ألف وخمسمائة سنة . . !

وعندئذ، أطلقه بانيشى من ربقة السحر . . . ومنحه مركبا أعاده إلى بلاد الزنوج . .

* * *

هنا توقف سنوزيريس عن التلاوة . . فقد انتهت القصة . .

وسجد المشعوذ الحبشى، وعفر جبينه فى التراب وقال:

ـ لقد نجحت فى مهمتك . . وتلوت القصة بكل حرف فيها.

ولم يكد ينتهى من اعترافه حتى حاول الهرب والنجاة. لكن سنوزيريس تلا تعاويذه، فتوقف الحبشى وتسمرت قدماه، وما استطاع الحركة أبدا.

وتكلم سنوزيريس مخاطبا فرعون:

ـ إن هذا الساجد تحت قدمى أيها الفرعون العظيم . . ليس سوى نازى الحبشى نفسه . . لقد انتهت الألف وخمسمائة سنة التى كان قد أقسم ألا يطأ خلالها أرض مصر، وعادليتتقم من مصر والمصريين. أما أنا . . يا من تعرفوننى باسم سنوزيريس . .

فلست سوى بـانيشي . . وقد علمت بينما أنـا فى العالم الآخر أن هذا الحبشـى سيسلط سحره على مصر. فسألت أوزيريس أن يعيدنى إلى الأرض لأصده عن النيل وعن كرامة بلادى . . وهأنذا قد فعلت . . !

وعندمـا انتهى بـانيشي المتقمـص فى جسد سنوزيـريس مـن كلامـه ، تلا تعـويذة غامضة ، فاذا نازى الحبشي يتحول إلى رماد . . !

وبينما الجميع ينظرون فى دهشة إلى بقايا الحبشى . . إذا بانيشى هو الآخر يتلاشى من أمامهم فجأة . . كأنما قد ابتلعته الأرض . . !

وخيم على المجلس سكون رهيـب . . قطعه بكاء طويل فى أقصى القـاعة . . وأطل الفرعـون . . وأهل مصر جميعا . . فـإذا « ساتنى» قد انتحـى ركن القاعـة ، وراح يبكى ولده الـذى اختفى وتلاشى . . وإلى جـواره وقفت « ماهـى» زوجته تعزيه وتخفـف عنه بلواه . .

وسكت الجميع . . فما كان أحد ليستطيع أن يتكلم بعد . . !

أسطورة فرعونية
الملك خوفو .. والسحرة

كان للسحر فى مصر القديمة أثر كبير فى حياة الناس. حتى لقد كانت أعمال السحر تستهوى الملوك والأمراء فيتخذون منها مجالا للهو والتسلية.

غير أن أصحاب عبادة الشمس الذين جاءوا بعد أسرة خوفو أرادوا السيطرة على العرش، كانوا يعتبرون السحر لونا من ألوان الكفر. فلما أرادوا السيطرة على عرش مصر، راحوا ينسبون إلى خوفو وأسرته الإلحاد والميل إلى السحر والسحرة. . وراحوا يطعنون فى عقيدة أسلافه وأبنائه، ويمهدون لظهور دينهم من خلال هذه الأسطورة التى وضعوها ليؤكدوا بها حق ملوكهم فى العرش، عن طريق تأليههم ونسبتهم لرع. . رب الشمس العظيم.

أحس بضيق من كل شيء حوله. وهفا إلى بضع لحظات من المرح تسليه وتخفف عنه بعض مايحمل فوق صدره. فأرسل خوفو إلى أبنائه الثلاثة يستدعيهم ليقصوا عليه بعض مادرسوه من أنباء سحرة طيبة، ويسردوا على سمعه بعض ما عرفوه من خفيف المُلَح وطريف الفكاهات. .

ونهض خفرع «أكبر أبناء فرعون» وبدأ يروى لأبيه قصته:

هذه القصة وقعت أحداثها فى منف، خلال أيام ملكها الفرعون نبكا. وكان من عادة الملك كلما جاء إلى معبد الإله بتاح بمدينة منف، أن يزور الكاهن الساحر «أوباد». . يسمران ويتبادلان الحديث حتى يحين وقت العودة.

وذات يوم، بينما الملك وحاشيته فى زيارة الكاهن، إذ وقع بصر امرأته على فتى من الحاشية جميل رقيق. واقتربت المرأة منه، وراحت فى غفلة من الجميع تناجيه، وتطلب منه أن يعود متى انتصف الليل، يقضيان معا بعض ساعات العمر. . !

وكانت امرأة الكاهن جميلة رائعة. فما استطاع الفتى رفضا لعرضها الشيق، وما كان أسرعه، عندما انتصف الليل، فى الانطلاق إلى حيث حددت له مكان الانتظار. وأخذت المرأة بيده، وسارت به إلى حيث كوخ جميل فى بستان القصر، قضيا فيه بعض

الوقت، ثم اتفقا على اللقاء نهار كل يوم فى المكان ذاته، بينما يكون الكاهن قائما على شؤون معبده لايستطيع أن يبرحه.

وكما حدث فى ذلك اليوم، حدث مثله فى كل يوم جاء بعد ذلك.. فما يكاد النهار يجئ، وينطلق الكاهن إلى المعبد، حتى يكون الفتى فى الكوخ حيث تكون امرأة الكاهن فى انتظاره، فيضمها إلى صدره، ويحيطها بذراعيه، ويبثها كل فاجر وخسيس من ألوان الغرام. وتستمر بكل منهما النشوة المجنونة حتى تغيب الشمس.. وعندئذ يقصد الفتى إلى بحيرة فى البستان يغتسل فيها، ثم ينصرف من بعد، لتعود نفس القصة مع مطلع اليوم الجديد..!

وانتبه حارس البستان إلى مايقع فى بيت سيده كل يوم. ومضت أيام كان يخشى خلالها أن يكشف له الأمر. غير أن تلك الخشية كان لابد أن تزول مع كثرة ماكان يمر من أيام. فانطلق الحارس إلى سيده يقص عليه القصة كلها، ويطلب منه أن يعفيه من العمل الذى كرهه وأبغضه.

وثار غضب الكاهن لخيانة امرأته، وامتلأ قلبه حقدا وغيظا، واستبدت به رغبة جارفة فى الانتقام.

وفتح الكاهن صندوقا من الأبنوس أخرج منه كتاب التعاويذ. وبعد أن قرأ فيه قليلا أغلقه، ثم أخذ قطعة من الشمع، جعل منها دمية فى شكل تمساح صغير لايزيد طوله عن سبعة أصابع.. وراح يتلو عليه من تعاويذ السحر مايغريه بكل من ينزل إلى البحيرة، ليجذبه حتى القاع..!

وسلم الكاهن الدمية إلى البستانى وقال له:

ـ خذ هذا التمساح، واقذف به فى البحيرة متى نزل الشاب ليغتسل فى الماء..!

وكان الغد. وجاء الفتى يختلى بامرأة الكاهن فى بستان القصر.. تماما كما كان يحدث كل يوم وراح العاشقان يصخبان ويضحكان ويشربان الخمر حتى إذا غابت الشمس نهض الفتى إلى البحيرة يغتسل.. وما كاد يقفز فى الماء حتى تبعه البستانى فجأة بتمساح الشمع..

وفى لحظة.. تحول التمساح الصغير إلى تمساح هائل طوله سبعة أذرع، هاجم الفتى وقضم ساقه، ثم جذبه فى قوة معه إلى قاع الماء..!

فى ذلك الوقت كان الكاهن « أوباو » قد ذهب إلى قصر فرعون ليقضى بعض شؤون

دينه . واستمر عمله فى المدينة أياما سبعة ، لم يكد ينتهى منها ويعود إلى منف ، حتى تبعه الملك ليزور معبد بتاح . . .

وقال الكاهن لفرعون :

ـ ألم تر إلى المعجزة التى وقعت فى عهدك؟

قال الملك :

ـ فما هى . . ؟

قال أوباو :

ـ تعال معى تر بنفسك وتسمع بأذنيك . . !

وانطلق الملك مع الكاهن حتى بلغا ضفاف البحيرة . ونادى الكاهن على التمساح ، فخرج من الماء يجر الفتى بأسنانه ، ثم ألقى بجثته أمام الملك . .

قال فرعون :

ـ إن التمساح لرهيب . . !

وهنا انحنى أوباو، وأخذ التمساح بين يديه ، فإذا به يعود سيرته الأولى . . دمية من الشمع لايزيد طولها على أصابع سبعة . . ثم راح الكاهن يقص على فرعون ماكان من أمر الفتى والزوجة الخائنة .

وهز الملك رأسه الذى امتلأ رضا . . ثم قال لدميه الشمع :

ـ أيها التمساح . . خذ ما لك . . !

فانتفضت الدمية لتصير تمساحا هائلا من جديد ، أمسك بجثة الفتى الخائن ، وقفز بها إلى الماء . . ولم يره أحد بعد ذلك قط . . !

وانتهت قصة خفرع ، بينما العجب يأخذ بالملك خوفو الذى ترحم على روح سلفه بألف رغيف ، ومائة جرة من شراب ، وقطعة من لحم ، وصاع واحد من البخور . . !

* * *

وجاء دور الأمير « باوف رع » ليقصّ القصة الثانية على فرعون. قال الأمير:

أحداث هذه القصة وقعت أيام جدى الملك « سنفرو» .

وكان الملك فى ذلك اليوم محزون النفس مكتئب القلب . وعبثا حاول رجال القصر

أن يهتدوا إلى مايذهب عنه الحزن أو يزيل عن نفسه الضجر. وإذ بلغ الأمر بالملك ذلك المبلغ، دعا إليه كاتبه «جاجا إم عنخ» وقال له:

- أيا ابن أخى . . لقد طلبت كل أفراد حاشيتى اجتلابا للسرور والتفكه بمايروح عن النفس، فعجزوا كلهم عن تلبية طلبى. أفلا تستطيع أنت سبيلا إلى تسليتى؟

أجاب الكاتب:

- بلى يامولاى . . فما عليك إلا أن تخف إلى بحيرة البستان، وتأمر بإعداد أجمل الزوارق لأجمل نساء حرمك. فإنك إذا رأيتهن يجدفن ذهابا وجيئة ابتهج قلبك وارتاح فكرك وسرى عنك . .

وسر الملك لاقتراح الكاتب. فانتقى من أميرات الحرم عشرين أميرة، ممن تميزن برشاقة القدود وطول الشعور، وألقى عليهن ثيابا شبكية رقيقة النسج لطيفة اللون تشف عما تحتها، وأعطاهن مجاديف من خشب الأبنوس الموشى بالذهب . .

وراحت الأميرات تجدفن ، وأخذ الزورق يسبح. وتسللت إلى نفس فرعون البهجة تسعى إليه من خلال الماء والخضرة وجمال الوجوه . . ومالبث الجو من حوله أن امتلأ بالصفو والحبور.

غير أن ذلك الفرح ماكان ليستمر طويلا. فبينما الأميرات يجدفن ويغنين، إذ بمقبض أحد المجاديف يصطدم بشعر كبراهن، فيسقط من شعرها فى الماء طلسم ثمين على شكل سمكة . .

وأمسكت الأميرة، كما أمسكت الأميرات حولها، عن التجديف والغناء. وتلفت الملك يسأل عن سر سكوتهن، فعلم بما وقع لكبيرة الأميرات.

وابتسم فرعون يهدئها ويهون عليها الأمر ، وقال لها إنه سيأمر بما يعوضها عما فقد. غير أن الأميرة أمعنت فى الرفض وهى تبكى، وأصرت على استرجاع جوهرتها الثمينة المفقودة.

وتحير الملك. وأخذ به ضيق كبير. .

والتفت الملك إلى رجال حرسه، وأمر باستدعاء كاتبه الأمير «جاجا إم عنخ» وقال الملك للكاتب:

- ياجاجا إم عنخ . . لقد أخذت بنصيحتك وفعلت ما اقترحت. وما كادت البهجة تعود إلى نفسى، حتى وقع طلسم إحدى الأميرات فى الماء فتوقفت عن الغناء

والتجديـف ، وتوقفت معهـا كل الأميرات . وبرغـم كل ماحـاولت من تهويـن الأمر ، أقسمـت الأميرة ألا تستـأنـف عملهـا حتـى تسترد جـوهـرتها هـى ذاتها ، لا شبيهتهـا ولاسواها . فدبر لنا الأمر كما دبرت من قبل تلك النزهة !

وفتح الكاتب كتـابه السحرى ، وأخذ يتلو بعض التعاويـذ . فما هى إلا لحظة حتى ارتفع نصف الماء وانطوى على النصف الآخر كما تطوى قطعة نسيج . وأطل الكاتب فى الماء فإذا الجوهرة الثمينة مستقرة فى القاع ، فمد يده وتناولها ، وأعادها إلى الأميرة . ثم تلا تعويذة أخرى عاد لها ماء البحيرة كما كان . . وأستأنف الملك مرحه وبهجته مع الأميرات الصغيرات . . !

وانتهت قصة الأمير. وسر خوفو من تلك المعجزة التى أتاها الكاتب الساحر فى عهد أبيه الملك سنفرو. فـأمر بتقديم ألف رغيف ومائة جرة مـن شراب وذبائح وصاعين من البخور لروح الملـك . . وتقديم قرص حلوى وجرة شراب وقطعـة لحم وصاع خمر لروح «جاجا إم عنخ» .

* * *

وهنا نهض الأمير « حور ددف» يقص على أبيه الملك خوفو قصة ثالثة . قال الأمير:

ـ لقـد سمعت يـا مولاى قصص الأعـاجيب القـديمة التى لاسبيـل إلى التأكـد من صحتها . أما أنا ، فسأحضر بين يدى جلالتك سـاحرا معاصرا لاتعرفه ، فى استطاعته أن يقدم معجزاته بين يديك .

قال خوفو:

ـ أواثق أنت مما تقول ياحور ددف؟

أجاب الأمير:

ـ أجل يامولاى . فهناك قروى رقيق الحال يدعى « ديدى» يسكن قرية « ديد سنفرو» جنوبى منفيس . إن هذا الرجـل ساحر مسكين ، تجاوز عمره المائة بعشرة أعوام . ولكنه برغـم شيخوختـه يستطيع أن يـأكل من الطعـام كل يـوم خمسمائة رغيف ، وفخـذ ثور، ويستطيع أن يشرب وحده مائة جرة من الجعة . ومـن عجائب سحره ياصاحب الجلالة أنه يعيـد الرأس المقطوع إلى مكـانه ، ويخضع الأسـد الكاسر فيتبعه طـائعا دون أن يجره بزمام ، ويعرف فوق كل ذلك عدد الصنـاديق الموجودة فى ناووس هيكل « توت» وعدد الكتب السحرية الموجودة فى كل صندوق . . !

وعندما سمع الملك ذلك قال لولده :

ـ يابنى لقد طالما بحثت عن صناديق الكتب التى تحدثت عنها فلم أجدها . وإن فى نيتى متى وجدتها أن أنسخ الكتب وأضع نسخها فى هرمى . فأسرع بإحضار هذا الشيخ الجليل لعلنا نستفيد بعلمه ومقدرته .

وامتثالا لأمر فرعون ، نهض حور ددف واستقل زورقا ملكيا توجه به إلى « ديد سنفرو» حيث يسكن الساحر العجوز. وإذ رسا الزورق ترجل الأمير، ورفعه الحمالون على محفة من خشب الأبنوس الموشى بالذهب ، حتى بلغ بيت الساحر. وكان ديدى فى تلك اللحظة يستلقى على سرير صغير عند عتبة بيته ، وحوله عبدان أحدهما يحك رأسه والآخر قدميه . . !

وحيا الأمير الساحر وقال له :

ـ إن ملامحك أيها الشيخ لتدل على أن التقدم فى العمر يضاعف سعادتك ويحول بينك وبين هموم الحياة . إن غيرك من الناس يفرقون من الشيخوخة لأنها فى نظرهم نهاية الرحيل والتأهب للعودة إلى الأرض. أما أنت فمصيرك أكثر سعادة لإن حكمتك أوسع وأرحب . ولهذا فقد أتيت إليك من قبل أبى فرعون خوفو أدعوك لزيارته . . وهناك . . فى رحاب الملك ، ستأكل وتشرب أشهى مايقدم لضيوف القصر من طعام وشراب ، وستقضى بقية عمرك على أسعد ماتكون الحياة .

أجاب الساحر ديدى :

ـ لبيك ياحور ددف ، أيها الأمير الحبيب . ليهنأ بك أبوك ويقدمك على كل الشيوخ والحكماء . إن عملك يابنى لينفذ إلى كل الأشياء الخفية ، وإن طلبك ليلبى يا ابن فرعون العظيم . . !

ومد حور ددف يده فأقام الشيخ من سريره . وقاده إلى الميناء حيث أُعِد لامرأته وأولاده زورق خاص ، بينما استقل الشيخ مع الأمير زورقه الملكى .

وبلغ الركب قصر فرعون . وخف الملك لاستقبال الساحر الشيخ فى البهو الكبير وهو يقول :

ـ كيف يمكن أن يعيش مثلك فى عهدى دون أن أسمع به أو أراه؟

أجاب الشيخ :

ـ إن من يدعى يلبى الدعوة . ولقد دعوتنى ياسيد المصريين فإذا أنا بين يديك .

قال الملك :

- أصحيح أنك تستطيع إعادة الرأس المقطوع إلى مكانه؟
أجاب الساحر:
- أجل يا مولاى
هتف الملك :
- إذن ، احضروا إلى هنا سجينا محكوما عليه بالإعدام ، نجرب على رأسه تلك القدرة!
فقاطعه الشيخ الساحر قائلا :
- عفوك يامولاى . . . إنى لأترفع عن إجراء مثل هذه التجربة على الرجال وكل مقدس من الحيوان .

وخجل فرعون ، ثم أمر بإحضار أوزة قطع رأسها ووضعه فى طرف البهو، ووضع جسمها فى الطرف الآخر. وراح ديدى يهمهم ببعض التعاويذ فإذا بالجسم يقفز صوب الرأس ، والرأس يقفز صوب الجسم ، وما لبث الاثنان أن التحما ، وعادت الأوزة حية تصيح . . !

واستحضر الملك بجعة ، فأصابها ما أصاب الأوزة . ثم استحضر فحل بقر فكانت النتيجة واحدة . ولوحظ أن لديدى قدرة عجيبة على إخضاع الفحل وقيادته بغير زمام .

وهنا قال الملك :
- أصحيح أنك تعرف عدد صناديق كتب السحر فى ناووس هيكل توت!؟
أجاب الساحر:
- عفوا يامولاى . . إذا كنت لا أعرف عددها فأنا على الأقل أعرف مقرها .
وسأل فرعون :
- وأين مقرها ياديدى؟
أجاب ديدى :
- إنها موضوعة فى صناديق من الصفيح فى غرفة السجلات ببهو معبد هليوبوليس .
قال فرعون :
- إذن أحضر لى الصناديق .
أجاب الساحر:
- عفوا ياسيدى . . لست أنا الذى أحضرها . بل يحضرها بكر الأبناء الثلاثة الذين تلدهم « رود ددت » .

واستغرب فرعون وسأله :

ـ ومن تكون رود ددت؟

قال الساحر:

ـ إنها زوج أحد كهنة الإله رع ، يسمى « رع أوسر» وقد نبأها رع بأنها سوف تلد أبناء ثلاثة ، يملكون الأرض قاطبة ، ويصير كبيرهم ملكا وعظيم كهان الشمس فى هليوبوليس .

عندئذ خفق قلب فرعون هلعا وملأه الغم . فقد بدا له كأن أسرته تحتضر وتموت . غير أن الساحر تابع كلامه وقال :

ـ ليطمئن بالك يامولاى . فولدك سيكون ملكا من بعدك ، ومن بعد ولدك سيملك حفيدك . ولكن بعد حفيدك سيملك كبير أبناء رود ددت .

وملأ الملك الحزن فدخل إلى القصر. وأمر بأن يقيم الشيخ فى كنف حور ددف ، وأن يعطى كل يوم ألف رغيف ومائة جرة جعة ، وثورا ومائة حزمة من البصل . . !

* * *

والحق أن رود ددت كانت تقيم فى مكانها بدار زوجها كاهن « رع » ، وكانت الأيام تمر بها رتيبة ثقيلة حتى أتى اليوم الموعود وجاءها المخاض .

فى ذلك اليوم دعا رع إله الشمس ابنتيه الإلهتين إيزيس ونفتيس ، والإلهة «مسخونت» حارسة المهود وواهبة الأسماء ، والإلهة « حقات» المولدة ، وزوجها الإله «خنوم» مصور الأجنة فى الأرحام .

وقال رع لوفد الآلهة :

ـ كونوا إلى جانب رود ددت فى ساعة العسر. فإن أولادها الذين تلدهم سيكونون ملوك هذه الأرض وسيبنون المعابد والمقاصير، ويملئون هياكل الآلهة بالضحايا والقرابين . . !

ومضت الآلهة متنكرة بأمر رع ، فاتخذت الإناث هيئة المغنيات والراقصات ، وقام الإله خنوم مقام الخادم الذى يتبعهن .

وعندما بلغن بيت رود ددت ، وقفت الراقصات بالباب وبدأن يرقصن ويعزفن ويضربن على الدفوف . وخرج الكاهن يطلب منهن أن يمسكن ، لأن زوجه فى ساعة

عسر. فعرضت الراقصات على الكاهن معونتهن بعد أن أنبأنه بحذقهن فى معرفة مايعين الوالدة ومايلزم لها ساعة الوضع .

وفرح الرجل ، وقاد الإلهات ليساعدن المرأة ، فإذا هى تتمخض عن ثلاثة ذكور لهم مظاهر الملوك ، ويحملون زينة الملك وشاراته ، وعلى أعضائهم نقشت ألقابهم بحروف من الذهب ، وأطلقت عليهم إيزيس أسماء الملوك أو سر كاف ، وساحورع ، وكاكاى .

وتأهبت الإلهات للانصراف ، وذهبن يبشرن الكاهن بما وضعت زوجه . فابتهجت نفسه واعتذر شاكرا وهو يقدم لهن بعض الشعير. فقبلن منه الهدية ، وحملها الإله خنوم ، وغادر الجميع دار الكاهن .

وبينما الإلهات فى الطريق ، إذ قالت إيزيس لرفيقاتها :

ـ علام كانت زيارتنا لرود ددت؟ لقد عدنا دون أن نمنحها أعجوبة تكون فى المستقبل برهانا قاطعا لأولادها على أن الإله الأكبر رع هو الذى يرعاهم؟ هيا بنا نعود لنمنحها المعجزة!

ووافقت الإلهات على ما اقترحت إيزيس . فصنعن ثلاثة أكاليل ملكية لايتوج بمثلها سوى الفراعنة ملوك الأرض كلها ، ثم غرسنها بين حبوب الشعير.

وأثارت الإلهات العواصف فثارت ، واستمطرن السماء فأمطرت ، ليجدن ما يبرر عودتهن إلى بيت الكاهن قائلات :

ـ إن المطر يهطل بشدة ، حتى ليتعذر نقل هذه الحبوب التى وهبتنا ، إذ ستبللها المياه وتؤدى إلى عفنها لا محالة . فدعها الآن فى قبو مغلق ريثما نعود بعد حين من رحلتنا إلى الجنوب .

وغادرت الإلهات بيت الكاهن . وانطلقن إلى السماء . .

أما الوالدة ، فقد خرجت من غرفتها بعد أربعة عشر يوما ، ونهضت لأعمال بيتها بعد أن علمت من جاريتها أن كل شىء فى الدار على خير حال . . لاشىء تغير. . ولا مئونة نقصت . . سوى ما أهداه زوجها لأولئك المغنيات من شعير أودعنه قبو الدار حتى يعدن إلى أخذه بعد حين .

ومضت أيام ، ثم جاء يوم احتاجت امرأة الكاهن فيه إلى شعير. وطلبت رود ددت من الجارية أن تأتيها ببعض ما أودعته الراقصات لديهم على أن تعيد مقدار ما تأخذ إذا ماعاد زوجها .

وذهبت الجارية إلى القبو وفتحت بابه . . ففوجئت من الداخل بموسيقى وغناء، وهتافات شجية كمثل هتافات الشعوب لملوكها . وانطلقت الجارية تقص الأمر على مولاتها . ودخلت رود ددت القبو فلم تستطع أول الأمر أن تكتشف مصدر الغناء والهتاف . واستمرت تبحث، وتضع أذنها على الأكياس حيث الحبوب المعدة للمغنيات، وعندئذ أدركت أن الأصوات تنبعث من داخلها .

وعمدت المرأة إلى صندوق خشبى وضعت فيه أكياس الشعير، وأحكمت إغلاقه وختمته بخاتمها، ثم لفته بقطعة جلد ووضعته فى قبو الأوانى الفارغة . . ثم أوصدت الباب . . !

وعاد الكاهن فى المساء فأخبرته بما فعلت، وقصت عليه كيف أخفت الشعير محافظة على أبنائها . . فهى ترى أن تلك الأصوات إنما هى بشير خير، قد يخشاه الملك إذا عرف أمره . . وربما قتل بسببه أبناءها . .

وذات يوم، أغضبت الجارية سيدتها فضربتها . وسخطت الجارية وهى تغادر الدار حاقدة، وأصرت على الكيد لرود ددت بعد حين، بإفشاء سر الشعير الموسيقى الذى يبشر بالملوك الثلاثة، حتى يصل أمره إلى فرعون . .

وسارت الجارية فى الطريق ترغى وتزبد . وإذ هى كذلك لقيها أخ لها يغزل الكتان . وعندما سألها إلى أين تذهب، أخبرته بما قررته . وأغضب تصرفها أخاها، فتناول حزمة من جذوع الكتان وراح يضربها وينهرها ويثخنها بالجلد الفظيع . .

وهربت الجارية من أخيها وراحت تجرى . وعندما وجدت نفسها بقرب النهر نزلت إلى الماء تريد أن تبرد أوجاعها وآلامها . وإذ هى تسبح خرج من الماء تمساح هائل فتك بها وابتلعها .

ومضت الجارية الخائنة إلى غير رجعة . .

وانطلق أخوها إلى رود ددت يبشرها بهلاك أخته جزاء ما أضمرت لها من كيد . . !

وفرحت المرأة . . وظلت تعيش فى فرحتها حتى صار أبناؤها من بعد ولد خوفو وحفيده . . ملوكا على أرض مصر، وكهانا باسم رع حورس . . إله الشمس . . وسيد هليوبوليس . .

أسطورة إفريقية
مزرعة الشيطان

تتميز أساطير الزنوج بأخبار الجن والجينارو . . حتى لتتخذ منهم أبطالا حقيقيين يعيشون خيرا مما يعيش الإنسان نفسه . . بل ويبزونه فى اختراع الحيل ووسائل المكر والدهاء . ومن كل أسطورة يخرج الزنجى دائما بحكمة جديدة رائعة ، تبدو من خلال صور الكفاح بين الإنس والجن لتملك الأرض العامرة بالخيرات والكنوز . .

هناك بعيدا . . قرب قرية « امسالا» حيث تجرى مياه النيجر الزرقاء ، تمتد أرض بور شاسعة تحيط بها الغابات من كل الجهات . .

فى هذه الأرض ، كان يقيم شيطان لئيم قزم ، اسمه « الجينارو» . . يثير ذكره الرعب فى القلوب ، ويجعل كل من يسير مخترقا « امسالا» فى طريقه إلى المدينة يسرع الخطى فى اضطراب مجنون . . وكأن من خلفه الموت . . !

وذات يوم . . بينما كان الفلاح سابونيوما يمر بالطريق ، أطل فإذا الأرض جميلة رائعة . . يثير مرآها الحسد لموقعها من الماء الذى كان يمكن أن يجعل منها حديقة كالجنة . . لولا خوف الناس من صاحبها . . الجينارو . . !

ومنذ تلك اللحظة لم يستطع سابونيوما إبعاد منظر الأرض الشاسعة البور من رأسه . . وقد غاظه أن تظل بلا رعاية . . فى الوقت الذى يستطيع هو فيه أن يتعهدها ويزرعها . .

وبلغ الضيق بسابونيوما حدا جعله يصر آخر الأمر على الذهاب إلى أرض الشيطان وزراعتها . وانطلقت امرأته إلى سحرة القرية تنبئهم بما استقر عليه رأى زوجها . فأحاطوا جميعا به يمنعونه عن الذهاب ، ويؤكدون له أن هذه الأرض ما بقيت بورا إلا لأنها ملك الشيطان . . الذى لايسمح لإنسى قط بالاعتداء عليها .

وما أكثر ما حاول السحرة إثارة الرعب فى قلب سابونيوما . وما أكثر ماساقوا من قصص أفراد حاولوا اختراق الأرض الجرداء . . فوثبت بهم أسراب الشياطين الحمراء

ذات القرون ، وألقت بهم خارج حدودها بعد أن شوت أجسادهم أحياء بالنار.

وبرغم كل ذلك . . ظل سابونيوما مصرا على حرث أرض الشيطان . .

وفى الصباح . . انطلق الفلاح المغامر تاركا داره ، وعلى كتفه فأسه ، مخترقا شوارع امسالا فى الطريق إلى الأرض التى أكد له السحرة أنها ملعونة منذ القدم . . ولكنه قبل أن يذهب إليها كان قد أكد لامرأته أنه قد اقتنع بنصائح السحرة ، وأنه لن يذهب إلى الأرض الملعونة . . بل سينطلق إلى المدينة فى بعض الشؤون . .

ووقف سابونيوما على حدود أرض الشيطان ، وملأته الرهبة . غير أنه لم يهتم للرعشة التى أخذت به . . وأسرع فوضع قدمه داخل الأرض وهو يقول :

ـ أبدا لن أتوقف عن العمل بسبب تلك الأقاصيص السخيفة . . ومع هذا فهأنذا قد اخترقت الأرض ولا أرى ظلا لشيطان . . ألا ما أحمقها من خرافات . . !

وبضربة واحدة من فأسه شق سابونيوما الأرض . . وعيناه تدوران فى كل مكان حوله خشية أن يظهر الشيطان . ومع كل ضربة فأس كان سابونيوما يتوقف بضع لحظات . . غير أن شيئا لم يحدث قط . . وما كان هناك مايدل على وجود أحد فى ذلك المكان الواسع الكبير . .

واطمأن سابونيوما . وبلغت به الثقة حدا راح معه يصفر ويغنى . . بينما الفأس ينزل ضرباته الجديدة تشق الأرض وتعدها لإلقاء البذور.

وإذ غابت الشمس ، واختفت وراء الأفق ، جلس سابونيوما تحت ظل شجرة برية فوق حجر كبير يشرف على الحقل كله . . وراح يتأمله فى سرور وقد بدا له أنه قد أصبح صاحبه الوحيد . .

وفجأة انتبه إلى صوت رقيق ينطلق غير بعيد منه ويقول :

ـ مرحى ياسابونيوما مرحى . . يا أذكى رجال القرية . . يامن سخرت بكل خرافات السحرة وكنت وحدك على صواب . إنهم يقولون عنى إننى شيطان فهل يدل صوتى الضعيف الرقيق على أنى كذلك؟ .

وراح سابونيوما يطل حوله فى فزع كبير. فما وجد أحدا قط ، ولا استطاع أن يحدد المكان الذى ينطلق منه الصوت .

وعاد يسمع من جديد :

ـ لكم يؤسفنى أننى لا أستطيع أن أكون مرئيا لك . . إذن لرأيت أننى صغير جدا . .

أكاد لا أبلغ قدر ركبتك طولا . . ولوجدت أن رأسى خالٍ من قرون الشياطين . إن جسدى شفاف ياسابونيوما . . ولكنك تستطيع أن تحدد مكانى إذا نظرت إلى ذلك الغصن القريب ، فستراه يتمايل تحت وطأتى كأنما يداعبه النسيم . إننى أجلس فوقه الآن ، وأتخذ منه أرجوحة صغيرة . . فهل ترانى بعد ذلك ماردا عملاقا كما يتصورون؟

وكان الروع قد بدأ يزول من قلب سابونيوما . . خاصة عندما أطل إلى الغصن الصغير فإذا به يتمايل فى رقة توحى بأن ما فوقه ليس شيئا يخيف . وزاده اطمئنانا أن صوت الكائن الخفى كان ضئيلا ضعيفا يؤكد خروجه من جسم ضئيل ضعيف .

وهنا انطلق صوت سابونيوما يسأل فى غير خوف :

ـ ومن أنت إذن ؟

أجابه الصوت :

ـ أنا الجينارو . . صاحب الحقل الذى بدأت حراثته منذ ساعات . لقد رأيتك تشتغل طوال اليوم بقوة ونشاط حتى لقد ثارت بى الرغبة فى مساعدتك ، وزادت بى الرغبة عندما وجدتك شجاعا تزدرى تهديد السحرة وتسخر من خرافاتهم . . فشعرت أنك نعم الصديق ، وقررت أن أصنع لك من هذه الأرض البور حقلا جميلا مثمرا ، تستطيع من ورائه أن تكون أغنى الأثرياء . . !

وقال سابونيوما :

ـ وكيف تستطيع مساعدتى فى زرع هذه الأرض ، وأنت كما تقول صغير ضئيل . . لاتملك من القوة ما يجعلك تحمل الفأس لتضرب وتحرث ذلك الطين الكثير؟

أجابه الجينارو:

ـ اطمئن أيها الصديق ، فما كنت لأستعمل فؤوسك وأدواتك الثقيلة قط . ولكنى سأدعو أصدقائى الكثيرين الذين يلعبون الآن فى الغابات ، فيأتون سراعا ، ويستخدمون فى حرث الأرض تلك الحجارة الكثيرة المسطحة الملقاة هنا وهناك . . !

وفتح سابونيوما عينيه دهشة ، بينما أطلق الجينارو نداء غريبا حادا يشبه صفير الريح ، لم يكد ينطلق حتى اهتزت الأرض البور من تحته وأمامه . . وإذا الحجارة ترتفع وتنخفض وحدها تشق الطين وتحرثه فى براعة وإتقان . . !

وبدا لسابونيوما كأنما يسمع أصواتا ضئيلة مبهمة لعلها لهثات الفعلة الصغار وهم يعملون . وصاح الفلاح حائرا :

ـ أين أنـت ياجينارو؟ إن مشهد الأرض وهـى تتحرك ليذهلنى ويـدهشنى ويجعلنى أتمنى أن أراك .

وأجابه الجينارو :

ـ هأنذا واقـف إلى جوارك انضح عرقا ، كما ينضح كل من حـولى الآن من الأصدقاء الأعزاء . ولكننـا مع ذلك سنظـل نعمل طوال الليل ، حتـى إذا مابزغ الصبـاح ، رأيت الأرض محروثة معـدة . . ولعلك حينـذاك تصفق طـربا لأنـك لم تخش الشيطان الـذى هددك به الأغرار والجهلاء من سحرة قريتك . . !

أجاب سابونيوما فى سرور :

ـ أجـل . . أجل ياصـديقى العزيـز . . لكم أرقـص طربا إذ أراك تمد لى يـد العون وتحرث الأرض بكل هذا النشاط وتلك القدرة . ولكـن خبرنى . . لماذا تركتها بورا وأنت تحسن وأصدقاءك مثل هذا العمل العجيب . . ؟

أجابه الجينارو :

ـ نحن لانحتاج إلى الثمار والخضرة كما تحتاجون إليها أيها الإنس . فقوام حياتنا الهواء الذى جعل أجسادنا شفافة كما ترى . ونحـن مع هذا لانحب العمل ، بل اشتغلت أنا وصحبى من أجـل أن نسرك أنت وحدك . وإننا لنعـاهدك أن نستمر فى مساعـدتك فى كل المنـاسبات . . ومـا عليك سـوى أن تبدأ بما تـريد ، تجد الجميـع يكررون مـا تفعل ويقلدونك . . وإذا العمل كله ينتهى فى لحظات قصار . . !

فانتصب سابونيوما قائلا :

ـ شكرا جزيلا ياصديقى الجينارو . وإنى لأقسم أن أستمر صديقا لك مدى الحياة .

أجاب الجينارو :

ـ ضع إذن يدك فى يدى ، ولنقسم معا على الوفاء . . !

وشعر سابونيـوما بما يشبه اليد تصافحه وتهز كفه . وأحـس رعشة . . غير أنه امتلأ فرحا وهو يجد نفسه فى الطريق السريع إلى ثراء كبير . .

وانطلق سـابونيوما إلى بيتـه ليعود مع الصبـاح . وعندما عـاد كان الحقل كله قـد تم حرثه . وسمع صوت الجينارو يحدثه :

ـ هل أنت مسرور الآن يا سـابونيوما؟ ها نحن قد أتممنا الحرث ، ولـو كنت قلت لنا ماذا نفعـل بعد ذلك ، أو لو أنـك بدأت بما تريـد أن تفعل لحذونا حذوك ، ولـوجدت العمل كله قد تم فى الحال على الشكل الذى تريد .

وازداد سابونيوما فرحا وإيمانا بالأصدقاء الذين يصنعون له كل شىء . ولم يكد يشرع فى جمع الحشائش التى ملأت الأرض، ويكدسها ليحرقها، حتى تكاثرت الأكداس وتجمعت الحشائش وحدها من كل مكان فى بضع لحظات . . . واشتعلت النيران فيها قوية متأججة . . !

وقال سابونيوما :

ـ لم يعد أمامنا الآن سوى تمهيد الأرض واستئصال الأعشاب لنلقى بعدها بذور الزرع .

وانحنى سابونيوما يستأصل العشب . وإذا بقية الأعشاب تقتلع من كل مكان وتلقى فى خارج الحقل الكبير.

وامتلأ قلب سابونيوما فرحا . إنه لايكاد يكلف نفسه سوى بدء العمل حتى يقلده الجميع، فينتهى فى لحظات .

وعاد سابونيوما إلى بيته وقد أصر على إخفاء السر حتى عن امرأته . وشهدت المرأة فرحته فسألته، غير أن الرجل لم يحر جوابا قط، ولم يذكر لها من أمر الحقل شيئا أبدا . . وإن كان قد طمأنها إلى أنه سيأتيهما ثراء كبير . . !

وعندما جاء الصبح، عاد سابونيوما إلى الأرض وقد حمل فوق كتفه كيس ذرة . وإذ مد يده لينثر البذور، انطلقت الحبات كأنما ملايين الأكف تحملها وتنثرها فى كل ثلمة فى الأرض المحروثة كالرذاذ.

وفى أقل من طرفة عين ، كان الكيس قد فرغ من الذرة . . وكانت الأرض قد امتلأت بالبذور.

وملأت الفرحة قلب سابونيوما، وصفق للزراع الصغار. وفى الحال اقتدى به الجينارو وأصدقاؤه، ودوى تصفيقهم فى كل مكان من الحقل الفسيح . . !

وإذ عاد سابونيوما إلى بيته ذلك المساء، أطلت إليه امرأته وقد ازداد عجبها للفرح الذى يكاد ينطلق من عينيه . وراحت المرأة تغريه بالحديث وتسأله عما هناك . . غير أنه ظل صامتا لايريد أن يجيب .

وانقضت عشرة أيام . .

وقال سابونيوما لامرأته فى الصباح . .

ـ تعالى معى الآن لأريك شيئا يقنعك أننى كنت على حق حين بشرتك بالثراء الكبير. .

وانطلقت المرأة مع زوجها حتى توقفا عند حقل الجينارو. وكانت البذور قد بدأت تبزغ من الأرض زرعا صغيرا ناشرا أوراقه الجميلة الخضراء . .

وهتفت المرأة :

ـ ما هذا يا سابونيوما؟

أجابها :

ـ هو عملى وعمل أصدقائى .

قالت له :

ـ أى أصدقاء تعنى؟

وراح سابونيوما يقص على امرأته كل الأمر . وعندما بدا له كأنها لم تقتنع ، دعا إليه الجينارو، وطلب منه أن يطمئنها بصوته الصافى الرقيق .

وصرخت المرأة وهى تسد أذنيها عن سماع صوت الشيطان الخفى . وانطلقت تجرى فى رعب حتى بلغت القرية وهى لاتزال تصرخ وتسد أذنيها . وعندما أحاط بها الجيران يسألون عن سر رعبها ، راحت تقص عليهم الأمر وتحكى كيف أصبح زوجها صديقا للشياطين . . !

وعاد الرجل إلى القرية . فلم يكد يدخلها حتى وجد الناس يزورّون عنه ويبتعدون ويلقون عليه نظرات كلها الرعب والحذر، ولم يهتم سابونيوما لازدراء الناس . . بل إنه ما اهتم حتى بما تبديه زوجته ، وراح ينطلق مع صباح كل يوم إلى الحقل يرعى الزرع ويعد قنوات الرى . . وينجز مع أصدقائه فى ساعة واحدة مالم يكن من الممكن إنجازه فى أقل من أسابيع . .

وتتبع القرويون فى وجل يمتزج بالحسد . . نمو الزرع فى الحقل الكبير. .

وفجأة سقط سابونيوما فى داره طريح الحمى . فراح يصرخ ويبكى ، وقد أدرك أن الطيور ستنقض على الحقل ، بينما الذرة تقترب من وقت الحصاد ، فلا تجد من يبعدها .

وفى خلال حزنه ونحيبه ، كان سابونيوما يقول :

ــ وا أسفاه . . ستنقض الطيور على الزرع إذا لم أذد عنه بنفسى . . فياشقوتى وبلواى!

وكانت امرأته تصغى إليه وهو ينتحب فتمتلئ ألما . غير أنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا ، ولا تريد أن تفكر قط فى حقل الشياطين .

غير أن الألم والحزن ازدادا بها مع طول مابكى وتألم ، فوجدت نفسها تنهض إلى زوجها وتقول له :

ـ كف عن البكاء الآن . . سأذهب بنفسى إلى الحقل وأبعد الطيور عن زرعك حتى تشفى . . !

وسر سابونيوما وقال لها :

ـ إنك لن تلقى كبير عناء هناك . فحين يراك الجينارو وأصدقاؤه ترجمين الطيور بالحجارة والطوب . . سيقلدونك هم أيضا ويقومون بالعمل خير قيام . أما أنا فلن أتركك وحدك . . بل سألحق بك حالما تزول عنى الحمى . . !

وانطلقت المرأة إلى حقل الجينارو . فوجدت الطيور قد راحت تنقض على الزرع حتى لتكاد تقضى عليه .

وانحنت امرأة سابونيوما فتناولت قبضة من الحصى قذفت بها الطيور . . فولت الأدبار . .

وسمعت المرأة صوتا يحدثها :

ـ اطمئنى أيتها المرأة . . فسوف نساعدك ونقذف الطيور بالحصى كما تفعلين . . !

وارتعشت المرأة وهى تستمع إلى صوت الشيطان . وحين بدأت تتراجع لتجرى ، لمحت أسرابا أخرى من الطيور تنقض على الزرع فتوقفت ، وانحنت من جديد تتناول قبضة من الحصى لتقذف بها الطيور .

ولم تكد المرأة تفعل حتى وجدت الحصى يرتفع من كل مكان ، وتقذفه أياد خفية على الطيور المنقضة فتنطلق بعيدا هاربة . .

وظلت غارات الطيور تتوالى . . ويتوالى معها قذف الأحجار والحصى لإبعادها عن الحقل . .

وراحت المرأة تتطلع إلى ذلك المشهد الغريب . . وقد ملأها الاطمئنان . وكلما لمحت سرب طير آخر انحنت تلتقط الحصى وتلقيه . . فتتبعها الأيدى الخفية فى نشاط كبير عجيب . .

وانقضت ساعتان ، كانت الطيور خلالها قد توقفت عن الإغارة على الحقل . . وأحست المرأة عطشا وجوعا جعلاها تفكر فى قطع إحدى سيقان الذرة تمتص لبابها وتستعيد بعض قواها . .

ومدت المرأة يدها فكسرت ساقا، وقربته من شفتيها . .

ولم تكد تفعل، حتى تكسرت كل أعواد الذرة التى تملأ الحقل، وكأن منجلا جبارا قد قطعها بضربة قوية واحدة.

وصرخت المرأة وهى ترى الحقل كله قد تحول إلى أكوام من أعواد الذرة المقطوعة. بينما كان سابونيوما فى طريقه إلى الحقل بعد أن زالت الحمى عنه .

ووقف سابونيوما يطل فى ذهول إلى زرعه الذى تحول إلى أكوام من الحطب الأخضر . . وصرخ فى امرأته :

ـ ما الذى حدث أيتها المرأة ؟

وركعت المرأة أمام زوجها وهى تبكى وتجيب :

ـ لقد صنعت كل مابوسعى لأحمى الذرة من الطيور . ولكنى لا أدرى كيف سقطت السيقان كلها من تلقاء نفسها . . إنه لاشك من عمل الشيطان.

وزمجر سابونيوما صارخا :

ـ بل أنت هو الشيطان أيتها الملعونة . . أهكذا تبددين فى يوم واحد كل الثروة التى بذلت من أجلها كل جهدى وعرقى . . !؟ أيتها المرأة الشقية . . ماذا فعلت لتجلبى على هذا الخراب !؟

وراح سابونيوما يضرب رأسه وكفيه ويكاد يجن . . ثم انقض على امرأته وصرخ :

ـ أيتها الشقية . . كيف حدث هذا؟ تكلمى وإلا طردتك فى الحال من البيت ومن القرية . .

وأجابت المرأة فى غضب :

ـ تطردنى . . !؟ أهكذا يكون جزائى بعد طول ماعشت معك؟ ومع طول ماخدمتك؟ أتطردنى بسبب ساق من الذرة الحقيرة؟ ولكن لا . . إننى سأوفر عليك هذا العناء، فأعود إلى أهلى اليوم . . وسأجعل أبى يعيد لك البقرات التى أخذها مهرا منك . . فهى تلقى عنده على الأقل راحة وغذاء إثر عملها . . . لاشتائم . وإنها لتعامل لديه بأفضل مما عوملت به عندك!

وصرخ سابونيوما :

ـ أتشكين سوء المعاملة أيتها المرأة الملعونة؟ أتنتظرين منى الشكر والثناء على النكبة التى لحقت بى . . ؟ خذى هذه الصفعة شكرا لك أيتها اللعينة . . !

وفى ثورة الغضب انقض كف سابونيوما فى صفعة قوية هائلة على خد المرأة التى راحت تبكى وتصرخ وتصيح . .

وفى تلك اللحظة ، سمع سابونيوما صوت الجينارو يقول :

ـ تشجع يا صديقى . . فنحن هنا لنساعدك دائما فى أى عمل تقوم به . . لاتكلف نفسك عناء ضرب امرأتك لأننا سنقلدك ونقوم عنك بهذه المهمة . إن واحدا منا لن يتوانى عن عمله . . ألا فاسمع صياحها . . هيا اضربوها وساعدوا صديقنا أيها الأصدقاء . . !!

وراح جسد المرأة يدور مع كل الجهات ، وصفعات قوية تنقض على وجهها من أيد خفية لاتبين . . ثم انطرحت على الأرض تصرخ وهى تدفع عن نفسها وابل الصفعات الرهيبة الهائلة . .

ومرت بسابونيوما فترة من الذهول . . انحنى بعدها على امرأته يعينها على النهوض ، ويدفعها بشدة خارج الحقل . وما إن تجاوزت المرأة حدود الحقل حتى كفت الصفعات وتوقفت . وقال لها سابونيوما :

ـ أيتها المرأة . . لقد كان التأديب أشد قسوة مما أردت ، فلا تضمرى لى حقدا وبغضا .

ولكن المرأة صاحت به :

ـ لن أغفر لك أبدا . . ألا ما كان أشد حمقى حين تبعتك من قبل ! ولكنك وقد فعلت بى ما فعلت من أجل ساق من الذرة . . لن ترانى بعد اليوم .

وانطلقت المرأة تجرى فى طريق القرية . . وقد وقف سابونيوما يفكر فيما قالته ؟ لقد قالت إن كل ذلك من أجل عود ذرة . . فكيف إذا تحطمت أعواد الذرة كلها ؟

وانتبه على صوت الجينارو إذ يقول له :

ـ إنها لعلى صواب . . فهى لم تقطع سوى ساق واحدة من الذرة .

فتمتم سابونيوما الذى بدأت الحقيقة تتكشف أمامه .

ـ لكن . . هذه السيقان الأخرى . . لماذا كسرت . . ؟

أجاب الجينارو بعجب :

ـ لقد قمنا نحن بذلك . . وأؤكد لك أن هذا العمل لم يستغرق وقتا طويلا ؟

وصرخ سابونيوما :

ـ ماذا ؟ أنت . . وأصدقاؤك !؟

أجاب الجينارو:

ـ نعـم . . وإننا لمستعدون لتقـديم كـل خدمة لـك وتنفيذ كل مـا اتفقنا عليـه من تقليدك ومتـابعتك فى كل ما تبـدأ به . . لقد بدأت زوجتـك بقطع ساق أذرة فقلدنـاها وبذلنـا كل مابـوسعنا لإنهاء العمل فى لحظـات . . وكان هـذا شأننا أيضـا حينها أدركنا ضرورة ضرب امرأتك . . !!

وصاح سابونيوما :

ـ الويل لى . . إننـى لأشقى كل الرجال فى امسالا . . ! لقـد صدق السحرة والشيوخ حين قالوا إن هذا الحقل ملعون . . وملاعين هـم الذين يقتربون منه . . .

وقال له الجينارو :

ـ ولكن ما الذى فعلناه فأثار غضبك؟

أجاب سابونيوما :

ـ لقد طـردت امرأتـى فجلبت على نفسـى غضب كـل ذويها . آه منك أيها الماكـر الشرير جينـارو الشيطان . ليتنى أستطيـع أن أقبض عليك لحما ودمـا . . إذن لعلمتك كيف تساعد الناس عنـدما لايكون ثمة داع للمساعدة . الويل لى يـاجينارو . . والويل لك . . !

واستمر سـابونيوما يصرخ ويكـاد يبكى ويغمى عليه لشـدة الغيظ . . وراح يضرب رأسه بيديه ويقتلـع شعره . . ولم يكد يفعل حتى صرخ صرخة هائلة تنم عن ألم شديد هائل . . بينما كان رأسه قد أخذ يخلو من الشعر الذى راح يقتلع فى سرعة وجفاء . .

وارتفع صوت الجينارو:

ـ أسرعوا أيها الأصدقاء . . اقتلعوا ما طاب لكم ولاتبقوا على شىء أبدا . لقد أقسمنا أن نخدمـه ونساعده فى كل مـايفعل لننتهى بسرعة كبيرة ممـا يبدأ هو فيه . . أسرعـوا يا أصدقائى فقد نسيـت شتائم سابونيوما ولايمكن أن أنكـث وعدا قطعته على نفسى . . هيا ساعدوه معى على ضرب رأسه واقتلاع مابقى من شعره الغزير . . !

وراح سابونيوما يصرخ ويجرى . . حتـى تجاوز حدود الأرض . . وعندئذ ملأت الجو ضحكات وقهقهات عالية قوية رنانة . . تجاوبت معها صرخات كل الشياطين . .

وحتى اليوم . . لايـزال الناس فى قرية امسالا، يشيرون فى سخريـة إلى منزل « الأقرع الملعـون» . . أما أرض الجينـارو . . فما تـزال جرداء شـاسعـة ، تغطيهـا أعواد حطـب قديم . . !

أسطورة إفريقية
المجــزرة

حيوان البر والماء هم الأبطال دائما فى أساطير الزنوج . . على ألسنتها وبأعمالها تنطلق حكم ينتفع من ورائها كل الناس .

والغابة تضع القوى والضعيف دائما وجها لوجه . . سواء كان هذا خلال صيد أو بحث عن لقمة العيش . . . والضعيف الذى لايعرف كيف ينتصر على القوى تشغل رأسه فى كل وقت وسيلة البحث عن مخرج من مأزقه . . ليتخلص من سيطرة القوى وجبروته . . ومن هنا خرجت هذه الأسطورة .

هناك . . فى الساقية قرب الطاحونة . . . حيث الصخور الكبيرة تجعل الماء يجرى كالمخنوق فى عنق زجاجة . . وضعت سمكة عملاقة عشها ، واستقرت تحت صخرة ضخمة ترقب بعينيها اللامعتين مرور السمك الصغير، فتتلقفه بين فكيها ، وتبتلعه فى أقل من طرفة عين . . !

ولعل النجاة كانت تبدو هينة للأسماك الصغيرة ، إذا هى امتنعت عن المرور من الجدول إلى الساقية ، فتتفادى بذلك أن تكون طعما للمجزرة . . إلا أن الأمر لم يكن سهلا كما يبدو ، ففى الطرف الآخر من الجدول ، حيث منعطف شديد الضيق ، أقامت سمكة ماردة متوحشة ، فى عش صنعته من البوص والخيزران ، تروح وتغدو بين النهار والليل ، تطوح فى أعماقها كل مايمر بالمكان من صغار السمك . . والهوام . . وتطفو أحيانا على سطح الماء فاغرة فمها ، فيظهر الموت بين فكيها الشرهين . . !

وهكذا لم يعد من الممكن للأسماك الصغيرة عبور الجدول إلى الساقية . . ولا الهبوط منه إلى الترعة . . فهنا وهناك يتربص الموت . . والخوف يملأ كل نفوس الأسماك فى الجدول الصغير . خوف أشد قسوة من الموت نفسه . . !

وبدأ الغذاء يقل فى المنطقة المحصورة من الجدول ، فالأسماك تتوالد وتزداد ، والطعام يقل ويفرغ ، والبطون تخوى وتثور، والعيون تتحول من طول الجوع جامدة كالزجاج . . !

وكان لابد من الاستسلام للموت . . !

وتجمعت الأسماك تتشاور وتتساءل . . أى أنواع الموت أهون شرا . . وإلى أى ناحية من نواحى الجدول يكون اتجاهها . . !؟

قالت أقدم الأسماك العارفة بأسرار الساقية :

ـ خير لى أن أموت جوعا فى الجدول ، من أن أسلم نفسى طعما فى فم أى من الوحشين الهائلين !

واتجهت الأسماك إلى « الحنكليس » . . أدق الأسماك جسدا وأبرعها انسلالا وأخفها حركة . . .

وسألته الأسماك :

ـ ما الذى نستطيع أن نفعل ياسيدنا الحنكليس؟

ـ ليس هناك أمل ياسادة . . فالغذاء يتناقص ويختفى . . والوحشان لايكتفيان بأكل مايمر من الأسماك ، بل يبتلعان أيضا كل مايحمله الماء من أنواع الغذاء والهوام والحشرات التى نقتات بها .

قالت الأسماك :

ـ ولكن ما الذى يجب أن نفعله؟

أجاب الحنكليس :

ـ إنه ليبدو لى أن التضحية بعدد منا خير لنا من التضحية بالجميع . والرأى عندى أن نفكر فى الرحيل الشامل مجتمعين فنجتاز أحد الجانبين . . وعندما يفاجأ الوحش بجموعنا الهائلة فلن يستطيع مهما فعل أن يفترسنا جميعا . . بل سيبتلع البعض بينما يسرع الباقون فى طريق الهرب . . .

وتبادلت الأسماك كلها النظرات . . . وارتفعت همهمة الرفض . . !

وعاد الحنكليس يقول :

ـ إذا لم توافقوا على تلك الخطة فليس أمامنا إلا البقاء كما نحن . . فإذا لم نمت جوعا ، فأنا أعلم أن كلا الوحشين يتربص للآخر . . فعملاقة الطاحونة ووحش الخيزران يتباريان هولا ونهما ، وكل منهما يضمر للآخر الشر، ويريد أن ينتهز الفرصة ليخدعه ، ويقترب من مكانه ويفترسه . وعندما يحدث ذلك سيكتسح الوحش أمامه كل من ظل على قيد الحياة ، ويبتلعنا من أجل أن يمتلئ قوة تمنحه القدرة على مغالبة منافسه !

وقالت الأسماك :

ـ إذا بقينا كما نحن يوما آخر فسنختنق . . . وغدا يفقس البيض الذى وضعناه ، وتخرج فراخنا فإلى أين تذهب؟ وكيف تستطيع أن تحصل على الغذاء ؟ إنها ستموت كما نموت نحن أيضا قبل أن تبدأ المعركة بين الوحشين . وإنا إذن لمن الهالكين . . !

وسكت الجميع . . وراح الحنكليس يفكر . . . وفجأة برقت عيناه وهتف :

ـ استمعوا لى . . لقد خطرت ببالى فكرة تنجينا من المأزق دون أن نفقد كثيرا من الضحايا .

واجتمعت الأسماك من جديد والتفت حول زعيم الجدول وهتفت :

ـ ماهى الفكرة؟ دلنا على الوسيلة .

قال الزعيم :

ـ إن خطورتها ستصيب واحدا منا فقط . . هو الذى يقبل أن يكون له فخر القيام بها ، والتضحية بنفسه قربانا للآخرين .

وسكت الجميع . . فلم يكن هناك أحد يريد أن يسلم نفسه للموت . . من أجل شرف التضحية .

وخرج صوت رفيع من بين الأسماك :

ـ إنك أنت وحدك يازعيم تملك أن تنال هذا المجد . فأنت قائدنا وزعيمنا . . ومن العدل ـ إذا كان فى المخاطر مجد ـ أن يكون المجد لك . . !

وصاحت الأسماك كلها :

ـ أجل . . أجل . . المجد لك يازعيم . . المجد لك . . !

وامتعض الحنكليس وقد أدرك أن زعامته ستكلفه حياته . . لكنه عاد يفكر من جديد ، وذكر أنه أسرع الجميع سباحة وأبرعهم انسلالا . . وهو لطول عهده بالجدول يعرف جيدا كل حفره وزواياه . وأى الأماكن فيه أكثر حظا للنجاة وأيها أكثر تعرضا للخطر . .

وأطل أمامه إلى الأسماك الصغيرة ، فوجدها لاتزال ترتعد فزعا ورعبا ، فأشفق عليها ، وملأت حمى الزعامة رأسه ، وقرر أن ينهض بالأعباء التى ألقتها على كاهله تلك الزعامة .

وتكلم الحنكليس فى صوت عميق :

ـ لنبدأ إذن .

واستعدت الأسماك جميعا لتأدية الدور الذى تؤمر به . وبدأ القائد يلقى أوامره :

ـ عليكم جميعا أن تزدحموا بشـدة على الضفتين . . وعلى من يستطيع منكم القفز إلى الشط خـارج الماء فليفعل عنـد أول إشارة أصدرهـا . . حتى نفسـح ممرا واسعـا وسط الجدول الصغير . ابدءوا الآن . . وليحـذر أى فرد منكم مخالفـة أوامرى . . فنجـاتكم جميعا رهن بالطاعة العمياء . . !

وانطلق الزعيـم فى لحظة سابحا فى اتجاه الطاحـونة ، وملأ القلق والرعـب قلوب كل الأسماك فصاحت به :

ـ إلى أين تذهب يازعيم؟ هل تريد أن تستدعى عملاقة الطاحونة للمبارزة . . !؟

أجاب الزعيم :

ـ نعم . . !

قالت الأسماك :

ـ حذار يازعيـم . . فماذا عسانا نفعل إذا فقدناك !؟

ولم يجب الحنكليس ، بل ظل فى انطلاقه مسرعا فى اتجاه عمـلاقة الطاحونة . وعندما بلغ المكان صاح بها :

ـ أيتها السمكة الجبـارة . . يا أميرة الماء وسيدة الطاحونة وربـة الساقية . . إنى أحمل إليك تحديا من سلطان الخيزران . . !

وانتفضت السمكة العملاقة ، وانطلقت من عينيها شرارات الغضب ، وخرجت من تحت الصخـرة تطل فى غيـظ إلى الرسـول الـذى يحمل إليهـا تحدى سلطان الخيـزران . وقالت له :

ـ من هذا الـذى يجرؤ على أن يتحدانى؟ وما الذى تعنيه بذلـك؟ ومن أنت ؟ تكلم فإن بطنى لخاو ، وإن بى لرغبة فى ازدراد ذلك الجرىء . . وحامل رسالته . . !!

وتظاهر الحنكليـس بالهدوء بينما هو يرتعد ، ويـرقب فى حذر كل حركـات العملاقة المتوحشة . وقال :

ـ أنـا لا أمتنـع عـن التقدم إليـك بنفسـى لازدرادى . . غير أنـى لا أنصحـك أن تفعلى . . فقـد يكون لـك شـأن مـع من هـو أشـد منك سلطـانـا وأعظـم قدرا وأكثـر

جبروتا . . إنـه سلطان الخيزران الـذى أرسلنى إليك سفيرا ولن يغفـر لك الإهانـة التى توجهينها إليه فى شخص رسوله الضعيف . . !

وازداد الغضب بعملاقة الطاحونة وانفجرت تقول :

ـ اخـرس أيها الوقـح . . اتقول لن يغفـر لى؟ من هو هـذا الذى يملـك أن يغفر أو لايغفر!؟ وهل أنا بحاجة إلى أن أستدر غفران ذلك الطاغية المزعوم؟ ذلك الدعى الذى تسميه سلطان الخيزران . . ! يـاللسخرية . . سلطان الخيزران . . ! أيظن نفسـه سلطانا بينها أنا الملكة هنا . . وسيدة كل الأسماك!؟

قال الحنكليس يستزيد إثارتها :

ـ معـاذ الله . . ! كيف تكـونين ملكة المكان وسيـدة الأسماك كلها ، وهـو يؤكـد أنه وحده صاحـب السلطان المطلق على الجدول والساقية والخيزران جميعـا . . !؟ لقد طالما سمعت منه أنك إذ تتمتعين بأن تكونى سيدة التيار حيث تقيمين ، فما ذلك إلا لأنه هو صاحـب السلطان . . قد منحـك حتى الآن بعـض الحرية . . وهو يملـك أن يسحبها منك متى أراد!

وصرخت ملكة الطاحونة :

ـ القصاص القصاص . . ! إن هذا الزهو الذى يملأ صاحبك ليوجب منى أن أربيه وأرد له الصواب وأنزل به أشد العقاب . . !

وأجاب الحنكليس وهو يتحفز للهروب :

ـ العقـاب . . !؟ إن العقاب سينزل بـك وحدك . فقـد رأيته قبل حضـورى إلى هنا يستعد للقدوم إليك ليؤدبك تأديبا شديـدا ولينزل بك العقاب الدامى كما يقول . . لقد سمعته يهتف وهو يستعد للقضاء عليك بأنه سيتخلص منك ليستطيع الحكم وحده فى هذه المملكة بموجب الحق الذى أعطاه إياه « ويندى» . . والذى منحته إياه قوته وأهله وشرف سلالته وأجداده . . !

وقهقهت ملكة الطاحونة فى سخرية صاخبة وهى تقول :

ـ إذن فسأنتظره . . وسنرى إذا كان الأمر كما زعمت وزعم صاحبك الأفاق . . ! إنى لأنتظره هنا فى شجاعة ولهفة واشتياق . . !

وبينما كانت ملكة الطاحونة تستعد للمعركة ، كان الحنكليس قد انطلق كالسهم إلى الجهة المقابلة حيث يقيم وحش الخيزران . وصاح به وهو لايزال يجرى متجها إليه :

ـ استعد يامسكين . فإن مولاتك قادمـة لتنزل بك العقاب جزاء انتقاصك سلطانها ومحاولتك انتزاع قطعة من مملكتها والسيطرة على ذلك الجزء من جدولها . . !

وبرقت عينا الوحش ، وضغط على فكيه بشكل مخيف وهو يقول :

ـ مولاتى! وهل لى سيد هنا؟

أجاب الحنكليس :

ـ ملكة الساقية والجدول وصاحبة القصر المجاور للطـاحونة . . لقد ملأها الغضب عندمـا عرفـت أنك قد وضعـت يدك على أطراف مملكتهـا ، وقررت أن تبرهـن لك أنها السيد الأوحد هنا . . وقالت إنها ستقتلك إذا حاولت أن تزهو وعمدت إلى المقاومة . . !

صرخ الوحش فى صخب :

ـ فلتـأت ملكتك المزعومة . . فـأنا لا أخشى أحـدا . ولولا أنى أكلت منـذ لحظات لابتلعتك لأريك وأرى سيـدتك ماهى قيمة التهـديدات التى ترسلهـا إلى والأوامر التى تلقيها على . . !

قال الحنكليس :

ـ مسكين أنـت . . إنى لأنصحـك أن تنقذ نفسك وتبتعـد عن المكـان أو تختبئ فى الأعماق لعلك بذلك تثنيها عن غضبها ورغبتها فى القضاء عليك . . !

ووثب الوحش غاضبا يصرخ :

ـ أختبـىء . . !؟ أختبىء . . !؟ أجل سأختبـئ . . ولكن فى الجحر الذى تقيـم فيه ملكتك المزعومة لتعلم أن الموت جزاء من يدعى الملك سواى . . !

وقبل أن يبـدأ الوحـش اختراقه للماء ، كـان الحنكليس قـد أسرع إلى أفراد شعبـه من السمك الصغير وأصدر أوامره فى سرعـة بالابتعاد عن الطريق والاختبـاء فى الزوايا وبين الأعشاب ، والاستلقاء على جانب الجدول لمن استطاع . . .

واقترب وحش الخيـزران ، بينما اقتربت ملكة الطـاحونـة . . . ونشبت المعركـة دامية عنيفة وسط الجدول الذى أخلته الأسماك فى لحظات لتفسح الميدان للصراع الجبار . . .

وظل الخصمان يسبحـان وينفخان فى الماء ، ويضربان بذنبيهما العـريضين وبمراوح زعانفهما . والعيـون منهما تندلـع شررا ونارًا ، وكل منهما فـاغر شدقـه ليبتلع غـريمه إذا استطاع . . .

وبين الضرب والعض تطايرت القروش وتمزقت الزعانف واصطبغت مياه الجدول بالدم . . .

وأطل الحنكليس يتابع المعركة . . لقد صدق سلطان الخيزران إذ كان أقوى من ملكة الطاحونة . . فقد حاول الوحش أن يبتلعها آخر الأمر . . ودخل أغلب جسدها العملاق فى حلقومه . . وإن لم يستطع ازدراده . . !

وفتح الحنكليس عينيه فى دهشة وتبعته كل الأسماك . . .

لقد هدأت المعركة فجأة . . وكان وحش الخيزران يلهث ويثب وثبات تضعف وتختلج شيئا فشيئا . . بينما جسد عملاقة الساقية يهمد ويسكن إذ رأسها كله فى حلقوم الوحش . . .

وفى لحظة . . سكن كل شىء . . وطفت على سطح الماء كتلة سوداء يدفعها التيار . . .

لقد مات الغالب مخنوقا بجثة المغلوب . . . !

أسطورة إفريقية
الفـرس العجـوز

فى أعماق أفريقيا . . كان الزنوج يحيون حياة بدائية تتفق مع بيئة الغابات والأحراش التى تحيط بهم من كل جانب . ومن هنا فاضت أساطيرهم بأخبار الجن والسحرة والمشعوذين . . واتخذوا من الحيوانات والوحوش أبطالا حقيقيين لأغلب ما اخترعوا من أساطير . .

ولعل هذه الأسطورة التى جمعت بين السحرة والجن والشياطين . . كما جمعت بين ملوك الإنس وملوك الغاب . . تعد أبرز أساطير الزنوج وأصدقها فى تصوير الحياة التى كانوا يعيشونها . .

ضاق ملك الثعابين ذات يوم بحياة الغابة . . وأخذت به رغبة طاغية فى الزواج من إحدى بنات البشر. وكان يستطيع الذهاب إلى المدينة والزواج من أى فتاة يريد . . غير أنه كان يعتبر نفسه ملك الغابة كلها . . فأبى إلا أن يبحث عن أجمل الفتيات وأنضرهن . . وإذ سأل عن العروس التى تتفق ورغبته . . عرف أن خير الفتيات هى الأميرة « فتيما » . . كبرى بنات ملك الغرب وأقربهن إلى قلبه الكبير. . .

وقرر ملك الثعابين أن يستعمل القوة السحرية التى منحها له الإله « ويندى» للوصول إلى بغيته . واختفى تحت ظلال شجرة معينة يعرفها فى الغاب ، وتلا الصيغة السحرية وهو يبتلع إحدى ورقات الشجرة ، فاستحال فى الحال إلى أمير شاب جميل ، يرتدى أفخر الثياب ، وبالقرب منه جواد رائع وسيم . شىء واحد كان يستطيع أن يكشف حقيقة الأمير الشاب لأى امرىء له بعض الإلمام بالسحر. . هو ذلك البريق العجيب الذى يشع من عينى الأمير الشاب . . فقد احتفظ بنظرات الثعبان . . كما احتفظ بأعمق غرائزه . . .

وانطلق الأمير الشاب إلى القصر وهو يحدث نفسه بأن جماله ووسامته جديران بأن يسلبا عقل الأميرة حتى ولو كانت جامدة القلب عسيرة المنال . . .

غير أن « فتيما» لم تكن عسيرة المنال قط . . فطالما تمنت أن تتزوج حتى تترك بلاط أبيها الذى يعامل بناته كأنهن سجينات بين حوائط القصر الذى لايدخله شاب قط . ولذلك فإنها لم تكد ترى الأمير حتى غمرتها السعادة ، وأحست كأن أحلامها قد بلغت

منتهاها . ولقد عرف الأمير كيف يستميل قلوب أهل القصر جميعا . . حتى الملك الذى اشتهر بجفـائه وغلظته . . عـرف الأمير كيف يتكلـم معه بـرزانة وجدّ . . جذبـاه إليه وحببـاه فيه . . فى حين كـان مع الأميرة نفسهـا ، يـرقص ويغنـى ويهزل ، ويصنع كـل مايستهوى قلوب الفتيات . . !

ورحبت « فتيها » بالزفاف إلى الأمير . وما اهتمت قط باعتراضات أمها التى أخذت تحاول أن تقنعها بـالتروى فى قبول الـزواج من أمير مجهول لايعـرف أحد عـن مملكته أى شىء . . فقد كـانت وسائل الإقناع التـى أخذ يصبها فى أذنيها تطغـى دائما على كل ما تسوقه أمها من حجج . . . حتى تم الاحتفال بالزواج .

وبينما الأميرة تستعد لـلانطلاق مـع زوجها إلى مملكته البعيـدة . . دعتها أمهـا إليها وقبلتها . . ثم قالت لها :

ـ لكم تمنيـت يا ابنتى ذلك اليوم . . غير أنـى أعجب للأمير الذى يـرفض أن يكون بصحبتك أى فتـاة من وصيفـاتك أو ضابـط من حراسـك المخلصين . إنه يـرفض أن يصحبك أحد قط . . حتى الحلى والذهب والمال ، والقطعان الكثيرة التى أصبحت لك يوم زفـافك . . كل هـذه الأشياء لايريد الأمير أن يـأخذها ويقـول إنك لن تكـونى فى حاجة إليها أبدا . .

وكان الملك قد جاء فى تلك اللحظة . . فأخذ يهدىء من روع زوجته وهو يقول :

ـ ليـس للأمير حاجة بكـل هذه الأشياء . . ففى مملكتـه أكثر مما نستطيع إعطـاءها وأفضل . . .

بيد أن الشـك بدأ يتسرب إلى قلب فتيها . . واستبد بها قلـق مجهول فأخذت تـراجع عقلها وعواطفها ، وتتمنى لو تستطيع أن تنكث العهد .

وبينما الدوامة تدور فى أعماقهـا ، دخل الأمير فى ضجة لم تترك لها مجالا للتفكير . . إذ انـدفع إليهـا فحملها بين ذراعيـه ، وأبعدهـا فى سرعـة غريبـة عن أمهـا التى أسرعـت خلفها . . وأخذت تتوسل إلى الأمير أن يسمح لعروسه بأن تأخذ معها أى شىء يذكرها بأهلها وبلادها . وعرض الملك أن يعطيهـا أحد جياده ليكون مطيتها فى السفر ، ويكون مطية لها فى نزهاتهاوصيدها عندما تبلغ بلاد زوجها الحبيب .

ولم يجد الأمير وسيلة لرفض الهديـة ... وانطلقت الأميرة إلى الحظيرة تتخير جوادا من بين الجياد الخمسين التى تعمرها .

كانـت الجياد كلهـا جميلة رائعة . . وإذ حيرهـا الاختيار قـررت أن تجرى قرعـة بينها

جميعا . . فأمسكت بمخلاة الذرة وأخذت تحركها يمينا ويسارا ، وقد قررت أن تختار أول من يتقدم من جياد الحظيرة . . .

ولم تكد الأميرة تحرك المخلاة حتى انطلقت إليها فرس عجوز . . هى أم كل الجياد الخمسين . . . !

وهزت الأميرة كتفيها وقررت أن تعيد القرعة . . غير أن أمها اعترضتها وهى تقول :

ـ كلا يابنتى . . إن الإله « ويندى » ليكره الإعادة . . وعليك أن تقبلى ماقسم لك به . . .

قالت فتيها :

ـ ولكنها قبيحة المنظر تصطك ركبتاها عند كل خطوة تخطوها . . وحتى فمها تنقصه الأسنان . . فلا تصلح أبدا أن تكون مطية ملكية . . .

قالت الأم :

ـ لاتغترى بالظواهر . وتأكدى أن القدر يحسن الاختيار . . !

وأذعنت الأميرة . . وقبلت الفرس العجوز . . .

وكان وقت السفر قد حان . . واقتيدت الفرس بعد أن وضع عليها سرج من القطيفة الموشاة بالذهب ، واقترب الأمير ليساعد عروسه على الركوب .

وهنا . . فى تلك اللحظة بالذات . . أجفلت الفرس ونفرت نفورا شديدا كادت الأميرة معه أن تسقط على الأرض . . !

وملأ التشاؤم كل أهل القصر . وأحس الأمير قلقا خفيا جعله يطلب استبدال الفرس . . غير أن الملكة التى كانت تكره التغيير، أقنعته بأن الفرس ظلت حبيسة فى الحظيرة زمنا طويلا . . مما جعلها تجمح عند خروجها أول مرة بعد كل ذلك الزمن الطويل . .

وركبت الأميرة فرسها . . وامتطى الأمير جواده . وانطلقا معا فى سرعة مرعبة . . كإعصار يتوارى فى غياهب المجهول . . .

وظل الأمير وعروسه ينهبان الأرض طيلة اليوم . . حتى بلغا آخر الأمر حدود الغاب الكبير الذى يبدو من مملكة الجنوب خطا قائما فى الأفق لاحد له . وطلب الأمير من عروسه أن تنتظره حتى يعود . . ثم انطلق بين الأشجار لينفرد بنفسه ويتلو الصيغة السحرية ، ويعود سيرته الأولى . . ثعبانا هائلا كالفيل . . !

وشعرت « فتيبا » فجأة بالفرس ترتعش تحتها. فربتت بكفها فى حنو على رقبتها وهى تقول وكأنها تخاطبها:

ـ ماذا دهاك أيتها الفرس العزيزة..؟ إنك تنضحين عرقا باردا غزيرا. فهل يكون طول الطريق قد أعياك وأجهدك؟ ومع ذلك فما أسعدنى باصطحابك.. فقد بذلت من الجهد خلال ذلك الطريق الطويل مالم أكن أتصور أن تبذليه.. ولقد غرتنى الظواهر من قبل حتى ظننتك تعجزين عن المسير..! ألا ما كان أصدق أمى وهى تطلب منى ألا أغتر بالظواهر..!

وفوجئت الأميرة بالفرس العجوز تجيبها فى صوت رقيق حزين:

ـ إن هذا مع الأسف ما صنعته وتصنعينه الآن إذ تسيرين مع ذلك الأمير..! لقد خدعك بمظهره فلم تعرفى أيتها المسكينة أنك تزوجت وحشا ضاريا. إنه ثعبان ضخم.. تنين هائل.. استطاع بمهارته السحرية أن يتحول بشرا ليخدعك فتتزوجيه!

وندت عن الأميرة صرخة هائلة يملؤها الرعب.. وهتفت:

ـ ثعبان.. تنين.. ماذا تقولين..!؟

وهزت الفرس رأسها وهى تقول:

ـ أجل يا ابنتى.. لقد وقعت فى شرك مجرم محتال لن يرحمك أبدا..!

وهتفت الفتاة:

ـ كيف السبيل الآن إلى الفرار والعودة إلى أهلى.. رحماك أيتها الفرس الصالحة.. أعيدينى إلى قصر أبى بأسرع مما يبرق البرق قبل أن يعود التنين فيجرى بى إلى أعماق الغاب...

وانطلق من بين شفتى الفرس صوت ساخر:

ـ وكيف أستطيع أن أسرع بك وقد قلت عنى من قبل إننى قبيحة المنظر تصطك ركبتاى حتى لأعجز عن الجرى..!؟

وبكت الأميرة وهى تتوسل وتستعطف وتقول:

ـ لا. لاتلومينى أيتها الفرس العزيزة.

وأشفقت الفرس العجوز على الأميرة الباكية.. واستعدت للهرب بها بعيدا عن موطن التنين.. غير أنها قبل أن تمضى طلبت من الأميرة أن تقبض بشدة على عُرفها

فلا تتركه أبدا . . ونبهتهـا ألا تلكز جنبها بالمهماز حتى ولو كـان التنين بسبيل أن يلحق بها ، لأنها لو فعلت فستطير بها فى الهواء إلى حيث المجهول . . !

وصرخت « فتيها » تستحثها :

ـ أسرعى إذن . . أسرعى . . إنه قادم . . هاهو ذا يقترب منا . . ألا تسمعين . . ؟!

وكان الثعبان الهائل قد خرج فى تلك اللحظـة من بين شجرات الغاب يتلوى ويفح ويبسط حلقاتـه الجبارة على الأرض . وأسرعت الفرس تسابـق الريح وحوافـرها لاتكاد تمس الأرض . غير أن الثعبان كـان أسرع من الفرس فى اجتيـاز الحقول . . وكان لسـانه يمتد فى فحيح كالرعد . . وعيناه ترسلان الشرر وتومضان فى غضب عنيف مجنون . . .

وصاحت « فتيها » وقد أذهلها الرعب :

ـ سيدركنا . . إنه يقترب منا . . !

ولم يكن لدى الفرس من الوقـت ماتضيعه فى تشجيع الأميرة الصغيرة . . بل أخذت تزيـد من سرعتها وتجتـاز من الطريـق فى ساعـة مايستغرق عـدو يوم كامـل . . وظلت منطلقة فى سرعتها المذهلة حتى بدت لها من بعيد مملكة الغرب وراء نطاق من الظلال . وعرفت الأميرة أنه لم يعد أمامها للوصول أكثر من ساعة أو بعض ساعة . . .

وفجأة . . شعرت الأميرة بلفحة ساخنة كـالنار فوق رأسها . . فقد كان التنين الهائل يتقـدم فى سرعة ويهبـط فوق رأسهـا ليختطفهـا . وأحنت الأميرة المسكينـة رأسها وهـى تصرخ فى رعب وفزع . وفى خـلال الرعب نسيت نصيحة الفـرس . . ولكزتها بالمهماز فى جنبيها بقسوة وعنف . . .

وأحدث صرير المهماز فى جلد الفرس دويا يشبه قصف الرعد .

وفى لحظة . . كانت الفرس ترتفع فى الهواء . . وتخترق السحب ، وكأنها تسبح فى لج من الأمواج .

وأغمـى على « فتيها » . . فلـم تحس الصـدمـة الهائلـة التـى اصطـدمتهـا الفـرس بالسماء . . ولا بالهبوط السريع الذى هبطته نحو الأرض . . !

غير أنها عندما أفـاقت . . وأطلت حولها . . لم تجد غير حقـول خضراء واسعة تحيط بها من كل جـانب ، لاتشبه من قريـب أو بعيد مملكة أبيها الحبيبة . ونظـرت أمامها . . ولكن شيئا مـن سطوح العاصمة لم يبد لها قـط . . فما كان هناك شىء مـألوف يحيط بها على الإطلاق . . كل شىء بارد غريب . . غارق فى المجهول . . .

وأحنت الأميرة رأسها تستنجد بفرسها العجوز. . غير أن الفرس كانت هى الأخرى قد انغرست بقوائمها الأربعة فى الأرض لعنف الصدمة . . وكانت عيناها تنفثان شررا . . !

وخاطبتها الفرس وهى تقول فى قسوة :

ـ لماذا فعلت ذلك . !؟ أما أنذرتك ألا تلكزينى بالمهماز مهما بلغ بك الأمر . . ؟

وبكت الأميرة ، ولم تعرف كيف تجيب . . . واستمر بكاؤها صاخبا هادرا حتى رق لها قلب الفرس . . . واختفى من عينيها الشرر المجنون . . .

وأطلت الفرس فى حزن إلى الأميرة الباكية وهى تقول :

ـ كفى عن البكاء الآن ياابنتى . . فهو لن يجديك نفعا قط . . وأولى بك أن تنهضى فتنظرى مايحيط بنا . . لندرك أين نحن . . وكيف يمكن أن نعالج أمرنا . . .

وتنفست « فتيها » الصعداء . . وترجلت من فوق ظهر الفرس ، وراحت تخطو فى حذر وهى تطل أمامها . . ثم توقفت فجأة وقد رأت فى مواجهتها بضعة أكواخ ضئيلة قصيرة لانوافذ لها على الإطلاق .

وأخذت « فتيها » تجيل عينيها ، وتدير بصرها فى كل مكان . . فأخذ بها العجب ألا ترى أحدا من السكان . وازداد عجبها وارتعشت عندما سك أذنيها فجأة صوت رقيق ضئيل يسأل :

ـ من هذا الذى هناك . . !؟

وأجابت « فتيها » فى رجفتها . . وهى تحاول معرفة مصدر الصوت :

ـ أنا أميرة تائهة فى ذلك المجهول بعيدا عن بلدى وأهلى . . أطلب مأوى وغذاء لى ولرفيقتى العجوز .

وسمعت الصوت يقول :

ـ ومن هى رفيقتك تلك؟

أجابت فتيها :

ـ هى فرسى . . أرادت أن تنقذنى من بلاء أحاط بى . . فحملتنى إلى هذا المكان .

قال الصوت :

ـ كان أولى بها ألا تأتى بك إلى هنا . . فحاكم هذا البلد ملك يخشى النساء

ويكرههن . . ويأمر بقتل كل أجنبية تطأ أرضه . . وأنت بمجيئك هنا إنما تتعرضين لموت محقق رهيب . . .

وصرخت الأميرة شاحبة :

ـ موت . . موت . . أين يمكن إذن أن اختبىء . أواه . . ماذا جئت أبتغى فى هذا المكان . . ؟

وفى هذه اللحظة سمعت صهيل الفرس ، فانتبهت وسمعتها تسألها عمن تحدثها فقالت :

ـ لست أدرى . . إننى أسمع صوتا ولا أرى أحدا . . تعالى أيتها الفرس نخرج من تلك الأدغال المخيفة هاربين من المصير المجهول .

وأجابتها الفرس :

ـ إننى لا أستطيع حراكا كما تعلمين . . لقد غرقت فى الأرض بقوى السحر، ولن أستطيع الآن التخلص منه . إن لكزة مهمازك أثارت فى جسدى قوة مجهولة وساقتنى إلى حيث لا أدرى . . وكل ما أعرفه هو أنه يجب لكى يفك أسارى وأبرح هذه الأرض . . .

فقاطعتها الأميرة قائلة :

ـ قولى ماذا يجب أن أفعل لأمنع أذى السحر الذى شل حركتك . . لقد أحسنت إلى فيما مضى ، فلسوف أبذل حياتى لأعيد إليك حريتك .

وقالت الفرس فى بطء :

ـ لكى أفلت من السحر . . يجب ان تقتلى أمك . . ! !

وشحب وجه « فتيها» . . ومضت بالاثنتين فترة من السكون المخيف قطعها الصوت الخافت الضئيل وهو يقول من جديد :

ـ لاتبكى أيتها الفتاة . . فنحن نستطيع أن نساعدك . . !

وتلفتت « فتيها» والفرس إلى مصدر الصوت . . لم يكن هناك شىء قط . . غير أن الفرس صاحت بعد لحظات :

ـ آه . . قد رأيتك . . إنك لست كبيرا . . هل أنت زعيم قومك . . ؟

ـ أجل .

ـ إذن فأنت تستطيع مساعدتى فى حماية هذه الفتاة؟ فأنا الآن عاجزة عن الحركة بفعل السحر ولا أقوى على إرشادها إلى حيث الأمان . .

وأجاب الصوت :

ـ لقد فرغت من العمل بعد أن بنيت بيتى . . وسأرعى الفتاة وأتعهدها وأظل معها فى كل خطواتها وأجيئك بأخبارها . . غير أن أول مايجب أن تفعله هو أن تصبح ذكرا . . !

وصاحت الفتاة وهى تحاول جاهدة العثور على محدثها :

ـ ذكر . . !؟ كيف يمكن أن يحدث هذا؟

قال الصوت :

ـ سأحضر لك ثوب فتى صنعناه من أجلك منذ رأيناك تهبطين هذا المكان . إننى هنا وإخوتى بناءون ماهرون . . فالديدان والعناكب والنمال تشتغل ماوسعها ، والثوب على وشك الإنجاز . . .

وما كاد المجهول ينتهى من كلامه حتى لمحت « فتيما» ثوبا من الأطلس الفاخر يتقدم على الأرض فى بطء كبير . وحملقت الأميرة غير مصدقة فبدا لها كأن الأرض تتحرك من تحت الثوب ، غير أن الأرض فى الحقيقة لم تكن تمشى . . بل كان هناك جيش كثيف من النمل يحمل الثوب ويقترب به من الفتاة حتى استقر أمامها . . .

وانحنت « فتيما» فارتدت الثوب . وبدت فيه شابا وسيما رائعا بارع القسمات .

وقالت الأميرة :

ـ كم أنا عاجزة عن شكركم جميعا أيتها الديدان والعناكب والنمال . . ولكننى لاأستطيع الذهاب وصديقتى الفرس حبيسة هنا لاتعرف كيف تتحرك . . ولا تجد مايقيها المطر والريح . .

وعاد الصوت يحدثها :

ـ لاتنزعجى . . فسيعمل أصدقاؤنا على إقامة بيت حول صديقتك الفرس . . هيا إلى العمل يا إخوتى . . !

وفى لحظات ، كانت الأرض تنشق وتتفتح وترتفع منها جنبات تحيط بالفرس حتى أصبح حولها حائط دائرى متين .

وهتفت « فتيما» وهى تصفق فى مرح :

ـ عرفت من أنت . . أنت نملة كبيرة . . !

قالت النملة وهى تجثم على قدم الفتاة :

ـ أصبت . . وبما أننا قد اطمأننا إلى ملجأ الفرس . . فينبغى أن تمثلى أمام الملك فى زى رجل ، لعلك تجدين وسيلة للعودة إلى الوطن .

وعانقت « فتيما» صديقتها الفرس . . وتعلقت النملة بحذاء الفتاة ، وانطلقتا معا فى الطريق إلى قصر الملك . . .

ولم يكن الطريق سهلا . ولعل مازاد من صعوبته لدى « فتيما» أن هياكل عظمية كثيرة كانت مبعثرة هنا وهناك ، تحكى كيف بذلت النساء الأجنبيات حياتهن مقابل سفرهن المشئوم .

وبلغت « فتيما» القصر. وأحاط بها الحراس وراحوا يرهقونها بالأسئلة . . بيد أن النملة هيأت لفتيما الأجوبة المناسبة لأسئلتهم فى كل مرة ، فكانت تلقيها إليهم فى براعة وثقة واتزان . . .

وقادوها ـ وهى فى ثوب الأمير ـ لتقف بين يدى الملك . . .

وكان الملك رجلا ضخما كعملاق . . صاخب الصوت ، قاسى القلب ، قال لها وهو يضع يده فوق كتفها :

ـ من حسن طالعك أيها الفتى الغريب أنك لست امرأة . . فأهلا بك فى مملكتى . . ولكن . . ما الذى جاء بك هنا ! ؟

وبدأت الأميرة ، وقد أكسبت صوتها خشونة الرجال ، تلفق قصة طويلة حول الصيد ، وضلال الطريق . ولكن الملك لم يكد يعرف أن « الأمير» يتقن الصيد ، حتى ملأته الفرحة . . فقد كان يبحث عبثا عن رفيق لرحلات صيده . . فوجده فى ذلك الشاب الغريب . . وقرر أن يجعل إقامته فى بيت لايفصله عن البلاط الملكى سوى باب قصير.

وكان البيت الذى أعد « للفتى» قريبا جدا من جناح الحريم ، حيث تعيش نسوة الملك وبناته فى حراسة « صوما» العجوز. . . عمة الملك . .

وفى الحق ، أن « صوما » كانت أجدر النساء بمنصب الحارس . . فقد كانت بالغة القبح والدمامة . . لاتعرف من الحياة كلها سوى الفضول والحقد على الجميع . . .

وحذر ضباط الحرس ضيفهم الشاب من مخاصمة «صوما» . . حتى لاتسبب له المتاعب . وأحست النملة قلقا من هذا الجوار المخيف ، فنصحت « فتيما» بإغلاق

البـاب الذى يطـل على جنـاح الحريم جيـدا ، حتـى تذهـب هـى إلى الفرس وتسـألها النصح .

وعندما ذهبـت النملة كان الإعياء قـد أخذ بفتيبا التى لم تكد تستلقـى على الفراش حتى نامت . . ونسيت الباب مفتوحا . . .

ومضى الليل حتى انتصف . وفُتح الباب فى بـطء وهدوء . . وبدا فيه وجه العجوز «صومـا» التى جاءت تتلصص على الشـاب الصغير، بعد أن غاظها اهتمام الملـك به ، وقراره بأن يجعله رفيق صيده . . وشىء آخر دفعها إلى الحضور . فقد أثار شكها صوت الفتى الرقيق . . . والخشونة التى تبدو غريبة مصطنعة . . !

وانحنت « صوما» تحدق فى وجه « الفتى» مليا . . كان الوجه جميلا بأهدابه الطويلة ولونـه الأسمر . يثير الشـك . وعادت « صـوما» تتأمـل الوجـه جيدا . آه . . إنـه ليس شبابا . . بل امرأة فتانة تستتر فى ثوب شاب . . . !

وأعجبهـا الاكتشاف ، وقـررت أن تلعب بـالفتاة وتعبـث ، حتى تكشـف أمرهـا فى الوقت الذى يحلو لها . . .

وعادت النملـة فى الوقـت الذى كـانت « صـوما» تغـادر فيه المكـان . وأدركت أن العجوز قـد اكتشفت السر . فازدادت قلقا ، واضطـربت وأيقظت الأميرة لتقـص عليها ماكأن من أمر العجوز . . وتنصحها بـأن تنهض حالما يطلع النهار، وتجتهد فى اكتساب صداقة الملك قبل أن تدير العجوز « صوما» رأسه . !

وانطلقـت « فتيبا» إلى الملك فيما تـركته لحظـة . وافتتن الملـك بأحـاديث « الفتـى» ، وأخذه معه إلى الصيـد حيث كاد الأمر أن يفتضح مـرات . . إذ لم تستطع احتمال الجهد الشاق ، والجرى وراء الغزلان . .

ومع ذلك . . فقد انقضى اليوم الأول بسلام . . .

وجاء يوم آخر . . وكانت « صوما» قد انطلقت إلى الملك خلال الليل ، وراحت تقول له إن الفتـى ضعيف شديـد الحاجة إلى التقوية . . ونصحتـه أن يزيد مـن أعبائه ، وأن يعوده على الأعمال الشـاقة ، ليصبـح رجلا قويـا رائعا . وشىء آخـر اقنعت الملـك بأن يفعله . . هو أن يأمر الشاب بـالاستحمام الكثير فى النهر . . والتدرب على المصارعة مع أترابه من الشبان . . !؟

وقد احتملـت الفتاة كل المتـاعب . . وإن كادت تفتضـح مرات خلال المصـارعة ، والاستحمام فى النهر . .

ومضى ذلك اليوم أيضا . . .

غير أن الفتاة لم تدر أنها كادت تنكشف تماما آخر اليوم . فعندما استأذنت الملك فى الانصراف . افترت شفتا العجوز « صوما» عن ابتسامة ساخرة وهى تهتف بالملك ألا يأذن للفتى . . وكاد السر أن ينطلق من بين شفتيها . . لولا أنها عادت فكتمت الأمر قبل أن يغادر فمها . . لتبقيه إلى فرصة أخرى خطرت ببالها . . .

وأسرعت « فتيبا» عندما أذن لها الملك ، ودخلت غرفتها وأغلقت من خلفها الباب . ولم تكد تستند إليه فى راحة ورضا حتى وجدت العجوز تتوسط الغرفة . . .

وغمرها رعب هائل . . . وبدأت العجوز تتكلم . . .

قالت صوما :

ـ لقد جئت لأهنئك . . فقد استطعت أن اقنع الملك بمصاهرتك . . واتفقنا على أن يزوجك كبرى بناته . . وأن يجعل لك ولاية العهد . . !

وبهتت الأميرة وغمغمت فى ذهول :

ـ ولكنى . . .

وقاطعتها العجوز بابتسامة ساخرة كأنها الشيطان وقالت :

ــ أراك لاتشكرنى أيها الأمير العزيز . . بل تنظر إلى وكأننى رسول الشيطان . . أهكذا تقابل من يحمل إليك خبر المصاهرة التى تعتبر هدية رائعة لمثلك . . !؟ لقد أردت أن أخدمك . . لأننى أشعر نحوك بحب الأم . . وعليك أن تعتبرنى أمك حقا . . أيها الأمير . . ولاتنادنى إلا بيا أمى . . !

وانهارت فتيبا . . وأخذت العجوز الشيطانة تعدها بأن الغد سيكون أعظم أيام «الأمير الشاب» . . !

وما إن تركت « صوما» الأميرة . . . حتى انكبت هذه تبكى وقد فقدت كل قدرة على التفكير والإدراك . . .

وسمعت الفتاة صوت النملة تحدثها :

ـ لا تنزعجى . . فلا يزال أمامنا الوقت الذى تضيعه « صوما » فى كتمان السر من أجل أن تجعل المفاجأة أكثر وقعا لدى الملك إرضاء لنفسها الشريرة . نامى الآن فى هدوء . . . وثقى بى وبأصدقائى الذين يعملون من أجلك . . !

وجاء الغد يحمل أمرا من الملك « للأمير» بالمثول بين يديه . . وعندما وقف « الأمير » أمام الملـك . . مد الملك يـده إليه يباركـه . . وينبئه بـاختياره وليا للعهـد . . . وزوجا لكبرى بنات الملك . . . !

واضطربـت فتيبا . . غير أنها تماسكت وهـى تحاول أن تخرج من بين شفتيهـا مايعبر عن شكرها للملـك . . أما هو فقد عزا ارتباكهـا إلى شدة الفرح . . . إذ « سيكون الأمير وليا للعهد» . . !

واقتربـت العجوز صـومـا . . وأخذت بيـد « الأمير» تقـوده إلى حيث العـروس . . وأطلت « فتيبا» أمامها . . . لقد كانت العروس قـزما حدباء لاتختلف فى شىء قط عن عمتها العجوز. . . حتى فى سواد النفس . . !

وتمتمت « فتيبا» وهى تتراجع أمام « المخطوبة الرائعة» :

ـ ولكن . . ولكنى لاأزال حدثا بعد . . !

وهتفت صوما :

ـ ستدرك أيها الأمير العزيز فن الزواج . . عندما يتم الزواج . . !

وانطلقت العجوز فى قهقهة قـوية صاخبة . وأخذت العروس تضحـك هى الأخرى فى سرور وفرح . فبدا «لفتيبا» كأنما ضحكات الشياطين تخرج من فوهة الجحيم . . !

وفجأة . . صرخـت العروس« روميرا» وسقطت على الأرض . . وبادر إليهـا الأطباء والسحرة لإنقاذها ، لكن بغير طائل ، فقد ماتت روميرا . . مخنوقة . . !

وقال بعض من كان فى القاعـة إنهم رأوا نملة تخرج من فمها . . ووقعت على الأرض منسلة إلى حيث لايدرون . . . غير أن الباقين نظروا إلى ذلـك التعليل على أنه خرافة . . فى حين قال الأطباء إن الأميرة روميرا ماتت من شدة الفرح . . !

وزفرت « فتيبا» زفرة النجاة . . !

غير أن « صومـا» انطلقت إلى الملـك عندمـا لمحت بـريق الفـرح فى عينى « الأمير » وهمست إليه :

ـ أيها الملك . . يا ابن أخى . . إن هـذه إرادة الإله « ويندى» فلاتحزن . ولاينسينك حزن الساعة عـزمك على أن يكون صديقك الأمير وليا لعهدك . . فلننتهـز هذه الفرصة ونحتفل بزواجه من ابنتك الثانية « روهارا» . . .

وأحسـت « فتيبا» كأنـه الطـوفـان . . وبدت كمحكـوم عليـه بـالموت يسمع قـرار إعدامه . وانتبهت خلال رعبها إلى صوت النملـة تهمس إليها أن تتسلل قرب الباب . . فراحت تحرك خطواتها إلى الخلف فى بطء لايكاد يستطيع ملاحظته أحد . . .

وسكتت « صومـا » فجأة . . ورفعت سبابتهـا تأمر بالصمـت ، وراحت تصغى إلى ضجة خفية أحدثتها أصوات كأنها مناشير دقيقة تقرض شيئا غير معروف . . .

واستمرت « فتيبا » تتراجع ناحية الباب فى بـطء غير أنها اضطرت إلى التوقف عندما صرخ الملك وهو ينهض من مكانه ويهتف :

ـ إنه صوت إعصار . . !

وقال آخر من الحاضرين :

ـ إنه الإله « ويندى » يريد شق الأرض . . !

وهتف ثالث :

ـ إنه « ويندى » يقتلع جميع الغابات من الناحية المقابلة للبحر العظيم .

وفجأة . . صرخت صوما :

ـ أوقفوا الشيطانة . . أوقفوها . . .

وأخذت تجرى وهـى تمد يدها المعقـوفة لتمسك بفتيبا التـى كانت فى تلـك اللحظة تخطو الخطوة الأخيرة لاجتياز باب القاعة . . .

وفى تلك اللحظـة نفسها . . صرخ الملـك فى رعب . . كما صرخ كـل الحاضرين فى القاعة . . فقد كانت القاعة كلها تنهار بالجميع . .

وبرغـم ذلك . . وثبت « فتيبا» إلى الخارج وراحـت تجرى فى قوة وعنـف . . والنملة تهديها إلى أسرع الطرق وأشـدها قصرا . . وتجتاز بها الحفـر والتلال والقنوات . وعنـدما ظنت « فتيبا» أنها قـد نجحت فى الهروب ، وكادت تقـف لاهثة . . سمعت مـن ورائها صوتـا ساخرا يضحك ويقهقـه . . لقد كانت صـوما . . التى اجتازت البـاب فى نفس اللحظة التـى اجتازته فيهـا فتيبا . . وقبل أن ينهار البلاط كلـه على من فيه ، إذ كـانت النمال قد قرضت عمد القاعة فى الوقت المناسب ليتاح للأميرة الهروب . . .

لم تهتم « صوما» بـانهيار القاعة على من فيها . . إذ كان كل همهـا أن تنتقم من الفتاة الجميلة . . التى خدعت الجميع بمظهر الرجال . . .

واستمرت « صوما » تجرى خلفها وتصيح :

ـ لاتسرع يابنى فتدق عنقك . . لماذا تهرب منى أيها الشقى . . إننى أحبك كثيرا . . ولو كنت أنا فتاة أيها الأمير الجميل لما زوجتك « روميرا » ولا « روهارا » . بل لأخذتك لنفسى . . ! ألا تريد أن تسمع . . ؟! ألا تريد أن تشكرنى أيها الفتى الجميل . . ؟! توقف يابنى . . توقف . .

وكانت « فتيما » قد فقدت كل مابها من قوة . . وبدأت تنهار . . . ولم تعد تستطيع أن تجرى بعد . . غير أن النملة راحت تشجعها وتثير فيها القوة وتهتف فى أذنها أنه لم يعد سوى خطوات لتصل إلى الفرس وتركبها وتطير . . .

وعادت فتيما تستجمع مابقى بها من قوة لتجرى . . . حتى بلغت آخر الأمر مربط الفرس . . فقفزت فوقها . . وأمسكت بعرفها . . واستوت على سرجها فى أمل . . . وخوف . . !

ومع ذلك فقد كانت « صوما » العجوز لاتزال تركض وراءها ويداها المعقوفتان مبسوطتان إلى الأمام . . . وصاحت بصوت حاد :

ـ أيتها الشياطين . . قفوها . . قفوا هذا الولد القاسى الهارب من أمه . . .

فقالت « فتيما » وهى تهذى ذعرا :

ـ أمى . . أمى . . أمى . . أواه . . اقتليها أيتها النمال . . اقتلى أمى !

ولم تكد « فتيما » تنتهى من كلماتها المذعورة . . حتى لمحت جسد العجوز يتساقط وينهار على الأرض . . ومن حوله ملايين النمال تقرضها وتنهشها . . !

وبدأ الجسد يتلاشى شيئا فشيئا . . حتى اختفى . . !

وفى تلك اللحظة نفسها . . وجدت الفرس قوائمها ترتفع عن الأرض . . وبدأت تطير . . فى الهواء . . . !

ولم يدر أحد كم من الزمن ظلت تطير . .

غير أن الناس ـ فى مملكة الغرب ـ ظلوا يتحدثون عن فتيما . . ابنة الملك . . التى رفعها الإله « ويندى » إلى السماء وتزوجها . . ثم أعادها بعد أيام على ظهر فرس عجوز . . ليجعل منها زوجة الإله على ظهر الأرض . . . ؟!

أسطورة إفريقية

الكـــــذاب

تصور أساطير الزنوج دائما ألوانا من المكر والدهاء والبراعة فى التخلص من المآزق . . جبلتهم عليها مجاهل الغابات والأحراش التى تدفعهم إلى ابتكار السبل لاجتياز ما يواجههم خلال حياتهم من صعاب وعقبات . . ومع ذلك فلا تكاد أسطورة واحدة تخلو من القيم الأخلاقية التى تميز أسلوب الحياة كما يراه البيض من أسلوب الحياة الذى يراه السود . .

كان كل ماتركه وراءه عندما مات . . زوجته وابنه . . وحصانه الصغير. غير أن الحصان كان له شأن يفوق ما للزوجة والابن . . فهو يأكل ، وهما يجوعان . . وهو يسمن ، وهما يهزلان . ولم يكن أحد على ظهر الأرض مسئولا عن الحالين . . فالعشب والأوراق والحشائش لاتشترى ولا تكلف سوى المضغ ، فى حين أن الخبز يشرى ويباع . . والفقر يتحكم دائما فى طريقة التعامل به فى الحالتين . . .

وقالت الأم لابنها الهزيل سامبا ذات يوم وهى تتأمل حصانها السمين :

ـ وماذا بعد ياولدى؟ ما الذى يحل بنا إذا فقدنا ذلك الشىء العزيز . . ؟ بل ما الذى نجنيه من ورائه وهو لايزال حدثا صغيرا بعد . . ! ؟

وهز الفتى كتفيه وهو يفكر ثم قال :

ـ سينفعنا نفعاً كبيراً يا أمى . . وسيقدم لنا أجل الخدمات . . !

وهتفت الأم الجائعة :

ـ كيف يستطيع أن يخدمنا وهو عاجز عن أن يجر حتى عربة . . ! ؟

قال الفتى :

ـ عندما يقول سامبا . . فكلامه صدق . وليس عليك الآن إلا أن تعطينى قطعة الذهب التى وصلتك من والديك لتصنعى منها قرطا . . أنا لن أبيعها بل سأعيدها إليك كما هى تماما . . . ولكنها ستكون قبل ذلك وسيلتى للحصول على الغنى والمال .

ووضعت الأم فى يد ولدها قطعة الذهب . . وهى تستحلفه أن يحافظ عليها ويهتم بها . . فهى كل ثروتها فى ذلك العالم الكبير . . .

ونهض « سامبا» فوضع قطعة الذهب فى جيبه . . وقاد حصانه إلى مكان فى مدخل المدينة اعتاد الملك أن يجتازه خلال رحلة صيده كل يوم . وهناك ، ربط « سامبا» الحصان إلى وتد ، وراح يمسح جسده فى اهتمام ، ويدلكه فى عناية ، ويعمل المشط باحترام فى عرفه وذنبه وركبتيه . . !

وخلال ذلك كله كانت نظراته لاترتد عن الطريق قط . . حتى إذا ما ظهر موكب صيد الملك من بعيد ، ابتسم « سامبا» وهو يعتدل ، وراح يضاعف اهتمامه بالحصان ويصقل حوافره ، ويعامله كأحسن مايعامل خير الجياد .

واقترب الملك وأطل نحوه . وعندما شهد ذلك الاهتمام توقف عنده وهو يقول :

ـ إن حصانك يلقى عناية عجيبة . . !

وأجاب « سامبا» وهو يصعد بصره فى فرس الملك وكأنه يستصغر شأنه :

ـ إنه لأهل لذلك يا مولاى . . فان له لميزة تجعلنى أرفض أن استبدل به خزائن الملك والعرش معا . . !

وحملق الملك فى عجب إلى الفتى وقال :

ـ ماهى تلك الميزة العجيبة يابنى !؟

ـ إن روثه من ذهب يامولاى . . !!

وغضب الملك وقد رآه يسخر منه . . غير أن الفتى أشار إلى كومة من الروث كان قد وضع فيها قطعة الذهب التى أخذها من أمه . . وقال :

ـ انظر بنفسك يامولاى . . فهذا من روثه الآن . ولا أظن الروث يخلو من الذهب وإن كان ذلك يتصل إلى حد كبير بالطعام الذى تناوله .

وأمر الملك عبيده بالبحث عن الذهب فى روث الحصان . فلم تكد تمضى لحظة حتى مد أحد العبيد يده إلى الملك وبين أصابعه قطعة صغيرة من الذهب . .

قال سامبا مبتهجا :

ـ انظر أيها الملك . . ها هو ذا الذهب فى روث حصانى . . !

وكان الملك قد تناول قطعة الذهب فتأملها ، ثم أخذ يعرضها على رجال بلاطه وقد آمن بصدق الفتى وقال له :

ـ أجل . . إنك لصادق . . وإنه لذهب خالص براق . . فبكم تبيعنى ذلك الحصان أيها الفتى . . !؟

وأحنى الفتى رأسه خاشعة وهو يقول :

ـ لا أستطيع أن أبيعه أحدا أيها الملك . . فهو عزيز على . . ولكن . . ولكنى لا أستطيع أيضا أن أعصى أمرك يا مولاى . . فأنا أرضى ثمنا له عشرة ثيران وخمس بقرات . . . !

ولم يساوم الملك . . فقد كان كل همه أن يحصل على الحصان الذى يخرج من بطنه كنز الذهب .

وعندما عاد « سامبا » إلى بيته فى المساء ، كان يسوق أمامه خمس بقرات وعشرة ثيران .

أما الملك . . فقد أمر بالحصان الثمين فأرسل إلى أجمل حظائره ، وقدم له خير الطعام ، وراح ينتظر فى شوق ولهفة قدوم الصباح . . .

ومع مطلع الشمس نهض الملك ليشهد بنفسه الذهب الذى فى روث الحصان . . ولكن العبيد لم يجدوا شيئا فى الروث على الإطلاق .

ولم يشك الملك فى الأمر . . فقد خطر له أن تغيير طعام الحصان جعل أمعاءه عاجزة عن الإتيان بالثمرة المرجوة إلا بعد أن تعتاده . . وقرر أن ينتظر أياما أخر . . .

غير أن الأيام مرت ، ومن خلفها الأسابيع . . وروث المهر لايتغير . ولا يخرج منه الذهب . . !

واستبد الغضب بالملك . . وأمر بالقبض على « سامبا » وإحضاره بين يديه .

وأحس « سامبا » الخطر . . وقبل أن يمضى مع الجنود ، ذبح ثورا وأخذ دمه فوضعه فى كيس صغير من الجلد ، دفعه إلى أمه ، وطلب منها أن تعلقه على صدرها تحت الثياب . . وهمس فى أذنها بما تقوله وتفعله عندما تذهب معه وتمثل بين يدى الملك . . !

ووقف الفتى يرتعد والملك يصب عليه جام غضبه ، ويصفه بأنه كاذب شرير . .

واشتركت الأم فى لوم ولدها . . . وهى تقول :

ـ صدقت أيها الملك . . إن ولدى كاذب شرير لايحترم أحدا . وهو جدير بأن يلقى فى سجن مظلم ، أو يسلم إلى الجلاد حتى يعرف أقدار الناس . . !

وصاح « سامبا » متظاهرا بالغضب :

ـ أهكذا تدافعين عن ابنك أيتها الأم الملعونة . !؟ إن لسانك لأحق بأن يقطع ويخرس حتى لاتطلبى لولدك الموت . .

وبكت الأم وهى تقول :

ـ أنا يقطع لسانى أيها الولد . . !؟ لقد فقت أباك الذى لم يستطع أن يلزمنى الصمت ويخرسنى . وتريـد أنت أن تقطع لسانى وتخرسنى . . !؟ أواه أيها الملـك . . أرأيت مدى الشر الذى تمتلىء به نفسه؟

وضرب « سامبا» رأسه بيديه وكأنه عجز عن أن يملك نفسه وصرخ :

ـ اسكتى أيتهـا الشريرة . . أتجرئين على اتهام ابنك ومهاجمتـه . . ؟ ألا فلتحل عليك اللعنة . . !

قالت الأم وهى ترفع قبضتها مهددة :

ـ وعليك أولا ياسامبا . ليكن ملعونا ذلـك اليوم الذى خرجت فيه من بطنى ورأيت النور . ليكـن ملعونا ذلـك اليوم الذى أرضعتـك فيه ولم أخلص العـالم من شرك . . ألا ليتنى مـاولدتك وما أرضعتـك . . إذن لما شتمتنى وصرخت فى وجهـى وطلبت أن تحل علىّ اللعنة . . !

وبدا على « سـامبا» كأنه قـد فقد زمام نفسـه . . وصرخ وهو ينقض على أمه شـاهرا خنجره !

ـ فلتذهبى إلى جهنم يا مجرمة . . !

وقبل أن يتمكن أحد من الاقتراب ، كان الفتى قد غرس خنجره فى صدر أمه . . !

وانبثق الـدم قانيـا من صدر الأم . . أو على الأصـح من الكيـس المملوء بـالدم . . والذى شقه الفتى فى براعة وهو يبدو كأنه قد طعن أمه .

ولقد كـانت الأم هـى الأخرى بارعـة . . فقد أتقنـت تمثيل الـدور ، واستلقت على الأرض كجثة هامدة . . والدم يغمر ثيابها ويسيل كأنه ينبثق من شريان . . !

وصاح الملك فى غضب وذعر :

ـ سـأقتلك أيها القاتل الشقـى . . يامن طفح كيـل إجرامك حتى قتلـت أمك . إن انتقامـى سيحل بـك مرتين . . مرة للجـرم الذى صنعت معـى . . ومرة للجـرم الذى صنعت مع أمك . . !

وأغمض « سـامبا» عينيـه ، ثم فتحهما وهـو يهز رأسه فى عنـف وكأنـه يوقظهـا من كابوس . وأطل أمامه وكأنه ينكر الجثة الملقاة تحت قدميه . . ثم حملق فى الخنجر الذى لايزال يلوث يـديه . . ثـم بدا كأنه قـد أدرك أنه قتل أمه وهو غافـل عن نفسه . . وراح يبكى . . !

وفجأة ، سكت سامبا . . ثم نظر إلى الملك فى هدوء وقال :

ـ لا عليك أيها الملك . . ويجب ألا يحزنك الأمر . . ولتكف نفسك عناء الانتقام . . فأنا أستطيع أن أجعل الجريمة كأنها ماوقعت قط . . إذ إننى أعرف سر إحياء الموتى . . أصدر الأمر إلى حرسك أيها الملك أن يبعدوا أيديهم عنى . . ودعونى أعمل فى هدوء وفق هواى . . وسترى أن هذه الجثة الهامدة أمامك سترتد إليها الحياة فى لحظات . . !

وفتح الملك عينيه فى ذهول . . فى حين راح الفتى يصرخ فى رجال البلاط :

ـ مالكم واجمون . . !؟ ائتونى بإناء ماء صاف . . وسترون كيف أعيد إليها الحياة . . !

وأومأ الملك إلى الحرس فأتوا إليه بإناء ماء . وحدق سامبا فى الإناء كأنه يتأكد من صفائه ، ثم انتزع من تحت كمه ذيل الثور الذى ذبحه منذ ساعات ، وغمسه فى الماء ثلاث مرات . . ثم نضح صدر الميتة ورأسها وقدميها . وهنا فقط تحرك الجسد الميت ، وفتحت المرأة عينيها وكأنها تفيق من نوم عميق . .

وأحاط الجميع بالمرأة ، وراحوا يتحسسونها بأيديهم ليستوثقوا من أنها حية حقا . ودهش الملك وقال لسامبا :

ـ أعطنى ذيل الثور الذى تحيى به الموتى . . فأعفو عنك!

ولكن سامبا أجاب الملك :

ـ لا أستطيع التخلى عنه يامولاى . . وما أغلى ثمنه! ومع ذلك فأنا أخشى لو تخليت لك عنه مقابل ثمن غال ، أن يفقد قيمته بين يديك كما فقد روث الحصان قيمته عندما بعتك إياه . . . !

قال له الملك :

ـ لا شأن لك بذلك . . بعنى الذيل أعطك الثمن الذى تريد ، ولو كان قطيعا من أربعمائة ثور ومائتى بقرة . . !

وأحنى « سامبا » رأسه وقال فى استسلام :

ـ ليكن ماتريد يا مولاى . . إن ثمنه لايقل عما عرضته . . فأصدر أمرك إلى عبيدك بتسليمى القطيع أعطك الذيل العجيب . . !

وتمت الصفقة . . .

وبينما كان « سامبا» يسوق القطيع ومعه أمه إلى بيتهما، كان الملك قد بدأ يجرب سحر الذيل فى إحياء الموتى.

أمر الملك أحد الضباط بالاقتراب منه، ثم طعنه بسيفه فى صدره تماما كما طعن «سامبا» صدر أمه. وطلب إناء به ماء صاف فأحضر إليه، وغمس ذيل الثور فى الماء ثلاث مرات، ثم نضح به صدر الميت ورأسه وقدميه. . .

ولكن الحياة لم تعد إلى الجثة قط. .

وأمر الملك بطائفة من الأسرى يعيد عليها التجربة، ولكن الأسرى المساكين لم يعودوا أبدا إلى الحياة. .

وجن جنون الملك. . وعرف أن « سامبا» قد سخر منه. . !

وأصدر أوامره بأن يساق الفتى الكذاب إليه، بعد أن ينقض عليه الحرس ويضعوه فى جلد ثور يخيطونه عليه بشدة. .

وعندما عاد الحراس إلى الملك وهم يحملون جلد الثور، وبداخله الفتى يصرخ، رفسه الملك برجله فى جنبه وهو يقول:

ــ والآن لا عفو عنك أبدا. . وستعرف عندما تلقى فى البحر أن الكذب لن يغنيك. . وعندما تتعلم وسيلة أخرى فى العالم الآخر وتتقنها، فعد إلينا لنتعلمها منك!

وأمر الملك عبيده أن يحملوا الكيس ويلقوا به فى البحر وهم فى طريقهم إلى العمل.

وحمل العبيد الكيس الثقيل ومضوا ينفذون أمر الملك. . وبينما هم فى الطريق، والحمل ثقيل، والشمس محرقة، والجو لافح، توقف أحد العبيد يمسح العرق، واقترح على زملائه أن يضعوا الحمل الثقيل ويمضوا إلى العمل، ثم يعودوا إليه وقد خفت الحرارة قبل الغروب، فيلقوا به فى البحر. .

وكان الجهد والحر قد أقنعا زملاءه قبل أن يحاول هو إقناعهم. . فوضعوا الكيس على حافة الطريق ومضوا إلى الحقل البعيد. . !

أما سامبا. . فبعد أن كاد يختنق داخل الكيس، امتلأ من جديد أملا فى أن يعيش. فقد كان لايزال أمامه وقت طويل يمتد حتى الغروب. . !

وراح « سامبا» يتسمع لعل أحدا يمر. . غير أن الوقت راح يمضى. . . ولا أحد يمر بالطريق قط. . !

وأخذت الشمس تميل نحو الغروب، ولا أحد يقترب . . والأمل فى قلب « سامبا» يتحول إلى يأس مرير.

وفجأة، أصاخ « سامبا» السمع . . لقد كان هناك من يسير فى الطريق، بطىء الخطو يتمتم فى تثاقل .

ولقد كان على حق . فقد كان هناك عجوز زاهد يسير فى الطريق يتمتم بصلواته ويتلوها فى بطء .

وبدأ « سامبا» يقوم بدوره . . وكان الدور يقضى أن يتصنع أصواتا كثيرة مختلفة . . تتشاجر وتتعارك .

وسكّت الأصوات سمع الشيخ فوقف ينصت . . ولا يدرى من أين تصدر الأصوات المتعاركة المتباينة .

ـ تعال معنا . . كيف تريد أن تهرب؟

ـ لا . . لا آتى معكم . . اتركونى . .

ـ كيف لاتريد أن تذهب معنا . . إننا لانستطيع أن نذهب إلى الجنة بدونك . . !

ـ ولكنى لا أريد أن أذهب معكم . . إن أمامى أعمالا كثيرة فوق الأرض يجب أن انتهى من إنجازها .

ـ أترفض أيها الأحمق الذهاب إلى الجنة حيث تنتظرك السعادة الأبدية ؟ من أجل أعمال ضئيلة حقيرة يستطيع غيرك إنجازها .

ـ لا أريد السعادة . . ولكن أريد أن أظل على الأرض .

ـ اتبعنا أيها الجاهل ولاتضطرنا إلى إسعادك بالقوة . . إن الجنة تنتظرك والأبواب مفتوحة لاستقبالك . .

ـ لاأستطيع أن أذهب معكم، فثيرانى فى حاجة لرعايتى .

ـ أيها المسكين . . أترفض الجنة من أجل بضعة ثيران حقيرة . . ؟ فكر يابنى وسندعك لحظات . . ثم نعود إليك وقد استقر رأيك . . !

وكان الشيخ الزاهد يستمع إلى المناقشة فى استغراب وذهول ، ويعجب من الرجل الذى يرفض الذهاب إلى الجنة مع من يريدون أخذه إليها . . واقترب من الكيس الذى يصدر منه الصوت وسأل :

ـ من هناك . . !؟

سمع الصوت يجيبه :

ـ أنا سامبا الفلاح . . يريد الملائكـة أن يأخذونى بالقوة إلى الجنة . . ويجبرونى على أن أترك ثيرانى المسكينة التى لا أستطيع أن أتركها وحيدة . .

قال الزاهد :

ـ لاتذهب فى عنادك إلى هذا المدى يابنـى . . فتغضب الملائكة وتأبى أن تعود إليك وتأخذك إلى الجنة .

ولكن الصوت عاد يقول له :

ـ لايهمنى عـادت الملائكة أو لم تعد . فليذهـب معها أى إنسان آخر. . أمـا أنا فلا أريد الذهاب إلى الجنة الآن أبدا . .

وهز الزاهد رأسه وهو يقول :

ـ وحق السماء لولا أننى مكلف بأن أحمل ذلك الصنـدوق المملوء بالذهب هدية من قريتى إلى كبير الزهاد فى المدينة . . لذهبت بدلا منك .

قال له الصوت :

ـ أيها الزاهد الصالح ، إذا كان عبء الصندوق وحده هو الذى يمنعك ، فأنا أحمله عنك وأسلمه إلى صاحبـه بنفسى وأنا فى طريقى إلى قريتى . . وأنا كفيـل بعد ذلك بأن استرضى الملائكة لتعود إلى بعد أن أتم واجبى نحو ثيرانى وبقراتى العزيزات . . !

وفرح الزاهد وهو يقول :

ـ مادمت تطوعت يابنى بحمل الصندوق وإرساله إلى صاحبه، فلا بأس عندى من أن أحل محلك وأذهب بدلا منك فى الرحلـة الجميلة إلى الجنة . ولكن كيف الوصول إلى المكان الذى أنت فيه . . !؟

قال له سامبا :

ــ إن الأمر سهـل . . يكفـى أن تقطع بسكينـك الخيط الـذى يضـم أطراف جلـد الثـور . ولكـن حـذار مـن أن تغمـد شفـرة السكين أكثـر مـن الـلازم فتجـرح أحـد الملائكة . . !

ومد الـزاهد سكينه وأخـذ يقطع بها الخيط فى عنـاية وحـذر ، ووثب « سامبـا» من داخل جلد الثور فى فرح كبير وهو يقول للشيخ :

ــ والآن ادخل أنت فى الكيس ولأخيطه أنا عليك . وانتظر حتى تعود الملائكة تحملك . ولكن عليك أن تشهر السكين فى يدك . ومتى شعرت بالبرودة تتسرب إليك ، فشق الكيس تجد نفسك فى داخل الجنة . . !

وشكر الزاهد « سامبا » لتنازله له عن رحلة الجنة . . وسلمه صندوق الذهب ، ثم دخل فى جلد الثور حيث خاطه « سامبا » عليه ، ثم مضى فى طريقه فرحا يقفز ويرقص .

أما الزاهد فقد ظل ينتظر حضور الملائكة لحمله . وفى قلبه خوف من أن يكتشفوا أمره ويعرفوا أنه ليس الشخص الذى كانوا يحملون . وانقضت ساعة سمع بعدها همهمة وكلاما ، فراح يستعد للحظة التى قد يكتشفونه فيها ، ولكن الفرحة ملأته عندما شعر أن الكيس يرتفع به . . فقد أدرك أن الملائكة لم يكشفوه . . وأنه الآن فى طريقه إلى الجنة . . !

وشعر الزاهد أن الطريق الذى يسير فيه الملائكة طويل . . فأشفق عليهم . وعندما توقفوا عرف أنه قد وصل إلى المكان المعهود . . وبدأ الكيس يهتز من جديد إلى أمام وإلى خلف عدة مرات . . ثم شعر الزاهد بأنه يطير . . .

وأحس صدمة قوية . . شعر بعدها بالبرودة . . . وتذكر الزاهد نصيحة سامبا ، فمد السكين وشق به الكيس ليهبط إلى الجنة . . .

وما كاد يفعل ، حتى وجد نفسه محاطا بالماء من كل جانب . . فراح يسبح ويسبح . . ولولا أنه ظل يسبح بقوة نحو الشاطئ لبلغ فعلا أبواب السماء . !!

* * *

فى ذلك الوقت كان « سامبا » قد بلغ المدينة . . وصندوق الذهب لايزال فى يده . واختبأ الفتى خلف شجرة حتى مر به عبيد الملك عائدين من العمل . . وعندئذ ظهر سامبا ، وسار فى طريقه ببطء ليبلغ القصر بعد عودة العبيد بوقت يكون كافيا ليبلغوا الملك خلاله بنجاح مهمتهم . . !

وبينما كان الملك مستلقيا على عرشه مغتبطا بنجاحه فى الانتقام من الفتى الكذاب بإلقائه فى البحر . . فوجىء به هو نفسه يقف فوق رأسه . . .

وصرخ الملك فى ذعر . . وامتلأ القصر بالعبيد والحراس . . بل بكل أهل المدينة بعد أن بلغهم نبأ ذلك العائد من الموت . . وبين أهل المدينة كانت أمه تقف فى ذهول ، وتحاول الاقتراب منه .

وصرخ « سامبا» يمنع أمه وقال لها :

ـ ابتعدى يا أماه . . لاتلمسينى . . فجسدى تغطيه ذرات الكواكب التى كنت أسير بينها منذ قليل . إن كل من يلمسنى يشتعل كالنار قبل أن تنقضى ساعات . ولابد أن يمضى بعض الوقت قبل أن تسقط ذرات الكواكب الملتصقة بى . . .

والتفت الملك إلى العبيد وصرخ فيهم فى غيظ :

ـ أيها العبيد المجرمون . . الموت لكم جميعا نظير كذبكم على وادعائكم أنكم ألقيتموه فى البحر . .

وسجد العبيد أمام الملك وهم يقسمون أنهم قد ألقوه فى البحر .

وتكلم سامبا مخاطبا الملك فى هدوء :

ـ إنهم صادقون يامولاى . . وأنا عائد الآن من العالم الآخر طوع أمرك . . أنسيت أنك طلبت منى أن أعود عندما أتعلم شيئا جديدا هناك لأعلمك إياه . .

وبهت الجميع وسكتوا . . خاصة عندما كشف لهم « سامبا» غطاء صندوق الذهب . . وراح يقول :

ـ عندما ولجت باب السماء ، أحاطت بى ملائكة طويلة الشعر ترتدى أشعة الشمس ، وتبرز من ظهورها أجنحة تلمع كأجنحة الفراشات . وراحت الملائكة تنشد لى الأناشيد وتقدم كل واحدة منها لى هدية . . فهذه تقدم لى ماسا ، وأخرى تقدم ياقوتا ، وثالثة تقدم ذهبا وفضة وقلائد وأساور . . ولكنى رفضتها جميعا ، إلا ذلك الصندوق المملوء بالذهب ، حتى لا أثقل كاهلى بحملها جميعا عندما أعود إلى الملك سريعا كما طلب منى ، لأخبره بوسيلة الوصول إلى الغنى والثروة . إن ما تعلمته هو أن الغنى فى السماء أسهل منه على ظهر الأرض . . وكم أسفت إذ لم تكن معى عربة أستطيع أن أحمل فيها كل تلك الهدايا الكريمة التى قدمت لى . . غير أنى سأعود مرة أخرى ، وسآخذ معى كيسا كبيرا أضع فيه كل الهدايا التى قدمها لى الملائكة ووضعوها عند باب الجنة حتى أعود . . !

وقال له الملك وهو لايزال مذهولا :

ـ ولكن كيف لم تمت . . وكل امرىء أغرقناه من قبل مات ولم يعد . . !؟

وأجاب سامبا مبتسما :

ـ ذلك لأنـك وضعتنى فى جلد ثور . . والثور مقدس كما تعلـم فهو يمنع الموت أن يخطفنا . . والدليل على ذلك هو أننى لا أزال حيا بين يديك . . !

وفجأة ، اندفع مـن أقصى القاعة أحد ضباط الحرس ، وسجـد أمام الملك فى سرعة وهو يتوسل :

ـ مولاى . . أرجو أن تضعنى فى جلد ثور لأذهـب إلى الجنة وأعود بالثروات المتروكة على بابها . . فأنا أخشى أن يأخذها « سامبا » إذا ذهب ، ثم يختفى بها بعيدا عنا . . !

وفى الحال . . أخذ الضباط الآخرون يتقدمون من الملك وهم يتوسلون :

ـ ونحن أيضا . . ونحن أيضا أيها الملك . .

وهتف فيهم الملك فى قسوة وعنف :

ـ أتـريدون الـذهاب لتثروا ، وأظـل أنا فقيرا . . !؟ إن هذا لـن يكون ، فلنسلـخ من الثيران مايكفينا جميعا ، ولنذهب كلنا إلى الجنة ، ونَعُدْ بهدايا الملائكة . . !

وصفق الجميع للملك . . .

وفى ذلك اليوم . . ذبح أكثر من ألف ثور . كـان كل ضابط يسعى لأن يضع نفسه داخل الجلد المقدس . . ويلقى فى البحر . . ليذهب إلى الجنة . !!

وذعر « سامبا » عنـدما وجد أن كذبته ستؤدى إلى غـرق عدد كبير . فحاول منعهم وأخذ يصرخ فيهـم أنه كان يكـذب . . غير أن الجميع لم يصدقـوه ، وظنوا أنه يـريد أن يمنعهم لينفرد هو بالذهاب إلى الجنة والحصول على الكنوز وحده . . .

ودخل الملـك فى جلد ثـور . . كما دخل كـل ضباط البـلاط فى جلود الثيران التـى ذبحوها . . ووضعت الأكياس المتكدسة على العربات واتجهت إلى البحر.

وراح « سامبا » يجرى بين العربـات ويتوسل إلى كل من دخلوا الأكيـاس أن يصدقوه . . غير أن الملك من داخل كيسه ، أصدر أمره إليه بالابتعاد وهو يصرخ :

ـ اسكـت أيها الكذاب . . هـأنتـذا تكـذب الآن أيضـا لتمنعنا مـن الحصـول على الثروة . . اقتلوه أيها العبيد إذا اقترب منا مرة أخرى . وسأعرف أنا كيف أربيه وأرد صوابه عندما أعود . . !

وأوقف العبيد سامبا . . واستمرت العربات فى الطريق إلى البحر. .

وهز سامبا كتفيه . . وانتظر بعيدا حتى ألقيت كل الأكياس فى البحر. ثم أومأ إلى كل الشعب أن يتبعوه . .

وعاد الجميع إلى المدينة . . وفى خلال الأيام التى تلت ذلك ، كان « سامبا » قد أقنع الناس أن بالجنة من الحور والمسرات ما أطمع الملك وضباطه بالبقاء هناك . . وأنهم لن يعودوا مرة أخرى أبدا . . !

واقتنع الناس . . وبايعوا سامبا الكذاب ليجلس على العرش . .

ويروى التاريخ أنه لم يعرف منذ ذلك الوقت أصدق منه ملكا قط . . !

أسطورة آشورية
سميراميس

اختلف المؤرخون فى حقيقة سميراميس، فقال بعضهم إن وجودها خرافة . ويؤكد آخرون أن الأعمال التى تنسب إليها متداخلة فى تاريخ الآشوريين والبابليين الذين عاشوا على نهرى دجلة والفرات . . أما المنقبون عن الآثار فيرون أن سميراميس إلهة أسطورية شرقية . . هى عندهم كفينوس عند الرومان . . وأن اسمها، ومعناه حمامة ، إنما أطلق عليها لأن الحمائم احتضنتها عند مولدها وغذتها وهم يرونها رمز الحب والسعادة، وفرح الرجال، والظفر فى الحرب . . كما يعتبرونها وسيطا أسمى بين مبدأى الخير والشر على ظهر الأرض . . !

انسابت سيول طاغية ذات يوم على منابع نهر الفرات فى جبال أرمينيا ، ففاض النهر، وتدفقت مياهه ، وخرجت الأسماك تستلقى وتتمدد على أديم الأرض . . .

وبين تلك الأسماك ، كانت هناك سمكتان كبيرتان شهدتا بيضة كبيرة طافية على وجه الماء ، فسبحتا إليها ، ودفعتاها أمامهما إلى الضفة . . . وإذا حمامة بيضاء تهبط من السماء وتحتضن البيضة ، ثم ظلت تحميها حتى تراجع ماء الفيضان عائدا إلى مجرى النهر . . .

واستمرت الحمامة تحتضن البيضة حتى فقست . ومن داخل البيضة خرجت الربة «ديركيتو» بوجه امرأة . . وجسم سمكة . . . !

وأعجب الإله الأعظم بالربة الصغيرة ، بعد أن كبرت وملأت الآفاق بعدلها وفضلها وحكمتها ، وتمثل إعجاب الإله فى وعد قدمه إليها بأن تطلب منه أى شىء تريد . ولم تدع «ديركيتو» الفرصة تضيع . . فسألته أن يخلد السمكتين اللتين أنقذتاها من الطوفان . . فرفعهما الإله الأكبر إلى السماء . . وجعلهما ألمع نجمتين فى برج الحوت . . !

ورغبت الربة « ديركيتو» فى أن تحمل . . والربات يحملن ويلدن بغير زواج حسب رغبتهن . . . وحملت الربة ، ثم وضعت طفلة لها جسد إنسان كامل . . يشع من بدنها النور لروعة ما منحته من ألوان الجمال .

وأطلت الربة « ديركيتو» إلى ابنتها . . وملأها الذعر . . وقد أثار رعبها ألا تكون

طفلتها فى شكلها الإلهى . . مما يجعل الربات الأخريات ينظرن إليها بعين الريبة والشك، ويعيرنها، ويتهمنها بما هى منه براء.

وحملت الربة مولودتها ذات ليلة مظلمة إلى البادية . . حيث تركتها هناك عارية مهملة . . ليس حولها من شىء على الإطلاق سوى البرد والريح والزمهرير . . والجوع القاتل . . !

وكان بيلوس . . إله نينوى العظيم . . يطل من عليائه ، فرأى الطفلة المسكينة تلقى فى العراء بغير سلاح أو معين . . فأرسل من السماء رسوله « ينبو» يرعاها ويحميها، ويحمل معه سربا من الحمائم يرف بعضها عليها بأجنحته لترد عنها حر النهار وبرد الليل . وتنطلق الأخريات إلى حيث ينزل الرعاة فتحمل إليها بمناقيرها نقطا من الحليب تقطرها فى فمها لتغذيها وتروى ظمأها . . .

ومع مر الشهور والسنين ، تحولت الحمائم إلى الأمكنة التى يضع فيها الرعاة مايصنعون من جبن ، فتأخذ منه بمقدار ماتسع مناقيرها ، لتقدمه للطفلة التى عاشت مع حمائمها سعيدة لاتعرف قط طعم الشقاء .

وكان الرعاة إذا عادوا فى المساء يرون جبنهم منقورا فيدهشون . ولما ازداد ذلك الأمر وتتابع ، قرروا أن يتركوا واحدا منهم يرقب المكان وهم غائبون . .

وشهد الراعى الحمائم وهى تحط حول الجبن وتلتقط قطعه الصغيرة فتحملها بمناقيرها إلى مكان تطير إليه . وأخبر الرقيب رفاقه فتتبعوا الحمائم حتى وصلوا إلى حيث صبية ذات جمال رائع لم يخلق لغير الآلهة . فأخذوها إلى خيامهم ، واتفقوا على أن يحملوها معهم حيث يبيعونها فى سوق « نينوى» العظيم . . .

وحمل الرعاة الصبية الحسناء إلى نينوى . . وكانوا قد سموها سميراميس . . وهى تعنى الحمامة البيضاء .

واتفق أن كان يوم وصولهم إلى المدينة يوم موسم الزواج الذى يقام كل عام ، حيث تجتمع فى السوق الكبير جموع الشبان والشابات قادمة من كل نواحى المملكة ، لينتقى كل شاب عروسا شابة ، أو ينتقى صبية يحملها إلى داره فيربيها إلى أن تبلغ سن الزواج . . فيتزوجها . . أو يقدمها عروسا لأحد بنيه . . !

وكانت الساحة غاصة بالشيوخ والكهول والشبان ، ودخل الرعاة بالصبية الصغيرة الحسناء إلى حيث يعرضونها للبيع . وبينما هم يضعونها فى أول الصف ، إذ شاهدهم

«سيما» ناظر مرابط خيول الملك . وكان « سيما» عقيما لا ولد له ، فهفا قلبه إلى سميراميس ، ورغب فى تبنيها .

ودعا «سيما» الرعاة وساومهم على ثمنها . وعندما تمت الصفقة حملها إلى منزله ، فما إن رأت زوجته هذه الصبية ذات الجمال الرائع حتى فرحت بها فرحا غامرا ، واعتنت بها المرأة عنايتها بابنتها . . وظلت ترعاها حتى كبرت واستدارت . . وبرزت أنوثتها كأجمل ماتكون النساء . . !

* * *

وذات ربيع ، جاء مينوتس ـ قائد الملك ووزيره ـ إلى مرابط الخيل يتفقدها . وشهد الوزير « سميراميس» الحسناء فراعه جمالها وبهاؤها ، وسحرته عيناها اللتان يشع منهما النور . . ورنت إليه « سميرا ميس» بفتور يحمل الدعوة . فوقف الوزير فى مكانه حائرًا مبهورا . . حتى انتبه إلى نفسه آخر الأمر فدعا الفتاة وسار بها إلى حديقة القصر يتحدث إليها وتتحدث إليه .

وانطلقت « سميراميس» على استحياء تتبع الوزير. وعندما وقف فى بستان القصر اقتربت منه وركعت أمامه على ركبتيها تقدم له كل فروض الاحترام . ومد مينوتس يده فرفعها لتقف أمامه . وأخذ يسألها من تكون . . .

ولم تستطع « سميراميس» أول الأمر أن تجيب . . ثم لم تجد إلا أن تقول له إنها ابنة ناظر المرابط الملكية .

ونادى الوزير على سيما ، ولكن ناظر المرابط لم يستطع أن يكذب كما بدا له أن يفعل أول الأمر . . واضطر أن يقص قصتها كاملة على الوزير . . منذ وجدها الرعاة تحت رعاية الحمائم فى البيداء . . حتى اتخذها ابنة له . . لايطيق فراقا لها أبدا . . !

وأحس الوزير من طريقة الرجل فى الحديث ، أنه لايمانع فى تركها مقابل مبلغ كبير. . فأخرج « صرة» من المال قذف بها إليه . . ثم انطلق بالفتاة فى الطريق إلى العاصمة .

وكان قلب الرجل قد شغف بالفتاة حبا . وعندما بلغا القصر كان أول ما فعله أن سلمها للمزينات والماشطات ، وأخرج لها من خزائنه حليا لايوجد مثلها إلا فى كنوز الملك . وأخذتها نساء القصر إلى الحمام وغسلن بدنها بالماء المعطر، ومشطن شعرها الأسود الطويل وأسدلنه على كتفيها خصلا معقودة بالجواهر. . ثم ألبسنها الأرجوان

الفينيقى الموشى بالذهب، وأخرجنها للوزير كأجمل وأروع ماعرفت « نينوى » من عرائس .

واحتفل « مينوتس» بزواجه احتفالا لم يقمه أحد من قبل . وكان لابد أن يصبح لسميراميس المقام الأول بين محظيات الوزير ونسائه . . حتى لقد كان يلازمها ملازمة الظل ولا يطيق عنها فراقا لحظة . وكأى امرأة، استطاعت سميراميس أن تغذى ذلك الشوق والحب وتستغلهما لتتحكم فى الرجل الذى عبدها، فخضع لرغباتها، واحترم أفكارها، وصار يأخذ بآرائها فى كل مايلم به من أحداث ومهام .

ومرت الأيام ، وسميراميس كل شىء فى حياة الوزير . وكل شىء أيضا فى حياة الجماهير. إلا أن شيئا أكثر من جمالها كان سببا فى تعلق الشعب والوزير بالعروس الإلهية . . هو ذلك النصر الذى استطاعت أن تقدمه للمملكة كلها . . عندما عرفت كيف تسقط أضخم حصن من حصون الأعداء .

كان ذلك يوما خالدا فى تاريخ البلاد . وكان الملك « نينوس» قد انتهى من تشييد عاصمة ملكه، وراح يبحث عن السبيل إلى أمجاد جديدة يحققها لنفسه ولمملكته الواسعة الأطراف . فما مضت أيام حتى كان قد استقر رأيه مع وزيره وقائد جيشه «مينوتس» على تجنيد جيش كبير ضخم، يقتحم به ممالك أخرى مجاورة . ثم لم تمض أيام أخر حتى شهدت نينوى خروج جيش عظيم يخترق شوارعها ويبتعد عنها ليجاوز حدود البلاد نحو الشرق .

كان الجيش ضخما بالغ القوة لاقبل لأحد به على الإطلاق . فلم يكن عجيبا ألا تثبت أمامه بلدة أو جيش . إلا أن الذى أثار « نينوى» وأغضب ملكها، هو أن ذلك الجيش الضخم، وعلى رأسه القائد، والملك نفسه، عجز عن اقتحام عاصمة الأعداء . . « بكتريا» لأيام طويلة ظلت الهجمات تتكسر خلالها على الأسوار المحيطة بالقلعة الشامخة .

وعجب الملك ووزيره أن يقف الجيش دون العاصمة لايستطيع لها اقتحاما . ومع ذلك فقد أبى الملك إلا أن يستمر على حصارها ولو أودى بالجيش كله . ولما طالت غيبة الوزير واشتاق إلى زوجته سميراميس، أرسل إليها يستدعيها لتوافيه فى ميدان القتال .

وحضرت سميراميس . ولم يعرفها رجال الجيش إلا بعد أن تأملوها طويلا . وعرفوا جمالها الأخاذ الوضىء . . فقد كانت ترتدى ملابس الرجال على غير ماكانوا يعهدون . . !

وطلع صباح . . ووقفت « سميراميس» على باب الخيمة تتأمل العاصمة الرائعة التى أنهكت الجيش الذى لم يهزم أبدا . ولاحظت « سميراميس» أن الهجوم كان موجها إلى قسم المدينة القائم فى السهل ، لاضد قلعتها ، مما جعل أهل بكتيريا يحرسون حصونها بقليل من اليقظة . وخطرت لها فكرة . . ألا يمكن أن تنهار مقاومة الأعداء لو هوجمت تلك القلعة الشامخة مباشرة . . وهل يمكن أن تقوم هى نفسها بهذا الهجوم . . !؟

وانطلقت « سميراميس» إلى الخيمة فأيقظت زوجها . ولم تمض لحظات حتى عرفت كيف تقنعه بخطتها التى رسمتها من خلال تأملها القصير لجوانب الموقعة . . !

وانتفضت القلعة بعد ساعة من بزوغ الشمس على هجوم عارم عنيف ، تشنه عليها فرقة قوية من الجنود اختارتهم « سميراميس» بنفسها وتقدمتهم إلى اقتحام القلعة الشامخة .

وانقضت ساعة وبعض الساعة . . وانتبه الملك ، والوزير مينوتس ، والجيش جميعا . . فإذا « سميراميس» واقفة على قمة القلعة تلوح بذراعيها أن تقدموا . . !

وعرف الكل أنه النصر . وأدركوا أن المرأة التى قادت بضعة رجال قد اقتحمت القلعة التى انهارت . . وأن العاصمة قد باتت بين أيديهم . . .

والتفت الملك إلى قائده مينوتس يسأله :

- من تكون هذه المرأة يامينوتس . . !؟

وشعر « مينوتس» بدنو الكارثة . . وأدرك أن « سميراميس» قد راقت فى عينى الملك ، فسكت على رعب كأنه لم يسمع . وكرر الملك السؤال ، ولم يجد القائد بدا من أن يجيب :

- إنها زوجتى يامولاى . . !

وعاد الملك إلى العاصمة . . ودخل قصره . . وتفرق الجند والناس . وأرسل الملك إلى قائده يأمره بدعوة « سميراميس» إليه . ولم يستطع الوزير إلا أن يحنى هامته .

أما سميراميس . . فقد وجدتها فرصة للوصول إلى المجد الذى طالما حلمت به . . وحملت نفسها على محفة يرفعها أربعة من العبيد السود ، وتصاحبها فيها وصيفتان جميلتان . . هذه راكعة وراءها تروح لها ، وتلك ساجدة أمامها تلبى الرغبات . . .

وعندما دخلت على الملك . . . ووقعت عليها عيناه فى اتكاءتها والتفاتها وزينتها وتألق طلعتها . . انهار قلبه فى هوى عربيد . . زادت هى من لهيبه بنظرات كلها دلال وفتور . . لم يدع له مجال الاختيار . . !

وعنـدما صـارا وحـدهما . . اتفق معهـا الملـك على أن تترك زوجهـا . . لتكون لـه وحده .

وعادت « سميراميس » إلى قصر زوجها وفى إثرها رسول الملك يقول لمينوتس :

ـ إن سميرا ميس قد راقت فى عينى الملك ، فهـو يريد أن يراها فى قصره بين محظياته ونسائه ، فـإذا كنت فى حاجـة إلى زوجة تحل مكانها فليس لـدى الملك مايمنعـه من أن يسمح لك بالزواج من ابنته بدلا من سميراميس . . !

وصعق الـوزير لـرسالـة الملك ورغبته التـى لايمكن أن تـرد ، ولبث أمـدا لا يدرى مايفعل . واستدعى « سميراميس » زوجته يسـألها كيف يتخلص من رغبة الملك . . فإذا بها تشير عليه بتلبيتها . . على أن تسعـى هى خلال إقامتها فى البـلاط . . بما أوتيت من فطنة ودهاء . . لعلها تقنع الملك بإعادتها إليه . . !

ونزل القائد عنـد إشارة سميراميس . . وكله حـزن ويأس . . ولكنه ما كـاد يبصرها خارجة من القصر فى محفتها . . حتى اسودت الدنيا كلها فى عينيه . . وانطلق إلى شجرة قائمة فى أقصى المدينة . .

ومن غصـن قوى مـن أغصان الشجـرة العجوز . . تـدلت جثـة لم تجد من يـواريها التراب . . .

وكانت هى جثة الوزير . . الذى حكم على نفسه بالإعدام . . !

* * *

بلغ الخبر « سميراميـس » وهى بعـد لاتزال فى طريقهـا إلى قصر الملك . ولكـن ماذا يعنيها من انتحار رجل ما أحست يوما واحدا أنها تحبه . . أبدا ما أحبته قط . . وما كان ليملأ قلبها سوى حب المجد ، والسلطان ، والسيطرة . . وهى تستطيع أن تجدها جميعا فى قصر نينوس . . . !

وكان القصر ينتظرهاكما لم ينتظر ملكة من قبل أبدا . وعندما دخلته كانت تعلم أنها لن تكـون أولى المحظيات فحسب . . بـل ستكون هـى وحدها الملكـة . . ولامحظيات سواها . .

وكان هذا هو بالضبط ماحدث . . .

فقد عـرفت « سميراميـس » اللعوب كيف تجعـل الملك يكتفـى بها هى وحـدها . . ويطرد محظيات القصر ونساءه كلهن . . كأن الدنيا لم يعد فيها غير سميراميس . . .

ورفعها الملك من محظية إلى ملكة . . .

وولدت له الملكة ولدا سماه إيناس . . .

وظلت الحياة تسير.

* * *

عرفت « سميراميس » كيف تجعل من نفسها كل شيء في قصر الملك . . وعرفت كيف تجعله لايطيق فراقا لها لحظة . . حتى ولو كان خروجا لحرب . . أو لإخماد ثورة فحسب . .

غير أن خروجها معه في كل غزواته ملأها كراهة له واحتقارا . فقد كان يستعمل في حروبه أبشع وأقسى أنواع التنكيل والإرهاب تماما ككل من سبقوه من ملوك بابل وآشور. . فكيف تطيق هي التي رعتها حمامات السلام في البيداء مشاهد الدم المسفوك هنا وهناك . . وفي كل مكان . . !؟

وكان آخر ماشهدته من حروب الملك ، عندما خرج إلى بلاد الطورانيين الثائرين عليه . . فعندما ظفر بأعدائه وفتحت له أبواب مدينتهم ، أمر بسلخ جلود كل الشبان وهم أحياء . . وعلق الجلود على جدران بناها أمام أبواب المدينة الثائرة . ولم يكتف الملك الوحش بكل ذلك . . فقد أمر بقطع رؤوس الثوار . . ونظمها في حبل على شكل عقد ، وحكم على من بقي حيا من الرجال بأن يأكلوا لحوم أبنائهم وبناتهم . . أما من أبى فقد قُطع أنفه وأذناه وشفتاه . . ثم سيق مع الآخرين إلى العاصمة . . ليدخل بهم دخول الغزاة المنتصرين . . !

ولم تطق « سميراميس » كل تلك الفظائع . . وكرهت الرجل الذى عرفت فيه أقسى من وجد على ظهر الأرض . ودفعتها تلك الكراهة - جنبا إلى جنب مع حب الطموح والسيطرة - إلى أن تسعى للتخلص من هذا الزوج . . عن أي طريق . . !

وكانت « سميراميس » تعرف الطريق جيدا . فقد عرفت من قبل كيف تتمنع على الملك لتغريه . . وكيف تقصيه عنها لتشعل في قلبه نار الشوق . . فإذا ماتضاءل أمامها وتحطمت منه الأعصاب . . كان هذا هو الوقت الذى تطلب فيه ماتريد . . وسرعان مايلبي ويجيب . . !

وكان مساء . . وبينما الملك يجلس في مقصورتها وكله شوق ، أخذ يحدثها بأن الوقت قد حان لتطلب ماتريد . . وكان طلبها هو أن يسلمها سلطته كلها لأيام ثلاثة . .

تجلس فيها وحدهـا على العرش . . ويكون لها أثناءها أن تأمر فتطـاع . . ولو كان الأمر صادرا إليه هو نفسه . . !

وابتسم الملك . . ثم ضحك . . ثم كاد يستلقى لطول ماضحك . . ثم قال لها :

ـ لك ماتريدين . . !

وجلست « سميراميس » على عرش نينوى . . تأمر وتنهى وتحكم . . .

وانقضى اليوم الأول بسلام . . .

وطلع صباح اليوم الثـانى من الأيام الثلاثة التى منحهـا لها الملك . . فكان أول أمر أصدرته سميراميس للجنود أن يقبضوا على الملك . . !

وأطـاع الجنـود . . واقتيد نينـوس إلى السجـن أمـام عينيهـا . وعندمـا راح الملـك يستعطفها فى ذلـة وخضوع . . ابتسمت لـه ساخرة . . ثـم انطلق من بين شفتيهـا أمر جديد إلى الجنود . بأن يذبحوه . . !

وأثبتت سميراميس أنها لم تعد بعد ابنة الحمائم . وأنها قد أصبحت ـ فى بابل وآشور ـ أكثر قسوة من كل طغاة بابل وآشور . . !

وعلـم الشعب بما صنعتـه الملكة . . فهـاج . . وتـألبت الجماهير زاحفـة إلى القصر تهتف بالثأر ، وتطالب برأس الملكة . . .

وتلقت سميراميس نبأ الثـورة وهى فى الحمام . . فلم تذعر . . ولم تأخـذها رعدة . بل خرجت من الحمام نصف عارية . . فى شعر منفوش . . وغدائر تنسدل على كتفيها كريش الطاووس . . وأطلت من شرفة القصر . . !

وتحول الصخب فجأة إلى همس خافت ، وصمت الضجيج ثم أخذ يتحول بعد ذلك إلى عبادة وصلاة للملكة القاتلة . . !

وسجد الجميع . . ثم تفرقوا . . وقد أصبحت الملكة فى مقام الآلهة . . .

ومنـذ ذلك اليـوم . . جلست سميراميـس وحدهـا على عرش آشـور ، تحكم دولـة مترامية الأطراف . . وتقود الشعب كل يوم إلى مجد جديد . . .

واستمرت « سميراميس » تحكم وحدها عشرين عاما .

ولم يعد ينقصهـا بعد كـل الأمجاد التى صنعتهـا للشعب إلا أن تتحـول إلى الفتوح ، وتحطم كبرياء كل الثوار .

وصنعت سميراميس جيشا لم تر آشور جيشا مثله قط. زحفت به لتخضع آسيا وميديا وفارس وإرمينيا وفينقيا . . ولم يعد هناك من بلد يقف فى وجهها إلا الهند . . ذلك البلد المسحور الذى تحدثت عنه القرون الأولى.

وإذن فإلى الهند . . .

وخرجت سميراميس على رأس جيشها الجرار. فما وقف أمامها عدو . . وما صمد دونها بلد . . حتى بلغت أطراف الهند وقد أنهكها طول السفر. . .

وكانت سميراميس قد استعدت قبل ذلك بسنتين لملاقاة جيش ملك الهند. وكان الهنود مشهورين بقدرة فيلتهم التى تستخدم فى الحرب فلا تقهر. فسعت هى إلى التغلب على هذه العقبة بحيلة حربية . . وأمرت بتغطية مائة ألف جمل بجلود الثيران السوداء لتقلد بها الفيلة . . وصنعت ألفى مركب لتشق بها نهر السند . . وحملها الجيش على ظهور الجمال.

وبدأت الحرب وجها لوجه . . وكانت سميراميس قد أنزلت فيلتها الزائفة فى المعركة . . فكسبت أولى الجولات . . وأسرت مائة ألف هندى . . وأغرقت ألف مركب من مراكب الأعداء فى نهر السند .

وتظاهر الملك الهندى بالتراجع والهرب . . ومن ورائه انطلق جيش « سميراميس» بغير نظام يبغى الغنيمة . وكانت هناك قنطرة كبيرة على النهر اضطرت سميراميس أن تنزل جيشها على جانبها . وتوقفت المعركة . . .

وفى اليوم التالى عاد القتال . . وانطلقت الفيلة الزائفة براكبيها تطارد جيش الهند المتقهقر . . ولكن الهنود الذين اكتشفوا الزيف عندما عثروا على جثث « الفيلة » الميتة . . عادوا يكرون على جيش سميراميس بفيلتهم الحقيقية التى تمرست بالحروب وخبرتها . .

وانهار جيش « سميراميس» . . وفر الرجال والجمال فى اضطراب لم يكن بعده سوى الهزيمة . . .

أما هى . . فقد أصابها سهم من يد الملك الهندى، جعلها تسرع مع فلول جيشها المقهور إلى عبور نهر السند مرتدة إلى بلادها . . ولم يتبعها الملك الهندى بجيوشه إذ حذره كهانه من العبور. .

وتم الصلح على تبادل الأسرى . . وعندما عادت سميراميس إلى آشور . . لم يكن يحيط بها من الجيش الذى خرجت به من قبل . . سوى الربع أو أقل قليلا . . !

وفى عاصمتها أحست سميراميس خيوط مؤامرة جديدة . . فقد كان ابنها ميناس قد ضاق بخمول ذكره أمام عظمة أمه وسلطانها . . فملأته الغيرة . . وطمع فى الحصول على أزمة الأمور . . !

شعرت سميراميس بما يدبره ولدها . . وأرادت أن تجتذبه إليها وتتدارك أمر نفسها فتزوجته . لكن هذا الزواج لم يجدها نفعا . . فقد لبث ميناس يحوك لها المكائد والدسائس حتى أحست كأنها محصورة فى مصيدة . . !

وأتعبها الجهد . . ولم تجد أمامها إلا أن تتنازل عن العرش لولدها ميناس .

وخلعت سميراميس التاج الذى كسبته بالدم . . وخرجت من عاصمتها ـ بابل ـ التى شيدتها أيام مجدها . . لتعود إلى البادية التى تلقتها وليدة من قبل . . وهناك عاشت منبوذة وحيدة . . كأنها لم تكن ذات يوم شيئا مذكورا . . !

ولم تطق « سميراميس » صبرا بعد . . فرفعت يديها إلى السماء تطلب من الإله بيلوس أن يأخذها إليه . . .

واستجاب لها رب الأرباب . . فحولها إلى حمامة بيضاء ، رفرفت لتطير إلى السماء ومن حولها غمامة هائلة من حمائم أخرى بيض ، تماما كتلك التى ربتها ورعتها ذات يوم . . .

وهناك . . عاشت سميراميس . . كواحدة من ربات آشور وبابل . . وعبدها أهل الأرض تماما كما يعبدون أهل السماء . . !

أسطورة بابليـــة
قصّة الخـلق والطـوفان

كانت الآلهة هى الشرطة الخفية للدولة البابلية التى عاشت منذ خمسة آلاف سنة على شواطئ دجلة والفرات . . والتى سارت حضارتها جنبا لجنب مع حضارة الفراعنة . غير أن آلهة بابل كانوا أكثر عددا من آلهة مصر . . حتى لقد بلغ عددها فى إحصاء رسمى ٦٥٠٠٠ إله ، إذ كان لكل قرية إله يحميها . ولم يكـن الآلهة يعيشون بعيـدا عـن الأهلين . . فقد كـان معظمهـم يعيشـون على الأرض فى الهياكـل ، يأكلون الطعـام بشهية قوية ، ويزورون الصـالحات من النساء فى أثناء الليل . فيستـولدونهن أطفالا لم يكن أهل بابل العاملون المجدون يتوقعون أن يولدوا أبدا .

غير أن الناس مع كل ذلك كانوا يؤمنون بإله أكبر . هو أعظم الآلهة جعلوا اسمه ذات يوم « نو» ثم انتصر الإله «مردك» على كل الآلهة . . وصار هو كبيرهـم . . وعلى يديه خلقت البشرية . . وجرى الطوفان . . !

لم يكن هناك سوى « ابسو» الفضاء المظلم . . و« تيامات» المياه التى لاتحد . لاسماء ولا أرض ، لا آلهة ولا بشر، لا شـىء من ذلـك أبـدا سوى الفضـاء المحيـط ، أبى كـل شىء ، والمياه الممتدة إلى ما لا نهاية . . بكل مافيها من اضطراب وفوضى . تضرب كلها الأطناب ، وتخرج ـ من بعده ـ كل شىء حى . . !

ولم تكن المياه قـد تشكلت بعد فى محيطات وبحار ، أو بحيرات وأنهار . بـل كانت كلها شيئا واحـدا ، واسعا إلى غير حدود ، عميقا إلى اللانهاية . أمـا المستقبل، فما كان يبدو منـه شىء قط . . لا شـىء سوى ظلمة أخرى حـالكة . . أشد سـوادا من أعماق الليل نفسه . . !

وتعـاقبت الأزمـان ، حتى جـاء زمن اختلـط فيـه الماء بالفضـاء ، ومن اختـلاطهما خرجت أشيـاء أخذت تنمو وتتخذ لها أشكـالا عديدة غريبـة . ثم ظلت ترتفـع حتى استقرت فى أعلى . وكان منها كل آلهة النور. .

وأطلت « تيـامات» إلى المخلـوقات الجديدة ، ومـلأها الفزع . . فما كـانوا قـط من طينتها ، ولا تشكلوا أبدا بأشكالها . فهى لم تكن تعرف فى حياتها سوى الظلام والفوضى

والاضطراب. أما الذين يعيشون فى أعلى . . فلا يريدون غير النور والنظام والاستقرار. وكان هذا كله عكس ماتريد . . بل كان هذا كله أول أسباب الحقد والغضب والثورة على آلهة النور . .

وقررت « تيامات» أن تتخلص من المخلوقات الجديدة . . وأن تشن عليهم حربا لا هوادة فيها قط . .

وظلت تيامات تعمل بلا انقطاع . . فمن جوفها جاءت الوحوش المخيفة المفترسة، وانطلقت الثعابين المهولة ذات السم . . وعلى سطح الماء برزت رؤوس التنانين، بشعة تثير الرعب، وخرجت الكلاب مفترسة لامثيل لوحشيتها، والعقارب مخيفة سوداء كالمردة. ومن كل مكان انطلقت حيوانات أخرى كسيول شريرة مجنونة . . تتحرك تحت إمرة الوحش « كنجو» العملاق، الذى وعدته تيامات بالزواج وإعطائه ملك كل شىء، إذا تغلب على آلهة النور، وسحقهم بذراعه القوى الجبار . .

وفوجىء الآلهة بعدوان تيامات. وكان أول من عرف نياتها هو الإله « آى» الذى ساق الخبر إلى الإله « أنصار». وعجب هذا لموقف تيامات، وامتلأ قلبه حنقا وسخطا، يختلط بالخوف والرعدة مما قد يحل بمجتمع الآلهة. وانطلق أنصار إلى « الإله أونو» فكلفه الذهاب إلى تيامات يسألها عن سر تحديها للآلهة . . !

وانطلق أونو إلى مملكة تيامات . .

غير أنه ماكاد يقترب، حتى نهض له « كنجو» . . الوحش المارد المستلقى إلى جوار تيامات، وهاجمه فى شدة وعنف وجنون. وتوقف أونو، ثم حرك قدميه إلى الخلف، ثم أدار ظهره، ثم ولى الأدبار هاربا يجرى من مواجهة الحيوان الصاخب المهول . . !

وتوالت مواكب الآلهة واحدا فى إثر آخر، لمقابلة تيامات. . ولكن أحدا منهم لم يستطع الوصول إليها أو مناقشتها. ولا عرف أحد منهم كيف يبحث معها سر ذلك الغضب العنيف.

وجلس الجميع ذات يوم يبحثون الأمر. وكان بينهم الإله « مِرْدُكْ» الذى لم يكن قد جرب حظه مع تيامات من قبل. ومن خلال الفشل الذى منى به الجميع، أطلوا إلى «مردك» وطلبوا منه أن ينازل الإلهة المتوحشة. وبغير ماخوف، انحنى لهم مردك . . وقد قبل النزال بشرط أن يقر له الجميع متى انتصر بأنه هو الأقوى . . ولا أحد أقوى منه.

ولم يكن أمام آلهة النور بد من القبول . . ومنح مردك السلطة السماوية الكاملة ليكون له حكم الكون كله . . !

أراد مردك ــ قبل أن يمضى لمصارعة تيامات ـ أن يجرب مـا لديه من فنـون القوة . وأتى الإلـه برداء طويل ألقـاه أمام كل الآلهة . . وتلا بضعـة تراتيل لم يكد ينهيهـا حتى اختفى الثوب وتلاشى . وأخذ بالآلهة العجب وطلبوا منه أن يعيد الرداء كما كان . وعاد مردك يتلو تراتيله فإذا الرداء يعود ، ويمتد فى نفس المكان الذى كان قد تلاشى فيه .

واقتنع مردك بأن أحدا من الآلهة لم يعد له مثـل نفوذه وسلطانه . فقرر البدء فى رحلة الانتقام .

وانتفض مردك وهو ينهـض ليبدأ الصراع الجبار . فبدا رائعا وهو يتحـرك ومن أمامه تبرق البروق ، ومن فوقه ترعد الرعود ، والقوس الضخم فوق ظهره ، والرمح الثقيل فى يده ، والشبكة الهائلة التـى قرر أن يصطاد بها الوحش كنجو الرهيـب يجرجرها خلفه . لقد كان الإله المنتقم قد أعد عدته للكفاح ، ولم يعد هناك سوى أن يلتقى بروح الشر فى جسد تيامات . . !

واستمر الإله مردك يقـود مركبة القدر ليصل إلى حيث تجرى المعركـة . وعندما وجد أنه قد اقترب من المكان ، نطق كلمة واحدة ، فإذا ريح مروعة تجرى أمامه ، وإذا الريح تتحول فتصير عـواصف وزوابع وأعـاصير، تتجمع كلها لتكـون سلاحا فى يـد مردك ، سلاحا أقوى من أى سلاح يمكن أن يحمله إله . . .

وأطلت الحيوانات المهولة فإذا كل شىء قد انقلب ، وإذا نور يشع من خوذته يخطف الأبصار، فهرعت تختفى فى أعماق الظلمة ، وأفواهها من الخوف ترسل الزبد . . !

واستمر مردك ، مصحوبا بكل دعوات آلهة السماء ، فى طريقه المرسوم .

وبلغ مملكة تيامات . وأطل فإذا وحش مهول فى شكل تنين مخيـف ، يحاول النهوض من استلقاءتـه ، ومن عينيه ينطلق بريق مخيـف ، ومن منخاريه يندلـع لظى اللهب . وفتح التنين فمه فـإذا به كجهنم . . النار تغلى فيـه ، والأصوات المرعبة ترعـد وتدوى ، ولا تسكت أبدا .

وتوقف مردك فى مكانه . وزعق يخاطب تيامات من بعيد . . ويطلب منها أن تجنح إلى السلم ، وتبعد عن رأسها فكرة العدوان .

وقهقهت تيـامات وهى تهتز . ثـم سلطت فى سرعة على عدوهـا أقوى ماعرفتـه من تعاويذ السحر وأشدها أثرا . .

ولكن مردك كان قد أعد العدة لإبعاد السحر عنه . . وفى لحظة ، رفع شبكته الهائلة

وألقى بها فى قوة إلى حيث وقفت تيامات . . واندفعت الإلهة المهولة إلى الخلف ، ولكن الشبكة أمسكتها ، وجذبها الإله إليه ثم أطلق على فمها ريحا صرصرا عاتية .

ودخلت الزوبعة عنيفة بين فكى تيامات . . واخترقت الحلقوم لتدخل فى بطنها الذى ظل ينتفخ وينتفخ . . وعندما بلغ آخر درجات الانتفاخ ، رفع مردك رمحه الضخم وطعن البطن المنتفخ . فانفجر فى صوت صاخب كالرعد . وسقطت تيامات ميتة . . !

عندما انتهى مردك من قتل تيامات ، وقف فوق جسدها ، ثم قطع قلبها الشرير فألقى به فى الفضاء الأسود . ثم تحول إلى التنين الهائل فقضى عليه . . أما وحوشها الأخرى ، وتوابعها السود ، فقد أخذوا يصرخون وهم يحاولون الفرار ، ولكنه لم يمهلهم بل أخذ يلقى عليهم شبكته تصطادهم واحدا فى إثر آخر . ووقعوا كلهم فى الأسر .

وانحنى مردك على جثة التنين فأخذ منها حبوب القضاء والقدر التى أعطتها له تيامات المذبوحة ، تلك الحبوب التى تمنح النفوذ والسلطان ـ لكل من يحملها ـ على المصائر والأقدار .

وحملت رياح الجنوب دماء تيامات إلى أماكن سرية مجهولة ، حين كان مردك قد انحنى من جديد على جثتها ، وشقها جزأين مستطيلين : رفع أحدهما ليكون السموات . . وخفض الآخر ليكون الأرض . . !

وعندما انتهى مردك من رفع السماء ، نثر على صفحتها الكواكب لتضىء ، ولتجرى فى طريق منتظم مرسوم .

وعندما أضاء مردك السماء . . جعلها مكانا لإقامة الآلهة « أونو وبعل وآى » أما الآلهة الآخرون فقد قسم عليهم الكواكب ، ليكون كل كوكب بيتا لإله . ثم قسم السنة وجعل لكل شهر ثلاثة كواكب . كما جعل لإله القمر حكم الليل وإضاءته . ومنحه كل شهر يوما يستريح فيه . أما الشبكة الهائلة التى صحبته فى معركته مع تيامات ، فقد جعل لها كوكبا ومعها القوس . . وأما الرياح التى ساعدته فى القضاء عليها ، فقد جعل لكل منها كوكبا جديدا .

وإذ انتهى مردك من إقرار كل إله فوق كوكبه ، وضع نفسه هو الآخر فى كوكب كان أكبر من كل الكواكب الأخرى وأضخم . . وجعله المصدر الرئيسى للنور فى صفحة السماء . .

غير أن مردك لم ينس الأرض عندما كان يرفع صفحة السماء . . فقد كانت الأرض التى وضعها فى حاجة هى الأخرى إلى معجزة .

وأطل مردك وهو يفكر . لقد كانت الآلهة فى حاجة إلى من يصلى لها ويعبدها . .

وإذن . . فلتكن المعجزة هى خلـق الإنسان . . وانحنى مردك على الأرض ، وشرع يعجن التراب بـدمائه ، ويصنع من الطين نـاسا تقوم على خدمـة الآلهة ، والصلاة لهم وعبادتهم . .

وهكذا خلقت البشرية . . !

* * *

عمرت الأرض بالمخلـوقات الجديدة وطفق البشر يتزاوجون ويتنـاسلون ، ويقيمون الصلاة للآلهة التى خلقتهم وسوت لهم الأرض وقدمت لهم النور من السماء . .

ولكن الأمر لم يكن ليستمر طويلا على منوال واحد . . فإذا القوم كلما ازداد عددهم تنافروا وتنـازعوا ، وإذا الصلوات تقل والعبادة تنهـار ، والشر يدخل كل يـوم من حيث خرج الخير . . وأصبـح الخلق غير الخلـق . . والناس غير النـاس . وظهرت على الأرض سلسلتان من البشر تسيران فى خطين متوازيين . . إحداهما لاتزال متصلة بالآلهة . . أما الأخرى فقد قطعت كـل صلاتها بهم ، ولم يعد أمام أصحابها من هـدف سوى الوصول إلى اللذة من أى طريق .

وامتلأت الأرض بالشر . .

وأطل الآلهة من عليائهم وملأهم الحزن . .

إن الإنسان لم يعد هو الإنسان الذى خلقه مردك . . وجعلـه صورة منه كريمة بريئة طاهرة . .

وغضبت الآلهة على مخلوقات الأرض . . وكان أكثر الكـل غضبا الإله مردك ، الذى قرر أن يـرسل طوفانـا عارما ليهلـك البشر ويمحو به آثـار أعمالهم العامرة بكل مـاهو سيىء وخبيث . . !

غير أن آى . . إله الحكمة ، أخـذته الشفقة على البشر ، واعتزم أن ينجـى منهم على الأقل رجلا وامرأة . . يحفظان سر الخلق .

وكان « شمس نشتين» وزوجته هما اللذان وقع عليهما اختيار الإله . .

وفى ذلك اليوم . . وبينما كان شمس نائما ، جاءه صوت الإله فى الحلم يقول :

ـ انهض يـابن « أوبـارا توتو» . . يـامن أطعـت الآلهة ، وحفظت لهم العهـد الذى وضعوه فيك . . انهض فاهـدم بيتك ، واصنع من الخشب فلكا ضع فيه كـل ماتحتاجه

لحياتك . . وخـذ معك حبة حية من كـل شىء . . . نحميها كما نحميك مـن الطوفان الذى سيحل على الأرض التى امتلأت بالشر والفساد والطغيان . . !

وصدع « شمس نيشتين» بأوامر الإله . .

ومع مطلع النهار نهض من نومه ليهدم بيته ، ويبنى من الخشب فلكا ضخما . .

واستخدم شمس عددا من العمال وأخذوا يعاونونه ويشقون له الألواح ، حتى إذا ما انتهت أيام سبعة كـان الفلك قد نهض قائما على الأرض كأحسن مـايكون الفلك ، وقد ضم بين جنباته كميات كبيرة من الخمر والزيت ، وأكـواما من حبوب حية من كل نبت ظهر على الأرض ، وزوجين من كل حيوان أو طير جرت فى عروقه الحياة .

وأطل شمس إلى فلكه وامتلأ رضا . . لقد كـان طوله يصل إلى ١٢٠ ذراعا وارتفاعه ١٢٠ أخرى . وكان مقسما إلى ستة طوابق كل طابق مقسم إلى تسع غرف . . أما سطحه الخارجى فمدهون بالقطران ، وسطحه الداخلى بالقار .

وعرف شمـس من إلهه أن عليـه الدخول فى فلكـه وإغلاقـه ، متى ظهـرت الإشارة المتفق عليها . . وهى مطر غزير يسقط من السماء . .

ومرت أيام . . وسقط المطر مدرارا . .

لقد أتت الساعة . . !

وانطلق شمس نيشتين إلى الفلك ومعه زوجته وأبناؤه . . ومن خلفه أغلق الأبواب . .

ومرت بالأفق سحابة سوداء غطت كل الأرض . . يسوقها الإله رامان مطلق الرعود ، وتمسك بسكانها الإلهة « أورجـال» . . ومن خلفهما الإلهان « نابو» « ومـردك» . . يفتحان للمطر كل طاقات السماء . .

وأطبقت العاصفة والظلام على الأرض . . وراح الناس يتساقطون غرقى وصرعى . . حتى الذيـن ركضوا يطلبون النجاة فى الأقبيـة والغرف ذات السقوف ، ما استطـاعوا أن يجدوا تحتها منقذا مـن الطوفان . . ولا الذيـن لجئوا إلى قمم الجبال ، فقـد طغت المياه وارتفعت حتى اختفت كل الجبال التى تحت السماء . . !

واستمر الطوفـان ستة أيام . . كان فيهـا الكفاية لتطهير الأرض من كـل من فى أنفه نسمة حياة . . مـن إنس وطير وبهائم ووحش . . ولم يعد هناك سـوى شمس . . وكل من حل معه فى الفلك الأمين . .

وجاء اليوم السابع . . فهدأت الأمطار، وانسدت ينابيع السماء . . وبدأت المياه تنجاب عن الأرض .

وأطل شمس نيشتين من طاقة فى الفلك ثم صرخ عاليا . . لقد كان الناس جميعا غرقى فى الطين وحيث كانت تمتد الحقول ، ظهرت هناك مستنقعات وبرك . . لم يكن هناك شيء حى . . وكل العالم لم يعد يظهر منه سوى بحر مهول عملاق .

وظل شمس يبكى، والفلك يسير على سطح الماء فى اتجاه التيار، ينخفض ويرتفع والمياه تتناقص من حوله شيئا فشيئا . . حتى إذا مامضى اثنا عشر يوما ظهرت الأرض من بعد . .

وكانت الأرض التى ظهرت ، هى قمة جبل نازير. .

وأرسل « شمس » غرابا يستطلع حال الأرض . ولكن الغراب برغم أنه لم يجد مكانا يحط عليه، إلا أنه انشغل فى نهش الجثث الكثيرة المستلقية ، ولم يفكر فى العودة إلى الفلك . .

وانقضت أيام سبعة أخرى . .

وأرسل شمس عصفورا . . ولكن العصفور ظل يطير من مكان إلى مكان فلا يبصر شجرا أو أرضا جافة ، ولم يجد مستقرا لساقيه فاضطر آخر اليوم للعودة إلى الفلك . .

وانقضت أيام سبعة ثانية . .

وأرسل شمس يمامة . . ظلت تطير وتطير باحثة عن مقر تحط عليه فلا تبصر أرضا جافة . . ولكنها ماتكاد تفكر فى العودة حتى تبصر أشجارا خضراء، فتحط عليها، ثم تحمل فى منقارها ورقة من غصن الزيتون تعود بها إلى الفلك . . !

وابتهج شمس . . وعرف أنه الفرج . .

وفتح أبواب الفلك، وخرج ومعه حاجاته وعائلته، وكل الأزواج الحية من حيوان وطيور.

وفى اللحظة التى لمست أقدامهم فيها الأرض، انكفأ شمس على وجهه وخر ساجدا . ثم بنى مذبحا وقدم عليه قرابين الشكر . . من أعواد القصب والبخور . .

وانطلق دخان البخور العطر فارتفع حيث يجلس الآلهة . .

وشمت الآلهة الرائحة الزكية فتعجبت . . ثم راحت تتجمع كالذباب حول القربان .

وبين الجمع . . كانت هناك إشتار ـ ربة الحب والـربيع ـ التى رفعت قلادتها الإلهية تحيى بها صاحب القربان . ثم قالت :

ـ باسم جواهـرى الإلهية التى تحيط بعنقى، لن أنسى هذا اليـوم أبدا . سأضعه دائما فى ذاكرتى، حتى مردك . . مردك الذى لايريد أن يقترب من قربان الإنسان . . ورفض مـن قبل أن يجمـع مجمـع الآلهة يستشيرهم ، وأرسـل الطوفـان يقضـى به على عبيـدى المخلصين ويسلمهم للهلاك والدمار . .

والحق أن مردك لم يكن بعيدا عن القربان. فقـد كان يقترب منه هو الآخر، ويعجب لهذا المخلوق الفانى كيف نجا من الطوفان . . ويقسم أن لابد من قتل شمس . .

ووقف الإله آى . . الـذى كان قد أوحى إلى شمـس ببناء الفلك فأنقـذه . . وقف يدافـع عن المخلوق الفانـى الذى أخلص للآلهة ولم يحقـد عليها ، بل كان أول مـا فعله حين وضع قدمه على الأرض أن قدم لها القرابين. وانتقد آى مردك الذى لم يستشر الآلهة عندما اتخذ قراره المدمر لمخلوقات الأرض . .

واستسلم مـردك آخر الأمر . واقترب مـن القربان . . ثـم أخذ بيد شمـس وزوجته وباركهما . . وسوى لهما مستقرا جديدا عند مداخل أنهار الأرض . .

وعادت الآلهة إلى السموات . . ولكنها لم تنس قبل عودتها أن تكافىء « شمس» الذى قدم لها القربان وحفظ لها الجنس البشرى . .

ومنـح شمـس سر الخلود . . ورفـع إلى مـرتبـة الآلهة . . وأصبح عليـه أن يقيـم فى مستقره عند مدخل الأرض حتى الأبد . . لا يغادره إلا فى رحلة يومية طويلة يرافق فيها موكـب مردك، ليشرف على أبنـائه البشر الذين ينطلقـون فى الأرض ليعيدوا إليهـا المجد والحياة . . ثم يعود آخر اليوم إلى مستقره، ليستأنـف مع الصبح رحلته الطويلة الخالدة من الشرق إلى الغرب . .

وانطلقت البشرية تحيا من جديد . .

أسطورة بابليـة
أشـتار وجلجـميش

تعد ملحمـة جلجميش أشهر الملاحم البـابلية . وتتألف فى أصلهـا من طائفة مـن القصص غير الوثيقة الاتصـال، ضـم بعضها إلى بعض فى عهـود مختلفة ترجع إلى مـا قبل المسيح بثلاثـة آلاف عام. وكان جلجميش بطل هـذه القصة حاكما أسطوريًا يشبه شمشــون. وأستطاع الاطلاع على جميع أسرار الكون. . وجاء بـأخبار الأيام التى سبقت الطوفـان. وسار فى طريق بعيد شاق. ثـم كتب على لوح حجرى كل ما قام به من أعمال كانت هى أصل هذه الأسطورة .

كان جلجميـش ـ حـاكم أوروك ــ جبارا فى الأرض . وكـان سعيدا بقـامته الممتـدة العملاقة، وجسمه الضخم المملوء بالعنفوان، وجماله الباهر الذى يفتن الناس . .

وكان ثلثاه إلها وثلثه آدميـا . فهو من نسل شمس نيشتين، المخلوق الخالـد الوحيد الذى نجـا من الطوفـان . ولم يكن أحد يشبهــه فى صورة جسمه، واطـلاعه على أسرار الغيب، ورؤيته جميع الأشياء ولو كانت فى أطراف العالم المجهول . .

وكان فى قلبه شوق ظامىء إلى الحب . . وبسبب مغـامراته لإطفاء ظمئه الدءوب، راح الآباء والأزواج يشكـون كل يـوم لربـة الحب والجمال « أشتار» كيـف أن جلجميش لايترك زوجة لزوجها ولا عذراء واحدة لأمهـا . . ويطلبون منها حمايتهم وحماية زوجاتهم وعذاراهم.

واستجابت أشتار لتوسلات الخلق . .

وذهبـت إلى الإلهة أرورو ـ عـرابة جلجميـش ــ ترجـوهـا أن تخلق ابنـا آخر فى قـوة جلجميش وجبروتـه، يكون قادرا على أن يشغلـه فى نزاع طـويل، حتى يستريـح بال الأزواج والآباء فى كل أنحاء أوروك . .

وقبلت أرورو رجـاء أشتار . . فعجنـت قطعا مـن الطين تَفلَتْ فيهـا، ثـم صـورت «انجيدو» . .

وكان انجيـدو رجلا له بـأس الخنزير. . ولبـدة الأسد، وبأس الطير. وكـان جسده

يغطيه شعر كثيف . . وفوق كتفيه ينسدل شعر طويل كامرأة . . ذهبي كشعر إله القمح .

ولم يكن انجيدو منذ خلق ليعبأ بصحبة أبناء البشر. بل اعتزلهم وابتعد عنهم . . ثم عاش مع حيوانات الغاب ، يرعى العشب مع الظباء ، ويلعب مع مخلوقات البحر، ويروى ظمأه مع وحوش الحقول . .

وذات يوم أراد صياد يدعى تسايدو اقتناصه بالشباك ، غير أنه عجز عن اقتناصه ، وكرر الصياد محاولته يوما آخر . ولكن انجيدو كان بارعا دائما فى الإفلات منه .

وملأ الغيظ قلب الصياد . وانطلق إلى الحاكم جلجميش يشرح له الأمر . . ويقول له إن أنجيدو لن يقع فى الشباك المصنوعة قط . ولكن شباكا أخرى تستطيع وحدها أن تقتنصه . . هى شباك النساء . !

وقال له جلجميش :

ـ وما الذى تريد منى ؟ المرأة أم الشباك؟

قال له الصياد :

ـ إن انجيدو يدعى أنه أعظم منك قوة ، وأنا أريد أن أحضره هنا أمامك ، لتثبت له أن قوته هى الضعف نفسه بجوار قوتك . . ولهذا فأنا أتوسل إليك أن تعيرنى كاهنة حسناء ، تستطيع إيقاع أنجيدو فى شباك غرامها . . لنقوده إليك . . !

وقال جلجميش :

ـ اذهب إذن أيها الصياد وخذ معك الكاهنة « أخوتى » . . وعندما تحضر الوحوش ومعها انجيدو إلى مورد الماء تستقى اجعلها تكشف عن وجهها وساقيها ، واختف أنت . . وسيتم بعد ذلك كل ماتريد . . !

وانطلق الصياد والكاهنة « أخوتى» إلى حيث يستقى أنجيدو مع صحبه من الوحوش .

وعندما جاء الوحش الآدمى . . مدت الكاهنة الحلوة يدها ، وشرعت تخلع أرديتها واحدا بعد آخر. ثم وقفت أمامه عارية ، فى جسدها رعشات ظامئات .

وأدار أنجيدو رأسه ناحية الحسناء وتوقف . . ثم بدأ يختلس إليها النظر فى شوق ولهفة . . واشتعل فى أعماقه لهيب النار . . !

وحث الصياد من مخبئه الكاهنة أخوتى على أن تقترب من أنجيدو . . وتمنحه كل

مماينسيه نفسه . . وأصدقاءه . . وغابته . . !

وبقى أنجيدو مع الكاهنة ستة أيام وسبع ليال ، يعب فيها السعادة . حتى إذا جاءه الملل وانتبه إلى نفسه ، أطل فإذا كل حيوان الغابة أصدقائه قد انفضوا من حوله . . وتركوه . . !

وملأ الحزن قلب أنجيدو . . غير أن الكاهنة ظلت تهزه وتقول :

ـ أنت يا من بلغت عظمة الآلهة . . كيف يطيب لك العيش بين وحوش الغابة ونسائها . تعال معى ننطلق إلى مملكة أوروك حيث يعيش جلجميش الذى لايدانيه أحد فى جبروته . تعال معى أقدك إلى القصر الرائع الذى يعيش فيه الإله أونو والآلهة أشتار . ويمنحانك سر القوة . . وسر العنفوان . . !

ووجد أنجيدو العرض مغريا . وبدأ يتوق إلى لقاء جلجميش . فأعلن موافقته على اتباع المرأة إلى مدينة أوروك . . وقال لها :

ـ تعالى بنا إلى حيث أرى المكان الذى يعيش فيه جلجميش . . أقاتله . . وأهزمه . . وأظهر له قوتى وعنفوانى . . !

وسار الثلاثة فى طريقهم إلى أوروك . . أخوتى وأنجيدو . . والصياد . . !

* * *

فى ذلك الوقت كانت أوروك تحتفل بعيد « أشتار » . . وكان الناس يصخبون ويضجون ويشربون عندما بلغهم نبأ وصول أنجيدو . . منافس جلجميش . .

وزاد رقص الناس ، وابتهاج الآلهة . . فقد سرهم أن ينهزم جلجميش . . سارق الزوجات والعذارى . . وأن يهبط عن العرش الذى دنسه . .

والحق ، لقد كان لأنجيدو من القوة مايستطيع أن يهزم به جلجميش . غير أن شيئا آخر كان قد جد فى الأمر . . فقد كانت أشتار قد رأت جلجميش . . فأعجبها . . وقررت أن تمنع الصراع الوحشى الذى كان عليه أن يخوضه . وبدت لأنجيدو فى الحلم تهمس فى أذنه أن جلجميش أكثر منه قوة . . وخير له أن يركن إلى الحكمة . . وأن يبتعد عن الصراع . . !

ومع جلجميش حدث الشىء نفسه . . بدا له كأن أمه قد جاءته فى الحلم تحذره من منازلة أنجيدو ، وتطلب منه أن يكونا صديقين . .

وقد كان . . والتقى من أريد لهما أن يكونا عدوين ، فإذا بهما يصبحان صديقين وفيين . . وإذا بهما يسيران كل يوم جنبا إلى جنب . يحميان أوروك من هجمات «عيلام»

ويعودان معا ظافرين بعد أن يقوما بأمجد الأعمال . . !

غير أن أنجيدو لم يطق حياة المدينة طويلا . .

وبدأ يضيق بها ويتمنى الرجوع إلى الغابة حيث كان يعيش . وظهر له فى الحلم طيف شمس نيشتين . . وأخذ يحبب إليه البقاء فى الأرض ويهديه إلى الأرباح التى تعود عليه من الحياة فيها . . وقال له شمس :

ـ إن جلجميش صديقك وأخوك . . وسيمنحك فراشا ضخما تنام فيه ، ومقعدا كالعرش إلى جانبه الأيسر . . وسيجعل كل ملوك الأرض يركعون تحت قدميك إعجابا وتقديرا . . !

وأطاش الإغراء رأسه . . واقتنع بالبقاء إلى جوار جلجميش . . ولم يعد يشكو بعد وجوده فى مملكة أوروك . .

وحتى جلجميش . . سره وجود انجيدو إلى جواره . . وأعلن أن السلام قد حل . . وخلع عدة الحرب ولبس الثياب القدسية البيضاء ، وزين نفسه بالشارة الملكية . . ولبس التاج . . !

وفى تلك اللحظة أطلت « أشتار » . . فراعها جماله وجبروته . . وراحت ترنو إليه بعينيها الكبيرتين وتقول له :

ـ تعال يا جلجميش وكن لى زوجا . . تعال نتبادل كؤوس الهوى والحب ، أضعك فى عربة من لازورد وذهب . . لها جوانب مطعمة بالعقيق . . وتجرها لك سباع سبعة . وتدخل بيتنا وحولك البخور المنطلق من خشب الصندل . . تعال أمنحك السلطان . . وأجعل قدميك تحتضنان كل الأراضى المجاورة للبحر . . وأحن رؤوس الملوك كلهم سجدا لك ويأتوك بثمرات الجبال والسهول جزية يؤدونها صاغرين . . !

غير أن جلجميش كان يعرف أشتار . . وكان يعرف لها قصصا عنيفة مخيفة . . فهز رأسه وهو يقول :

ـ أنت خائنة يا أشتار . . ولن يطمئن رأسى فوق كتفى إذا أنا آمنت بحبك واستسلمت لفنون عشقك . . !

قالت أشتار :

ـ وما الذى تعرف عن خياناتى يا فتى . . !؟

أجاب جلجميش :

ـ إن الجميع هنا يتحدثون عما فعله عشقك الخائن بكل من وقع فى شباك غرامك . . أحببت النسر ثم قصصت جناحيه . وعشقت الحصان حتى نفق . . وملأت كؤوس الحب للأسد حتى فقد لبدته . .

وقاطعته أشتار . .

ـ ولكن هل سمعت عن تضحياتى فى سبيل من أعشق وأحب . . هل سمعت عن قصتى مع حبيبى تموز . . !؟

وهز جلجميش كتفيه . . وشرعت إلهة الحب والجمال تقص عليه القصة . .

* * *

كان تموز . . الفتى الراعى المملوء بالعنفوان . . من نسل الإله العظيم آى . . ولقد شاهدته أشتار ربة الحب والجمال وهو يرعى غنمه تحت شجرة « إربد» المقدسة التى تغطى بظلها الأرض . فشغفت به حبا . . واختارته زوجًا لها وهى فى إبان الشباب . .

وعاش الحبيبان أمدا طويلا فى قصة حب ندية رائعة ، لم تشهد مثلها السماء قط . حتى كان يوم خرج فيه تموز يرعى غنمه . . وإذا بخنزير برى يهاجمه ويطعنه فى مقتل . . فهوى تموز كما يهوى الموتى إلى « أرالو» الجحيم المظلم فى العالم السفلى . . !

وكانت الإلهة « ارشكجال» أخت أشتار هى التى تحكم مملكة أرالو الممتدة فى أعماق الأرض . إلا أنها كانت تغار من أختها وتمتلىء لها حسدا . . فما كاد الفتى يهبط إلى مملكتها حتى أحكمت إغلاق الأبواب . . وأقسمت ألا يعود إلى الأرض حيا قط . !

والحق أن أشتار كانت قد قررت أن تهبط إلى أرالو فى محاولة يائسة لاسترداد زوجها الحبيب .

وانطلقت أشتار فى رحلة طويلة قاسية ، مرت خلالها بألوان مخيفة من الأخطار . . حتى بلغت أبواب أرالو . . وطلبت الإذن لها بالدخول .

وسمعت أرشكجال طلب أختها أشتار . . فأمرت خازن النار ألا يفتح لها الأبواب أبدا . .

وصرخت أشتار غاضبة . . وأخذت تدق أبواب أرالو . . تهدد وتتوعد . . وتقسم أن تحطمها وتسحق أقفالها وقضبانها إذا لم يسمح لها بالدخول .

وامتلأ حارس الأبواب رعبا وفزعا . وأسرع إلى أرشكجال يتوسل إليها أن تنقذه بالسماح لأختها بالدخول . .

وبرغم المرارة والحقد اللذين تكنهما أرشكجال لأختها . . فقد اضطرها الأمر أن تخفى مايعتمل فى أعماقها أمام الحارس . . وسمحت له بفتح الأبواب . . غير أنها عندما أذنت له . . قالت إن هذا الإذن لايمنع أن تعامل أختها بما يقضى به قانون الآلهة . . الذى يحرم دخول أرالو . . إلا للعراة . . !

وسمح حارس النار لأشتار بالدخول . وأخذ يخلع عنها جزءا من ثيابها وحليها عند كل باب تجتازه من أبواب مملكة الظلمات .

ولم تغضب أشتار . . فقد كان حسبها الوصول إلى حيث وضع تموز . . ولا شىء بعد ذلك . . !

وعند الباب الأول خلع الحارس عن أشتار تاجها . وعند الباب الثانى خلع قرطيها . . ثم عقدها . . ثم قلادتها . . ثم منطقتها ذات الجواهر القدسية . . ثم رداءها المزركش البراق الذى يغطى يديها وقدميها . .

وبرغم كل ذلك فما اكتفى الحارس . . بل طلب منها قبل اجتياز الباب الأخير أن تخلع آخر الأثواب . . وتمنعت أشتار أول الأمر فى رقة . . ثم خضعت له واستسلمت . . !

وهبطت أشتار عارية إلى أعماق أرالو . .

وفتحت أرشكجال عينيها فى غيظ وحقد . . لقد كانت أختها فتاة خلابة رائعة . . أما هى فدميمة قبيحة عرجاء . . من حقها أن تنزل بأختها غضبها ونقمتها . . !

وانتفضت أرشكجال وهى تصدر أمرا جديدا لرسولها « نمتار» :

ـ اذهب يا نمتار واسجنها فى قصرى . . وسلط عليها ستين مرضا . . مرض العيون على عينيها . . ومرض الجنب على جنبيها . . ومرض الأقدام على قدميها ، ومرض القلوب على قلبها . . ومرض الرؤوس على رأسها . . سلط كل ماتعرف من الأمراض على كل جزء من أجزاء جسمها البغيض . . !

ونفذ نمتار أمر مولاته . .

ووجدت أشتار نفسها داخل سجن أختها . . وفى كل عضو من أعضائها مرض خبيث . . !

ونظرت إلى الأرض حولها . . فما وجدت فوق ظهرها أثرا لأشتار ربة الحب والجمال والربيع . . وشعرت الأرض أنها فقدت كل ما كان يوحيه وجود أشتار . فنسيت جميع

الفنـون وطرق الحب . ولم يعـد النبت يختلـط بـالنبت . . فـذبلت الخضر . ولم تشعـر الحيوانـات بحرارة الرغبـة قط . . حتى سكان الأرض مـن رجال ونساء . . انفصـل كل منهم عن الآخر . . وما عاد هناك من سبيل لإنجاب جيل جديد . . !

واخذ البشر يتناقصون . وروع الآلهة حين رأوا نقص مايرسله لهم البشر من قرابين . . واستولى عليهم الذعـر حين شهدوا عددا كبيرا من الناس قد انصرفـوا عن عبادتهم منذ اختفت أشتار بين قضبان السجن المقيت . . !

وكـان إله الشمـس هو أكثـر آلهة السماء حزنـا على أهل الأرض . . فـذهـب إلى إلـه الأرض آى يبكـى . . وهو يحمـل إليـه قصـة الخراب والدمـار اللـذيـن حلا على كـل المخلوقات . . كما يشهدهما كل يوم بين الشروق والغروب . .

وحزن آى للمصائب التى حلـت بأرضه . . فخلق رسولا سماه أشوشـونامير انطلق يحمـل رسالتـه إلى أرالـو . . ويطلـب من أرشكجـال بـاسـم كل الآلهة إطـلاق سراح أشتار . .

وغضبت أرشكجال عندما وصلها الأمر المقـدس باسم الآلهة على لسان أشوشو . . فـراحت تسبـه وتلعنه . ثـم أمـرت به فـألقـى فى جب مظلـم فى أعماق أرالو . . حتـى يموت . . !

ومع ذلـك فما كانت أرشكجـال تستطيع الوقـوف فى وجه كل الآلهة . . فلـم يمض وقت حتى أمرت رسولها نمتار بأن يطلق سراح أختها الإلهة أشتار . . !

وانطلق نمتـار صادعا بـأمر مولاته . . غير أنـه فوجىء بـأشتار ترفـض الخروج من السجن، وتقسـم ألا تغادره وتعـود إلى الأرض إلا إذا سمح لها بأن تـأخذ معهـا زوجها تموز . . !

ورفضت أرشكجال . . واستمرت الأرض قاحلة تبكى . . !

وغضب الآلهة . . . وأرسلـوا أمرا آخـر إلى إرشكجال بالإفـراج عن تموز . . إجـابة لطلب أشتار . . . وبـالرغم منها أرسلت ربـة الجحيم رسولها نمتار ليصـب ماء الحياة على جسد تموز . . . ويطلقه خارج أسوار أرالو . . ومعه أشتار . . !

وهكذا انطلقـت أشتار تجتـاز وهى ظـافرة ومعهـا زوجها أبـواب أرالو السبعـة . . وتتسلم عند كل باب منها ماخلعته مـن قبل . . ملابس مافوق الساقين . . والمنطقة ، وحلى الصدر . . والقرطين . . والتاج . .

وأطلت الأرض فإذا أشتار وتموز يعودان . . فعاد معهما النبات ينمو . . والحيوانات تكثر . . وانطلق كل امرىء يبغى الإكثار من نسله . . وجلست أشتار من جديد على عرش الحب والجمال والربيع . . !

* * *

كان جلجميش يستمع فى ذهول إلى قصة أشتار وتموز . . غير أنه عندما انتهت من سرد قصتها ، هز كتفيه وهو يذكر النهاية القاسية التى انتهى إليها تموز نفسه . فقد سمع أنه ظل يفقد كل يوم بعض أعصابه حتى انتهى الأمر به إلى الجنون . . ومات . . !

وأقسم جلجميش أن لن يستسلم قط لغرام أشتار . . ولو فعلت به الأفاعيل . . وقال لها وهو يمضى عنها :

ـ إنك تحبيننى الآن . . ولكنك ستقضين على بعد ، كما قضيت على كل هؤلاء . . !

وصرخت أشتار وهى تضرب الأرض وتندفع نحو السماء . وانطلقت فى غضبها الصاخب إلى أونو الإله الأعظم تطلب منه أن يخلق من الوحوش ثورا ماردا يقتل جلجميش . . غير أن أونو رفض طلبها وهو يقول :

ـ ألا تستحين يا أشتار وقد ذكرك جلجميش بكل مخازيك وفضائحك وألوان غدرك . . !؟

وعادت أشتار تصرخ . . وأنذرت بتعطيل كل ما فى الكون من غرائز الحب والنسل حتى يهلك كل شىء . .

وكانت ذكرى خراب الأرض لا تزال ماثلة فى رأس أونو . . فاضطر إلى الخضوع لإرادة أشتار . . وأرسل ثورا ضخما اسمه « آلو» لينازل جلجميش . . !

والتقى «اكو» بجلجميش . .

وفى خلال الصراع العنيف الذى نشب بينهما . . كاد جلجميش يسقط ميتا . . إلا أن صديقه أنجيدو سعى إليه . . وأنقذه من براثن الثور الوحشى . . واشترك الاثنان معا فى القضاء عليه . .

وأطلت أشتار من عليائها فى غضب مجنون . . فرأت الثور يحتضر . . وجلجميش يقف من فوق جسده يضرب بالرمح كل أطرافه . . وهتفت أشتار :

ـ ملعون أنت يا جلجميش . . يا من أثرت غضبى أنا التى لا أغضب . . ويا من قتلت ثورى الذى أرسلته من السماء . . !

وسمع أنجيدو لعنات أشتار . . فانقض على الوحش ومزق أحد أطرافه ثم ألقى به على وجه ربة الحب والجمال وهو يهتف :

ـ أغلقى فمك يا ماكرة . . وإلا هاجمتك وحطمتك وفعلت بك مثل ما فعلنا برسولك . . !

وأوغر الحقد صدر أشتار . . وأقسمت تنتقم . .

ولم تمض أيام حتى كان أنجيدو قد سقط وهو فى عنفوان مجده ، ضحية داء عضال . . صرعه بعد اثنى عشر يوما مقيتة . .

وكانت أشتار هى التى أرسلت إليه رسول الموت . . !

* * *

ملأ الحزن قلب جلجميش، وبدت له صورة الموت بشعة مخيفة . . وراح يفكر فى وسيلة للفرار من المصير المحتوم وبلغ به التفكير إلى شخص واحد عزيز . لايستطيع الموت أن يقرب منه . . إنه جده الأكبر . . شمس نشتين . . الخالد الذى يعرف سر الخلود . .

وقرر جلجميش أن ينطلق للبحث عن المكان الذى يقيم فيه شمس نيشتين . . ولو اضطره البحث إلى الطواف بأطراف الأرض . .

وانطلق جلجميش فى طريقه للوصول إلى أول الأرض . . حيث تغرب الشمس . .

وبعد أن قطع فى الجبال والسهول مسيرة أيام . . بلغ جبلا ضخما تقف دونه حيوانات ووحوش، لم تأذن له بالمرور إلا بعد أن سلط عليها الإله سن رب القمر قدرته فاستسلمت للنوم . واجتاز جلجميش الجبل المهول ليقف عند جبل آخر أكثر منه هولا وارتفاعا، هو جبل الغروب حيث ينتهى الأفق الغربى بين الأرض والعالم السفلى . . !

وكان يحرس الجبل ماردان مهولان يلمس رأساهما قبة السماء، ويصل ثدياهما إلى أعماق الأرض . . !

واقترب منهما جلجميش . . وعلى وجهه تتمثل كل ألوان الرعب والفزع . .

وأوقفه الماردان يسألانه عما يريد باقترابه من بداية العالم السفلى . وأجابهما جلجميش بأنه يريد الوصول إلى حيث جده الأكبر . شمس نشتين . !

ونصحه الماردان بالعودة . . فقد كانا يعلمان أن سر الخلود لا يمكن أن يصل إليه واحد من البشر. ولكن جلجميش راح يتوسل إليهما وهو يبكى . . ورق له قلباهما . .

وسمحا له بالمرور . . !

وسار جلجميش اثنى عشر ميلا داخل نفق غارق فى الظلمة . . وعندما وصل إلى نهايته كان النور قد بدأ يشرق، ووجد نفسه أمام شاطىء بحر عظيم، ينهض فوق مياهه عرش سبتو العذراء . . ربة البحار . . !

وناداها جلجميش وهو يطلب منها أن تعينه على عبور الماء، فرفضت ربة البحر . وراح هو يبكى ويتوعد . وينذر الربة بأنه إذا لم يفلح فى الوصول إلى جده شمس نيشتين فسيلقى بنفسه من فوق قمة الجبل ليموت . وأشفقت عليه سبتو، وسمحت له باجتياز البحر فى قارب يقوده واحد من خدامها الأمناء . .

وبدأ جلجميش رحلة خطيرة مرعبة . . استغرقت من الأيام والليالى أربعين ، وجد نفسه فى نهايتها يقف أمام جزيرة صغيرة . . هى التى يقيم فيها شمس نيشتين . . المخلد أبد الدهر . . !

* * *

عجب شمس نيشتين عندما رأى جلجميش يقترب من الجزيرة . وكان البطل فى ذلك الوقت قد سقط فى القارب فريسة داء عضال . فأخذ يتوسل وهو فى رقدته إلى جده الأكبر أن يمنحه سر الخلود الذى اجتاز من أجله كل هذه المخاطر والأهوال . .

وهز شمس نيشتين رأسه، وراح يقول له :

ـ إن الموت هو نهاية كل بشرى . وإنه لمحرم على الإنسان أن يعرف سر الساعة التى تنتهى عندها حياته . ففى السماء تجلس إلهات القدر تغزل خيوط الحياة لكل إنسان وترسم نهايته . . ولكن متى ينتهى الغزل الخاص بحياته؟ . وفى أى ساعة؟ . هذا ما لايدريه أحد قط . . حتى الغازلات أنفسهن . . !

وأجاب جلجميش :

ـ أنا لا أريد عدوانا على سلطان الآلهة . . ولكنى أعجب لماذا تخلد أنت وأموت أنا . . بينما مظهرى لايختلف عن مظهرك . . ؟ إننى أشبهك تماما . . ولست أكثر منى حكمة ولا أرجح عقلا . . ولى قلب مثل قلبك جرىء قوى . . فكيف تدخل أنت مجمع الآلهة ولا أدخله أنا . . !؟ كيف تجد سر الخلود ولا أجده أنا . . !؟

ولم يجد شمس نيشتين لكى يقنعه سوى أن يقص عليه قصة الخلق . . والطوفان . . والخلود . . !

وعندما انتهى شمس من قصته . . كـان جلجميش قد سقط من اليأس والإعياء فى أعماق قاربه . . !

وتألم شمس نيشتين وأشفق على حفيده . ووعد أن يعيد إليه صحته ويشفيه :

ونام جلجميش ستـة أيام وسبع ليالٍ . . وخلال نـومه العميق كانـت زوجة شمس نيشتين تمتلىء عطفا عليه ورحمة . وتطلب فى النهاية من زوجها أن يرده سالما إلى بيته . . !

واستجاب شمـس نيشتين لرجاء زوجته . . وطلـب منها أن تحضر له مادة سحـرية تحتـوى على سبعـة عناصر مقـدسـة ، قطـرهـا بين شفتى جلجميش النـائم فى أعماق قاربه . . !

ومرت أيام ستة . . وفى اليـوم السابع ، عندما استيقظ جلجميـش ، عاد يطلب من جده الأكبر سر الخلود . .

وأذن له شمـس بالنزول على الشاطـىء . . ثم أرسله إلى ينبـوع ماء ليزيل عـن نفسه مفاسد حيـاته الماضية . وتطهر جلجميش بـالماء المقدس ، ثـم عاد مـرة أخرى إلى جده وقد أيقن أنه سيمنحه سر الخلود . . !

كان هـذا هو مـاحدث . . فإن شمـس نيشتين أخذ بيـد البطل إلى حيـث يجد نبتة الخلود . . !

وكانـت هذه النبتة القـدسية التى تعيد الشبـاب وتمنح الخلود لمن يـأكلها نوعـا من حشائش زاحفة ، ذات أشواك تدمى من يحاول جمعها . . !

وحصـل جلجميـش على النبتـة . . وطلـب من جـده أن يسمـح لـه بـالعـودة إلى أوروك . . !

وهكذا بدأ رحلة العـودة فى القارب القدسى . . الذى يقوده مـلاح سبتو المخلص ، ويحميه طوال الطريق . .

وقطع جلجميش من الطريق الأول ما مقداره ثلاثون قسما . وعندما بلغ ذلك المكان وجد جزيرة صغيرة فى وسطها بئر قال له الملاح إن بها ماء عذبا يغرى بالاستحمام . .

وخلع جلجميش ملابسه . . وهبط إلى البئر يستحم . .

ولم يكن جلجميش يدرى أن ثمة حية رقطاء كانـت ترقد إلى جوار المكان الذى خلع فيه ملابسه ، شمت رائحة النبتة القدسية فتقدمت منها . . وانقضت عليها فى لحظة . . ثم اختفت . . !

وصرخ جلجميش إذ وجد نبتة الخلود تضيع . . وعاد يبكى كطفل . . وجرت الدموع على خديه شقية مدرارة . . ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا بعد . .

واستأنف جلجميش رحلته حزينا نحو الأرض .

وعندما بلغ أوروك راح يطوف بالهياكل ، ويدعو الآلهة أن ترد الحياة لأنجيدو ولو لحظة واحدة يكلمه فيها .

وبرغم القرابين التى راح يقدمها للآلهة ، بعل وسن ومردوك . . إلا أن أحدا منهم لم يستجب له .

وذهب جلجميش آخر الأمر إلى الإله آى . . فعطف عليه وأمر رسوله نرجيل أن يحضر له روح أنجيدو العزيز . .

وانشقت حفرة فى الأرض . . وانطلقت من خلالها روح انجيدو كنفحة الطيب . . وراح جلجميش يحدث صديقه :

ـ أخبرنى ياصديقى عما رأيته . . فما عدت استطيع الخلود على ظهر الأرض ، وسأنطلق عاجلا أو آجلا حيث تقيم . فما الذى تراه هناك حتى أستعد له . . !

وأجاب أنجيدو :

ـ لا أستطيع أن أخبرك بسر العالم السفلى . . !

وبكى جلجميش . . وراح يلح على صديقه أن يجلس إليه ويحدثه ، ورق له روح أنجيدو . . فأخذ يقص عليه قصة الأهوال فى أرالو . . وكيف تجرى الأمور فى العالم السفلى . .

قص أنجيدو كيف ينام الشهيد الذى يقتل فى المعركة . إنه يرقد على السرير ، ويشرب الماء النقى . . تحيط به أمه وأبوه وأبناؤه وزوجته . . أما الرجل الذى يموت ، وجثته ملقاة فى الحقول . . لاتجد من يقيم على جسده مراسم الدفن بعد الوفاة . . فليس له إلا اختيار طعامه من النفاية والأقذار التى يلقيها الآخرون . .

وختم أنجيدو حديثه وهو يقول :

ـ لقد مت شهيدا . . فسعدت فى العالم السفلى . وإن أمامك الآن الخيار . . !

وفى لحظة . . انشقت الأرض من تحت أنجيدو فتلاشى . . أما جلجميش . . فقد أخذ يطل حوله ذاهلا . ثم خر على الأرض . . وقد ملأته الحيرة بين الرغبة فى الموت . . والرغبة فى الحياة .

أسطورة بابليـة
شـجرة الكـريـز

هـذه الأسطورة تنـازعها كـل من الأدب البـابلى والهندى والإغـريقى. والشجـرة التى تعتبر بطلـة الأسطورة تذكـر مرة على أنها شجرة ورد، ومرة على أنها شجرة تـوت، ومرة - وهى الغالبـة فى كل تلك الأساطير - على أنها شجرة كريز .

ومهما يكن الأمر ، فالصفـة التى تجمع كل هذه الأساطير، هى أن دم العـاشقين اللذين انتحرا ، سقى عروق الشجرة وثمارهـا البيضاء ، فإذا ساقها ترتدى السـواد حدادا عليهما. وإذا ثمراتها تتحول إلى لون أحمر. . رمز الدم الذى جرى خلال حوادث المأساة . !

فى مكان ما على شاطىء الفرات ، تنهض شجرة ضخمة من أشجار الكريز، تتدلى من بين أوراقها ثمرات حمراء قانية كلـون الدم. ومنذ آلاف السنين لم تكن تلك الثمرات تصطبغ بـذلك اللون قـط . . بل كانـت شفافـة بيضاء كلون الثلـج . . عندما كـانت «تسيبا» و« بيرام» لايـزالان يلعبان ويرتعان فى صخـب وضجة أمام منزليهما المتجـاورين على مقربة من سور بابل العظيم .

كان منـزلاهما متلاصقين يشتركـان فى جدار واحـد يفصل بين حجـرة بيرام فى منزل أهله ، وحجرة تسيبا فى بيت أهلها. وكان بيرام يفوق كل صبيان بابل فى وسامته ورونقه واعتدال قوامـه . كما كانت ربة الحب والجمال قد خلعت على الصبيـة تسيبا أروع فنونها وأبـرع ألوان جمالها ومحاسنهـا . وتعارف الجاران الصغيران وتصـادقـا ، وصارا يلعبـان فى الفناء المنبسـط أمام الداريـن كل يوم ، وكـل ساعة مـن ساعات النهـار، حتى اتحدت حياته بحياتها ، ولم يعد أحد منهما يستطيع فراق الآخر على الإطلاق .

ومرت الشهور والسنون. وشب بيرام ، وامتـلأت تسيبا واستدارت ، وبدأ كل منهما يحس فى أعماقه شيئا آخر غير الود الصبيانـى يملأ قلبه . . ود آخر اسمه الحب . . أخذ يتمكن كل يـوم من قلبى الفتيين ، ويأخـذ بقواهما وحواسهما . حتى مـاكان أحد منهما يستطيع أن يتصور غياب زميله عنه لحظات . فهما معا طوال النهار حتى إذا جن الليل

انصرفا على عناق طويل وقبلات حنون . . وانطلق كل إلى فراشه ، وطيف صاحبه يرف عليه بأجنحة الأمانى والآمال والأحلام الرائعات .

* * *

وجاء يوم . . مرت فيه إلهة النميمة بالعاشقين الصغيرين . فملأها الحقد والغيرة لمشهد الحب الطاهر الذى يغمر القلبين الفتيين . وأبى حقدها إلا أن يعمل كما تعود على تحطيم كل ماهو طاهر ونبيل . وتمثلت إلهة النميمة فى ثوب فتاة تدعى « أورانيا» تطل دارها على الفناء الذى يجتمع فيه الحبيبان معتقدين أن لارقيب عليهما هناك . وراحت « أورانيا» ، وفى أعماقها روح النميمة ، تتابع القلبين العاشقين فى نجواهما وتسارهما وتبادلهما نجوى الهوى وحار القبل . وظلت الغيرة تنهش قلبها وهى تشهد كل يوم ألوان ذلك العشق البرىء . وشرعت تلعب دورها الخائن الشرير . .

انطلقت أورانيا تحكى لكل صديقة تجلس إليها قصة العشق بين بيرام وتسيبا ، وتعظم لها فى الأمر وأخذت تلك تنقل الخبر إلى غيرها من بنات الحى مهولا ضخما . وهذه تنقله إلى أخرى أشد هولا وأكثر إثما . وكان لابد أن يبلغ الأمر آذان الوالدين اللذين لم يشكا فى ابنيهما يوما قط . . !

وملأ شعور الإثم رؤوس أهليهما . . فقد دنس الولدان قدسية الأخلاق البابلية ، وداسا تقاليدها التى لاتأذن لشاب أن يهفو إلى فتاة إلا بعد أخذها من سوق الزواج . .

وأسرع الوالدان معا إلى حيث قيل لهما : إن العاشقين الصغيرين يجتمعان . فأدركاهما يتعانقان ويتبادلان قبلات الحب البرىء الطاهر . ولكن الأبوين لم يحسا قط ذلك الطهر . بل أخذهما جنون العار ورعب الفضيحة . . وأمسك أبو تسيبا بشعرها الطويل وأخذ يجرها على الأرض حتى داره وهو يصب عليها اللعنات . ودفع أبو بيرام ولده أمامه يركله ، ويرميه على الأرض كلما نهض . وأبى الأبوان الغليظان إلا أن يحرما على العاشقين الصغيرين أى لقاء . . !

واستمرت قسوة الأبوين عنيفة رهيبة لا تلين . وطفقت تسيبا تتوسل إلى أبيها أن يرحمها ويقبل زواجها بحبيبها . ولكن الأب القاسى أبى إلا أن يذيقها صنوف العذاب ، وما اهتم قط لتوسلاتها ودموعها ، ولا لان قلبه أبدا برغم اجتماع كل نساء بيته عليه يستعطفن ويتوسلن والفتاة المسكينة منهارة أمامهن . . لا تكاد تدرى كيف تعيش . .

وكان بيرام يلقى المصير نفسه فى بيت أبيه . . لا أحد يرحم حبه ، ولا أحد يشفق على

قلبه وهو يتوسل أن يتاح له زواج فتاته التى عشقها وهواها فى جنون.

غير أن الحب لايعرف الهزيمة أبدا . . بل راح اليأس يدفع الفتيين العاشقين إلى التفكير فى وسائل أخرى للقاء . . والبعد عن رقابة الأبوين القاسيين . .

وأدرك الفتيان أن حجرتيهما لايفصل بينهما غير جدار واحد رقيق. فأخذ كل منهما يعمل من ناحيته حتى شقا ثقبا صغيرا لا يكاد يبين بين الحجرتين . . راحا يجلسان إليه، يتشاكيان آلام قلبيهما، ويتبادلان أنفاس الهوى العطر . . بعد أن أصبح الثقب هو سبيل اللقاء والاتصال بين المحبين الغارقين فى الحرمان . . !

منذ ذلك الوقت والثقب الصغير يقوم جيدا بدور رسول الغرام. فهما يسهران إلى جواره الليل كله، يتناجيان ويتهامسان حتى يحين وقت الرقاد . . فيودع الحبيب حبيبه بأعذب الألفاظ وأرقها، ويقبلان الثقب الطاهر، وينصرفان ليعودا مع اليوم التالى إلى اللقاء الحبيب . . !

غير أن الثقب لم يكن يكفيهما على الإطلاق . . وماعاد يستطيع شفاء ما بقلبيهما من تبريح الهوى والشوق، فلم يجدا بدا من ابتكار وسيلة أخرى للوصول بين قلبيهما الصغيرين . ولم تكن الوسيلة سوى مغافلة أهليهما خلال الليل . . وخداع حراس السور . . واجتياز أبواب المدينة . . والفرار إلى الصحراء . .

وعندما اتفق الفتيان على الوسيلة . . قررا أن يكون لقاؤهما عند قبر نينوس الملك . .

* * *

كان يظلل قبر الملك نينوس شجرة كبيرة تتدلى من بين أوراقها ثمرات الكريز . . بيضاء شفافة كقطع الثلج. وإلى جوار الشجرة كان هناك نبع بارد الماء حلو المذاق كأنه عسل النحل . . !

وفى ظل تلك الشجرة اتفق المحبان على أن يكون اجتماعهما بعد طول فراق . .

وسكن الليل، وغفلت العيون، ونهضت «تسبيا» من فراشها، ووضعت على رأسها غطاء يخفى وجهها الوضىء. وسارت فى خفة تتلمس الجدران وتستهدى بها إلى باب الدار. وعندما دلفت منه امتلأت طمأنينة عذبة هادئة . . شجعتها على السير بجوار السور حتى بلغت البوابة الكبرى. ولم يعد بينها وبين الصحراء سوى خطوات.

وأطلت ربة الحب والجمال من السماء فشهدت الحيرة تملأ الفتاة فلا تعرف كيف تجتاز الرتاج والحراس قائمون . . .

وبعثت الربة رسولتها لتهبط بين الحراس تشغلهـم بدلالها وأغانيها وألحان مزمارها. وغفل الحراس عن الـرتاج الذى انسلت منه «تسيبا» كما ينسـل شعاع النور بين ظلمات الليل الداكن الطويل.

وفى حـذر كبير مضت الحبيبـة.. وهى تحس كـأن نبضات قلبهـا دبيب خطـوات عملاق. وكلما سمعت صوتا، أغاثتهـا لمسات الحب فخففت عنها رعبها، وشجعتها على المضى إلى حيث لقاء «بيرام» الحبيب...

وبلغت تسيبـا آخر الأمر قبر الملـك نينوس. فانحنـت على ماء النبع، ومـلأت منه كفيها فغسلت وجهها وروت ظمأها. ثم مالـت لاجئة إلى ظلال شجرة الكريز المخيمة على النبع فى انتظار بيرام.

ولم تكـد تمضى بها لحظـات.. حتى مـلأ سمعها زئير رهيـب ردد صداه الغـاب. وانتفضت الفتـاة فى رعب قاتـل، وانطلقت تجرى مـذعورة على غير هدى حتـى بلغت الغابة القريبة فاستترت بين أدغالها.. ونسيت فى خـلال الرعب منديلها الحريرى الذى سقط عن كتفها وهى تجرى.. واستلقى على الرمال ليرسم أول خيوط المأساة..!

كان الزئير الذى أثـار الرعب فى قلب تسيبا.. صوت لبؤة افترسـت ثورا. وعندما انتهت من تناول طعامها أخذ بها العطش، فانطلقت تبحث عن الماء حتى بلغت النبع الساكـن إلى جوار شجـرة الكريز، فـولغت فى مائه حتـى ارتوت، وبينما هـى تعود إلى الغابة عثرت فى طريقها بالمنديل الحريرى الملقى على الرمال..

وبدا المنديل للبؤة كأنه عدو عنيد. وزأرت من جديد وهى تنهال على المنديل تمزيقًا بأنيابها ومخالبها التى كانت قد غطتها دماء الحيوان الذى افترسته منذ لحظات...

وتلـوث المنـديـل بدم الضحيـة المسكينـة.. واستمـر فى مكـانـه مزقـا ملـوثـة تثير الرعب..!

وكان الـرعب مـن نصيب بيرام الـذى وصل فى تلـك اللحظة يملـؤه الأمل بـاللقاء الحبيب. وكانت اللبـؤة قد توارت وراء الدغل.. بينما تسيبا لاتـزال مختفية تنتفض رعبا وهلعا، ولا تجرؤ على العودة إلى مكان اللقاء...

وظل بيرام يطـل بعينيه يمنة ويسره بحثـا عن الحبيبة التى لم يعـرف ما إذا كانـت قد سبقته أم لاتزال على الطريق.

وأخذت عيناه مشهدا عجبا . . لقد كان المنديل الذى أهداه لحبيبته ملقى على الأرض ممزقا تلوثه الدماء .

وصرخ بيرام فى جنون . . وقد ملأه اليقين أن عذراءه قد التهمها وحش كاسر لم يترك من بقاياها سوى ذلك المنديل المخضب بالدم . .

واستمرت صرخات بيرام رهيبة موجعة تمزق سكون الليل . وطفق الفتى يضرب صدره ورأسه بيديه ويصيح :

- ياليل تبا لك . . لقد شهدت مصرع تسبيا الحبيبة . وستشهد الآن مصرع محبها التعس الحزين . ياليل سحقا لك . . لقد كانت تسبيا أحق منى بالحياة . . ولكنك أنت ، وربة القدر ، ورب الموت ، كلكم وحوش عمى لا تأخذكم رحمة ولا شفقة على قلوب من تصرعون . ولكن لا أيتها الحبيبة ، ما قتلوك وإنما أنا الذى قتلتك . أنا الذى انتزعتك من فراشك الدافئ ، وبيت أسرتك الآمن ، إلى حيث المفازع والأهوال . لماذا لم آت قبلك ياتسبيا . . إذن لكنت دونك فريسة الوحش الظلوم . أواه . . أين أنت أيها الوحش القاتل . . أين أنت جميعا أيتها الوحوش الضارية . . ؟ تعالى . . مزقى جسم بيرام إربا إربا . . فهو الذى قتل محبوبته . . واستحق العقاب على جريمته الشنعاء . افترسينى أيتها الضوارى الكاسرة . فأنا أحق بالقتل والطعن والتمزيق . ولكن لا . . فلن أنتظرك حتى لايطول الانتظار . فلست أطيق أن أعيش لحظة بعد أن ذاقت حبيبتى كأس المنون . أبدا لن انتظرك أيها الموت . فالجبان وحده هو الذى ينتظر الموت ، أما أنا فأسعى إليك . . لست جبانا أيها الموت . . إنما أنا شجاع . . شجاع . . شجاع . . !

وانطلق بيرام فتناول المنديل المخضب بالدم ، وحمله إلى ظل الشجرة وهو يقبله ويبلله بالدموع ومد بيرام يده فأخرج خنجره المسنون ، وانقض به على صدره يثخنه . ثم انتزعه من جرحه وألقى به جانبا قبل أن يسقط ممددا على أديم الصحراء . . مستندا على جذع شجرة الكريز . .

ونفر الدم سخينا قانيا على جذع الشجرة وجذورها فنهلته . وتلونت ثمراتها الشفافة بلون قرمزى كلون الدم الذى رواها . .

وظل الجسد ينفث دما . والمنديل لا يزال منضما إلى مكان الصدر منه ، وسكرات الموت تأخذ به . . .

كان كل ذلك يجرى ، وتسيبا مختبئة داخل الغابة لاتدرى من الأمر شيئا . وظلت الفتاة فى مخبئها حتى أمنت عودة اللبؤة ، فانطلقت تحث الخطى إلى مكان اللقاء الحبيب ، وهى تخشى أن تكون قد تأخرت عليه . . .

انطلقت تسيبا وعيناها تسبقانها لترى الحبيب عند ظلال الكريز . ولكن العينين عرفتا المكان . . وأنكرتا لون ثمار الكريز . . لقد تركتها منذ لحظات بيضاء كالبرد ، ولكنها الآن حمراء كالدم . .

وعجزت عن الفهم . . أتكون قد عادت إلى مكان آخر غير مكان اللقاء . . !؟ أبدا . . فهاهو ذا قبر نينوس الملك . . وهاهو ذا النبع الذى اغتسلت بمائه وهذا هو . . .

ولكن . . ماذاك الهيكل المستلقى تحت الظلام القاتم لايتحرك . . !؟

إنه بيرام . . جثة بيرام الحبيب لايزال ينبثق منها الدم . . !

وانهارت تسيبا المولهة فوق الجسد البارد تحتضنه وتقبله وتمزج دموعها بدمائه . ومن أعماق قلبها راحت الفتاة تهتف :

ـ بيرام . . بيرام أيها الحبيب . . أجبنى يا أعز شىء فى الوجود . إننى أنا تسيبا حبيبتك . ارفع رأسك قليلا وافتح مقلتيك وانظر إلى آلامى وبلواى . . !

وتحت سخونة الدموع ، اختلج الجسد البارد ، وفتحت العينان المغلقتان ، ورنا بيرام إليها رنوة ملأى بمعانى الحب والحنان واليأس . . . ثم انتهى كل شىء . . .

وعادت تسيبا تصرخ وتبكى وتنهار . وتقلب الجسد البارد لعلها تستطيع رد الحياة إليه . ومست كفها المنديل الذى كان لايزال فى يد الحبيب المقتول .

إنه ممزق مخضب بالدم . . وهذا الخنجر . . كيف . . كيف . . !؟

وأدركت تسيبا كل ماكان . . وعادت تصرخ فى جنون :

ـ بيرام . . إذن أنا التى قتلتك . . ومنديلى التعس كان هو السلاح الذى ألقى بك إلى التهلكة . إننى أنا المجرمة يابيرام . . حبى هو الذى سفك دمك . . ولكن لا . . أبدا يابيرام . . أنا أعرف هذا الحب الذى قواك على أن تموت . . إنه هو الذى قوى يدك على خنجرك لتخترق به قلبك . . أنا أعرفه يابيرام . . وأعرف أنه سيمنحنى القوة أنا أيضا لألحق بك أيها الحبيب . . بيرام . . بيرام . . إن تسيبا تسرع إليك . انتظرنى يابيرام . . فهأنذى آتية إليك . . أما أنت يا والدى . . وأنت يا والد حبيبى . . إننى

أرفع إليكما رجاء ولديكما التعسين : ألا تفرقاهما ميتين كما فعلتما بهما من قبل حيين . اتركاهما فى قبر واحد يضمهما كما لم يستطع شىء حتى أن يجمعهما قط . . وأنت . . أنت أيتها الشجرة المسكينة التى شهدت مصرع حبيبى . . إنك ستشهدين مصرعى أنا الأخرى . . فاحفظى أثر استشهادنا فى الحب . . التفى حتى الأبد بعباءة الموت السوداء حزنا علينا . . واجعلى ثمارك حمراء قانية . . تشهد بسوء طالع عاشقين سقياك بدمائهما التى سفكتها أيديهما .

وانطلق الخنجر من جديد فى صدر تسيبا . . ليلقى بها ساخنة ينبثق منها الدم فوق جثة بيرام .

وبكى رب النسيم وهو يحمل إلى آذان الآلهة ، وآذان الوالدين ، صرخات شهيدة الحب وتوسلاتها . فرأفت بها الآلهة ، وجمعت روحها مع روح حبيبها معا فى الفردوس الخالد . . حيث نهار دائم ، ونور نقى ، وفرح لايزول . . .

أما الأبوان . . فقد انطلقا معا يحرقان جسديهما الطاهرين . . ويضعان الرماد فى إناء واحد دفناه فى قبر تحيطه الأزهار والرياحين . أما شجرة الكريز . . فقد التفت بملاءة حزينة سوداء . وظلت ترسل ثمراتها التى كانت ذات يوم بيضاء ، فإذا بها منذ ذلك اليوم حمراء قانية . . بلون الدم . .

أسطورة فارسية
الملك رضوان والأميرة شهرستانى

لم تعرف الأساطير الفارسية أروع من هذه الأسطورة الخالدة فى دنيا الحب والوفاء . . والتى لعبت فيها يد الخيال الشرقى ما لعبت على مر الأيام . . حتى انتهت الأسطورة آخر الأمر لتكون أصلا لوجود بلقيس . . ملكة سبأ . . وزوج النبى سليمان الحكيم . .

كان الملك رضوان شاد يقف مرسلا بصره فى ذهول نحو القصر الذى نهض شامخا عملاقا ، يتلألأ من جوانبه النور ، وتنبعث من نوافذه أهازيج موسيقى شجية رائعة كألحان السماء .

ولم يكن ذلك الذهول الذى استولى على الملك عن عجب لمرأى القصر . . ولكن الذى أثار ذهوله هو أنه لم يكن هناك شىء من ذلك القصر قبل بضع ساعات ، حينما استلقى على جانب النبع فى انتظار خروج الجنية التى ألقت بنفسها فى الماء حين تابعها بجواده ، وظل يتربص بها أن تخرج وهى تأبى أن تغادر الماء حتى أخذته سنة من النوم استسلم لها . . ثم لم يكد ينتبه منها حتى وجد ذلك القصر العجيب قائما حيث كان النبع . ووجد نفسه مستلقيا على أبوابه وإلى جواره « مؤذن » وزيره ورفيق صيده . . !

وعاد الملك رضوان شاد بذاكرته إلى أولى ساعات ذلك الصباح . . كان قد غادر قصر ملكه بعاصمة الصين إلى رحلة صيد كعادته كل يوم . . ومن حوله رجال الحاشية . . وإلى جواره الوزير « مؤذن». وبينما هم يخرجون من الأحراش إلى العراء . . إذ بدت لهم ظبية حلوة تختال طربا . . لم يكد بصر الملك يقع عليها حتى غمز جواده بمهمازه . . وانطلق خلفها أسرع من الريح . . . ولم تكد الظبية ترى مطاردها حتى انطلقت تجرى وتثير من خلفها الغبار . إلا أنه برغم ذلك كله كاد يلحق بها ، فلما وجدت أنها تكاد تقع بين يديه قفزت فى النبع وغابت عن ناظريه فى الماء .

وتوقف الملك بحصانه إلى جوار النبع وترجل . . ثم راح يجس الماء بعصاه بحثا عن طريدته . . فلما لم يجد لها أثرا، تأكد له أنها جنية تقمصت صورة ظبى حتى تستطيع

العبث خلال دورانها بقلوب الصيادين . وعندما بدت له تلك الحيلة أمر رجال حاشيته بالعودة إلى القصر . وظل ينتظر هو ووزيره إلى جوار الماء حتى تخرج الظبية . . إذ كان معروفا أن الجنيات لاتستطيع البقاء طويلا فى نبع به ماء محدود . . .

واستلقى الملك مع وزيره إلى جوار النبع فى انتظار خروج الجنية . . ولكن الجهد الذى كان قد أخذ بهما كان لابد أن يسلمهما خلال استلقاءتهما إلى نوم عميق . . ماكادا يستيقظان منه حتى وجدا نفسيهما واقفين فى ذهول يحملقان إلى القصر الذى انتصب فجأة أمامهما . . كما ينتصب عملاق مهول . . !

وقال الملك يحدث وزيره فى ذهول :

ـ إنى لأكاد أفقد عقلى لمرأى ذلك القصر العجيب . . أترى ماردا من عفاريت الجن ذلك الذى أقامه . . !؟ أو هو قد شبه لنا من طول ماتعبنا وشربنا خلال رحلة الصيد . . !؟

ـ ما أظنه يا مولاى سوى عمل ساحر . . يبغى من ورائه هدفا خسيسا أو مؤامرة مدبرة . فلنذهب بعيدا يامولاى قبل أن يلعب السحر بالعقول فنستسلم له كما استسلمنا للظبية اللعينة الماكرة . !

قال الملك :

ـ بل لابد من ولوج أبواب القصر بحثا عن الظبية وجريا وراء معرفة ما يحتويه ذلك القصر من أسرار . . !

واضطر الوزير للاستسلام لأمر ملكه . . وانطلقا معا فى الطريق إلى باب القصر حيث اجتازاه . . وإذا بهما يتوسطان قاعة واسعة ، كل محتوياتها ذهب وفضة وعقيق ، ومن كل ركن من أركانها ينتشر عطر كعبير الجنة . . واجتازا القاعة ليجدا نفسيهما فى قاعة أخرى أكثر من الأولى سحرا ورونقا . . تتوسطها بحيرة لامعة من زئبق حى . . يترجرج من فوق سطحها عرش من ذهب موشى بلؤلؤ وألماس . . تجلس فوقه حورية حسناء كالبدر . . تحيط بها خمسون غادة فى ثياب من دمقس وحرير . . يغنين ويرقصن . . ويعزفن ألحانا كأنها السحر لم تسمع مثلها الأرض أبدا .

كانت هذه الصورة التى طلع عليها رضوان شاد أروع مما كان يمكن أن يخطر له ببال . . ووجد نفسه ينحنى حتى ليكاد يركع على الأرض أمام سحر النور الذى يشع من وجه المرأة . وانطلق من بين شفتيه كلام كالهمس :

ـ رحماك يا من تجلسين على عرش من ذهب ، وتأسرين بنور وجهك كل القلوب . رحماك يا من جعلت ملك الصين يركع عند قدميك أسيرا تحت سهام لحظك الفتاك . . من تكونين أيتها الحورية التى تعجز عن الإتيان بمثلها الأزمنة والأجيال . . ! ؟

أجابت الحورية من فوق عرشها الذهبى :

ـ أنا من تبعتها بسهامك وأردت أن تكتب لها الموت بحدّ رمحك . أنا الظبية التى أغرتك وساقتك إلى حيث تعيش ، من أجل صرخات حب صاخب فى فؤاد عربيد . . !

قال الملك :

ـ ولكن كيف يكون هذا التحول . . ومن أين أدرك أن حبى لايقع فى شرك مسحور من أجل لحظات كسنا البرق قصار . . ليلقى به بعد ذلك فى أتون من النيران . . ! ؟

ونهضت الحورية وهى تقول للملك :

ـ لاتخش قلبى أيها الملك . . فهو لم يعرف السحر قط . . وما تحولى من صورة إلى أخرى سوى آية وهبتنيها السماء منذ طلعت عيناى على النور . . . !

ومدت الحورية يدها إلى الملك تنهضه وتأخذ به من حجرة إلى أخرى . . حتى انتهيا إلى قاعة تتوسطها مائدة حافلة بكل فاخر من طعام وشراب . . لم يكد الملك ووزيره يجلسان إليها حتى أحاطت بهما كل القيان الحور ، يقمن على خدمتهما ويعزفن ويغنين ويرقصن . . ويرفضن أن يمددن أيديهن إلى المائدة إذ هن لا يجدن ريا وشبعا إلا فى الفيافى والقفار . . !

وطعم الرجلان حتى شبعا ، وتساقيا الخمر حتى ارتويا . . حين شرعت الحورية تحدث الملك وتقول :

ـ ما أحلاك أيها الحبيب ! إننى أنا التى تبثك الهوى برغم مولدى القدسى وأصلك الأرضى . أنا يا من خلقت من نار لم أستطع منذ رأيتك أن أطفىء لهيب قلبى الذى اشتعل حبا لك وشوقا إليك . أنا شهرستانى وحيدة ملك الجن مينوتشير الجالس على عرش جزيرة شهرستان . . أجد نفسى أسيرة هوى لرجل من الإنس لا يمت لى بصلة ولا بنسب . . فأستسلم لهواه ولا أهتم لمضى الزمن ، وقد كان يجب أن أكون بالأمس فى دار أبى الذى غادرته منذ شهور ثلاثة ، أضرب فى الأرض وأطوف أنحاءها لأشهد مملكة الإنس التى لاتشبه فى شىء أبدا مملكة أبى الجنى . ثم وقع بصرى عليك أيها الإنسى وأنا فى طريق العودة إلى ديارى فما استطعت أن أمنع قلبى من السقوط عند

قدميك . . وما عرفت كيف أقع وأنا الجنية فى هوى إنسى قدّ من طين وماء . . وهممت أن أعود إلى جزيرة أبى فى أعماق البحر ، إلا أننى وجدت قدمى مقيدتين إلى الأرض التى أنت عليها فلا أستطيع لهما فكاكا . . وهنا قررت الاستسلام لسهام حبك فانطلقت إليك أغريك فى صورة ظبية . . فتبعتنى ولم تقصر فى العدو خلفى، بينما كنت أزيد فى إغرائك ودعوتك وأنت لا تدرى ، حتى ألقيت بنفسى داخل النبع وأنا أعلم أنك لن تذهب حتى ترى من تكون تلك الظبية التى أوقعتك فى شراكها . . ولقد صدق حدسى إذ رأيتك تتحسس الماء بعصاك فصفقت طربا . . وازداد حبى لك وأنا أسمع فى الأعماق منك تصميما على قضاء الليل إلى جوار النبع . . فألقيت على عينيك غشاوة النوم ، ثم أمرت بتشييد ذلك القصر لنقضى معا فيه أيام حبنا مترعة كأجمل وأحلى مايكون الحب . . فهل أنت راض الآن عما فعلت ، أم تراك ساخطا بى غاضبا على لما بعدت بك عن عاصمة ملكك وحبيب أهلك . . !؟

وانتفض الملك وقد توزع قلبه بين عرشه وناسه وبين تلك الحورية التى اعترفت له بكل ما يملأ قلبها من هوى صاخب عربيد . . .

وسجد رضوان شاد أمام فاتنة الجن وهو يقول :

ـ أيتها الحورية الحبيبة الطاهرة . . ماذا يكون عرشى وناسى إلى جوار أبهى وأعز وأفتن من وقعت عليها عيناى . . !؟ إنما أنت الهواء الذى أتنفس والنور الذى به استضىء . . إن يوما واحدا نقضيه معا فى قصرك العلوى ، لأشهى إلى من قضاء دهر كامل فى جنان فردوس خالد . . هنا وإلى جوارك . . سأعيش . ولن يكون فى ذاكرتى من أمور تلك الأرض شىء إلا ما يذكرنى بهذا اليوم الحبيب الذى ساقتك فيه إلىّ ربة الحب الخالدة ، وسمعت فيه عذب الهوى وحر الحنين . . !

وهنا . . فى تلك اللحظة بالذات . . فتح الباب وألقت إحدى الوصيفات نفسها تحت قدمى شهرستانى . . ومن عينيها تجرى خيوط طويلة من الدموع . وقالت الوصيفة فى صوت كان يحمل فى أعماقه رفيف الموت :

ـ لك المجد أيتها الملكة . . فقد انتقل والدك الملك من الحياة الفانية إلى الحياة الخالدة . . والشعب كله ينتظر عودتك بفروغ صبر . ليضع على رأسك التاج قبل أن يغتاله عمك الذى طالما طمع فى عرش أبيك . فلنعجل يا مولاتى ولا نتأخر فما عاد هناك وقت نضيعه . . !

ومن أعماق شهرستانى ندت صرخة تجاوب رجعها بين الجبال والوديان. وانهارت على صدر رضوان شاد فى نشيج متقطع ملهوف. ولم يكن بد من أن يكفكف الرجل من عبراتها ويمسح بعطفه دموعها الساخنات . . غير أنها كانت قد استسلمت للقدر الذى قدر لها غير ما كانت تريد . . وراحت تقول له والكلمات تخرج شقية ذاهلة من خلال الدموع :

ـ أيها الحبيب الذى لن أنساه . . لابد لى من الاستسلام لحكم القضاء، والذهاب إلى حيث أدفع عن شعبى المسكين ما قد يصيبه إذا اندفع عمى فى شره ليستخلص لنفسه عرش الجدود . فوداعًا أيها الحبيب العزيز . . ولكن ثق أننى لن أنساك . . وسأعود ذات يوم لأراك . . فإذا وجدت قلبك لايزال قائما على حبى وفيا لهواى فأعدك ألا أتخذ سواك زوجا أبدا . . !

ولم تكد تتم كلامها حتى اختفت عن الأنظار . . وتحول القصر الذى كان يتلألأ منذ لحظات ، فإذا به خواء كأن لم يكن هناك شىء سوى ظلمة دامسة ، تغمر بسوادها أقطار الأرض ورحابها . . !

* * *

عندما عاد رضوان شاد إلى قصره ، لم يكن قط ذلك الملك الذى كانه قبل أن يلتقى بشهرستانى . . تحول الملك العربيد زاهدا وقورا ، تحط الأعباء فوق كتفيه وكأنه لم يعد بعد صاحب الأعوام الثلاثين وحسب. وبعد أن كان الملك لايقرب الغابة إلا إذا كان يوم صيد . . إذا به ينطلق فى أعماق الغابة كل يوم، يجلس حالما إلى جوار النبع الذى اختفت فيه الظبية الحبيبة . . لعلها تعود فتخفف عن قلبه حنين الجوى ونار الفراق . . !

ومضى عام وبعض عام .

وذات يوم . . بينما كان الملك جالسا إلى جوار النبع ، إذا به يختفى فجأة . . ولا يترك أثرا لكل من حاول البحث عنه . .

وضج الشعب ، وجن الوزير ، واضطرب القادة . . ولكن أحدا لم يستطع الاهتداء إلى حيث اختفى الملك . . وما عرفوا قط هل ذهب مختارا إلى المجهول، أم هو لقى حتفه وتقطعت أوصاله فى أعماق وحش مهول من وحوش الغابة التى كان يقضى فى أعماقها كل أيامه ولياليه . .

شخص واحد فقط كان يستطيع أن يحدس ماكان . . غير أنه ما استطاع قط أن يصدق حدسه ويؤكده ، وهو لم يكن مع ملكه ساعة اختفى فى خضم المجهول . .

ولقد صدق حدس الوزير . . فقد تأكدت شهرستانى ، وهى بعد على عرشها ، من وفاء رضوان شاد وإخلاصه لحبها وهواها ، فأمرت جنودها من الجن باختطافه من مجلسه إلى جوار النبع ، ونقله إلى قصر ملكها فى جزيرة الجن . . وهناك . . التقى الحبيبان . . ونسى رضوان شاد أمر عرشه وأمر ناسه كما سبق أن وعدها من قبل . . وأبت هى الأخرى إلا أن تنفذ الوعد الذى قطعته له . . وهو أن يتزوجا برغم أنه إنسى من طين وماء . . وهى جنية من نار وهواء . .

وأطلقت شهرستانى المنادين فى جزيرة الجن يدعونهم إلى ساحة قصرها الكبير. . وعندما التأم شمل الجميع ، وقفت الملكة فى شرفة القصر وإلى جوارها رضوان شاد فى أديمه الإنسى، وأخذت تقول :

ـ بحق أبى الذى أقسمتم على طاعته ، وحميتم له عرشه ، وحفظتموه لابنته التى كانت قد انطلقت لتشهد مملكة الإنس بعيدا عن جزيرتكم المحبوبة . . وبحق ذلك القسم الذى أقسمتموه اذ تقلدوننى تاج أبى ، أن تخولونى كل سلطة على مملكة الجن والحور . . أنهى إليكم رغبتى فى الزواج من رضوان شاد الملك الإنسى الذى هجر ناسه وعرشه ليكون إلى جوار ناسى وعرشى . . فإما أن تجعلوه منكم بمثابة الرأس معى وتضعوه حيث وضعتمونى . . وإما أن تتركونى أذهب إلى مملكته ، حيث أجلس معه على عرشه ، وأشاركه حب ناسه وذويه . . !

وهتفت جموع الجن صاخبة :

ـ بحق القسم الذى أقسمناه ، نبارك زواجك ونؤكد لزوجك ولاءنا وإخلاصنا ، بنفس الإيمان والقوة التى أكدنا بها إخلاصنا لك وولاءنا لعرشك . . !

ولم يمض يوم واحد حتى كانت مملكة الجن كلها تتلألأ بأضواء الفرح فى انتظار الاحتفال بعقد قران الملكة شهرستانى والملك رضوان شاد .

وجلست الحورية تحدث الرجل الذى اختارته :

ـ قبل أن ترتبط بى حتى النهاية . . أريد أن أنبهك إلى أشياء قد تعجز عن الوفاء بها فيكون أولى بنا منذ الآن أن نفترق . .

قال لها :

ـ أبدا أيتها الحبيبة . . فأيا تكون هذه الأشياء فلن تعجزني عن الوفاء بها ، مادام ذلك العجز يبعدني عنك ويقربني من الفراق . .

قالت شهرستاني :

ـ إنه لأمر شاق ذلك العهد . . وإنك إذا نكثته فستسبب لنا كلينا شقاء ووبالا يدومان حتى ينتهي بنا العمر . . ولست أخشى إلا أن يشق عليك الأمر فتنكث يمينك . .

وعاد رضوان شاد يقول لها :

ـ أنا طوع أمرك ورهن إشارتك . . وهل يخطر ببالك أنني . . أنا الذي ماكان من عادتي قط أن أنكث عهدا قطعته مهما قل شأنه . . أن أنكث عهدا أقطعه لك أنت يا من تملكين روحي ونفسي . . !

وسكتت الملكة بضع لحظات تستوحي الغيب . . ثم عادت تقول للملك :

ـ إن الذي أريد أن تعاهدني عليه هو ألا تتدخل في أمر آتيه هان شأنه أو عظم ، فنحن حوريات الجن لنا من طبائعنا ما يختلف تماما عن طبائعكم . . ويبدو لكم من تصرفاتنا ما لا يمكن أن تستسيغه عقولكم . . فحذار أن تعترض على أمر آتيه أو أدعه . . وحذار أن يملأك غيظ وضيق أو تبدي تذمرا لشيء أفعله . . فإن ذلك يقطع كل مابيننا وتنتهي أيام زواجنا وكأنها لم تكن على الإطلاق . فهل أنت قادر على الوفاء بالعهد فلا تلومني ، أو تغضب مني مهما فعلت . . أم إنك لابد ثائر غاضب فتسبب لنا ما لا نطيق . . !؟

أجاب رضوان شاد وهو يضحك :

ـ أيكون ذلك هو كل ماتحذرينني منه وما تخشين أن أقع فيه . . !؟ أبدا أيتها الحبيبة . . ليمتلىء قلبك ثقة بقدرتي على الوفاء بالعهد ، وإيمانا بأن ذلك الأمر الذي تعتبرينه شاقا ليس أسهل منه لدينا نحن بني البشر . . !

وعادت شهرستاني تتأمل الغيب في مسحة من الحزن ثم قالت :

ـ أواثق أنت أنك لن تعترض قط على فعل آتيه ولو بدا لك شاذا مجانبا كل الصواب؟ أواثق أنت أنك ستكون مقتنعا من أن ما أفعله إنما هو ضرورة تمليها على شريعتي وعقائدي ، وتجبرني على ألا أكشف أمرها لجني ولا إنسي قط . . !؟

وانحنى رضوان شـاد فلثم كفيها وهو يقسـم أن يكون عند حسن ظنهـا راضيا بكل ماتفعله غير معترض على شيء تأتيه . .

واقتنعت الملكة . . وصار رضوان شاد شريكا لها على عرش الجن . . !

* * *

وانقضى عام . .

وذات يوم . . أغلقت الملكة على نفسها الباب ومنعته مـن الدخول . . وعندما فتح الباب من جديد كانت الملكة تحمل وليدا رائعا كأنه البدر . راح يقبله ويحتضنه ويكاد يرقـص من الطـرب . . وتناولـت الأم منه الطفل ثـم وقفت بقـرب نار تضطـرم فى ركن القاعة . . وراحت تتمتم بألفاظ غريبة لم يستطع أن يفهم منها شيئا قط . ثم فجأة . . مدت يدهـا بالوليد وألقـت به فى النار التى مـا أسرع ما ابتلعته ثم خمدت وكـأن لم تكن هناك نار على الإطلاق . . !

وكادت الصرخـة تنطلق داوية مـن فم الملـك . . لولا أن انتبه إلى نفسـه فى اللحظة الأخيرة ، وتذكر العهد الذى قطعه فكتم ألمه ، ورسم على شفتيه بسمة الرضا ، حين كان فى الأعماق منه اضطراب مجنون .

وانقضى عام آخر . .

وذات يوم وضعت الملكة مولودة جديدة أروع جمالا من الملكة نفسها . . وراح الملك يحتضن بلقيـس ويقبلها ، وهـو يتوقـع فى كل لحظة أن تـأخذهـا الملكة منـه فتلقيها فى النار . غير أن شيئا من ذلك لم يقع فى ذلك اليوم . . فـاطمأن قلبه وامتلأ حبا لزوجته وابنته . وما عاد يطيق فراق أى منهما لحظة واحدة . .

غير أن الملك فـوجئ بعد أسبـوع بكلبة عملاقـة تدلـف من باب القصر . . فـاغرة فمها الكبير، ثـم تنطلق لتقعى أمـام الملكة التى لاتكاد تـراها حتى تلقـى ببلقيس بين فكيها .

وكاد الملـك ينفجر . . وارتفعت يده تكـاد تنقض على الكلبة ، والملكة معـا ، لولا انتباهة جعلته يدير يده وكأنه يحيى الكلبة قبل أن تمضى . . ثم انطلق إلى مخدعه وأغلق من خلفه الباب . . وراح يبكى وحده ويقول :

- أواه منـك أيتها السفـاحة القاسيـة . . ألا ما أقـذر ضميرك وأحط نفسـك وأنت

تحرقين ولدك وتلقين بابنتك فى أفواه الكلاب، أيكون كل هذا لأن تقاليدك تأبى أن يكون لك أبناء من إنسى ليس من جنسك . . !؟ ألا ما أفظعك أيتها الملكة . . وألا ما أحقرنى إذ أطيق أن أرى ولدىَّ يلقى بهما إلى ذلك المصير. ولكن لا . . إن لصبرى حدودا أيتها المرأة . . ولن احتمل قط أنا البشرى ماتسيغه لكم شرائعكم المخيفة وعاداتكم الرهيبة . . !

وانطلق رضوان شاد ـ وقد رسم على وجهه بسمة الرضا وكأن شيئا لم يكن يدور فى أعماقه منذ لحظات ـ وراح يحدث الملكة فى شؤون مملكتها . . ثم بدأ يدير دفة الحديث لينقله إلى ما يضمر ويريد . .

قال الملك لشهرستانى :

ـ لكم شاقنى أمر مملكتى وما دار فيها منذ تركت شعبى المسكين حائرا فى مصيرى خائفا مما يكون ألم بى . . ألا ليتك تأذنين لى بالذهاب إليهم أطمئنهم وأنظم أمورهم ثم أعود . . !

وابتسمت الملكة وهى تجيب :

ـ فليكن لك ماتريد أيها الحبيب . . ولقد كنت أنا نفسى بسبيل أن أطلب منك ذلك، إذ بلغنى أن بلادك فى حاجة إليك وقد استعد المغول لمهاجمتها والسير إليها فى جيش لم تر مثله الأرض قط . . اذهب أيها الملك لتحمى شعبك الذى لن يستطيع أن يقف وحده فى وجه المغول إلا إذا كنت على رأسه . . أما أنا يا زوجى العزيز فسأحرص على أن ألحق بك لأطمئن على نجاتك . . والنصر لك . !

وصفقت الملكة، فبرز أمامها مارد من الجن لم يره من قبل . . أصدرت له أوامرها بنقل الملك إلى قصره الأرضى . .

ولم يكد الملك يطرف بعينه، حتى وجد نفسه جالسا فوق عرشه فى عاصمة الصين . . !

فى ذلك الوقت كان الوزير مؤذن يحكم الصين باسم الملك الذى غاب فجأة قبل ذلك بسنتين . فلما أطل الوزير أمامه ووجد الملك جالسا على العرش فتح عينيه كأنما رأى الشيطان . . ولكنه انتبه إلى نفسه بعد لحظات، فجثا أمام العرش، ثم مد ذراعيه يحتضن الملك الذى كان يملؤه العجب من ولاء وزيره ووفائه . . إذ حرس العرش وحفظه شاغرا رغم طول مامضى من شهور وأعوام . .

وراح الملك ووزيره فى خلال فرحتهما باللقاء يتحدثان عما مر بهما من أحداث . وفجأة . . فتح الباب ، ودخل أحد القادة يعلن اقتراب جيوش المغول .

ونهض الملك ووزيره فألقيا عن كاهليهما حديث الماضى ليواجها الحاضر فى ثبات .

وتجمعت جيوش الصين صاخبة هادرة ، وانطلقت وعلى رأسها الملك ووزيره لملاقاة المغول فى أرض رحبة ، بالقرب من الحدود . . بينما كان القائد « ولى» يعد قوافل المؤن من ثمار وخبز وطعام وفاكهة وزقاق من خمر، يجمعها ويرسلها مددا للجيش الذى وقف فى انتظار وصول المغول . .

غير أن قوافل المؤن لم تكن تبلغ مقصدها أبدا . . فخلال الطريق ، وقبل أن تصل إلى مكان تجمع الجيوش . . كان هناك جيوش أخرى من الجن وعلى رأسها شهرستانى تهاجم القوافل فتفرقها وتلقى المؤن على الأرض فتفسدها ، وتبقر قرب الماء والخمر فتهرقها . . وتصير المؤن كلها بددا . . !

وتكررت الهجمات على قوافل المؤن حتى كاد القائد « ولى» يجن . وحينئذ برزت له شهرستانى فى زيها الإنسى وصرخت فيه :

ـ إذا كنت غاضبا مما أفعل ، فاذهب إلى ملكك وقل له إن التى تعيث فى المؤن فسادا وإتلافا ليست سوى زوجته . . !!

وانطلق « ولى » فى غضبته يخبر الملك . . . فأخذت به ثورة عارمة جبارة لم يطق معها صبرا على تصرفات الملكة التى لم يعد يهمها أن يقضى جيشه كله جوعا وعطشا . . ولم يكن الغضب المجنون قد زال عنه حين ظهرت له زوجته . . فلم يدع لها فرصة الكلام ، بل انطلق فى وجهها صارخا متجهما :

ـ لم أعد أطيق ماتفعلينه ياسيدتى . . فدون ذلك خرق المواثيق وفصم الوعود . . أما كفاك أن أحرقت ولدى وألقيت بابنتى فى أفواه الكلاب . . فتذهبين إلى أبعد من ذلك وتسعين إلى قتل جيش بأسره بتحطيم مؤنه من طعام وشراب . . !؟ أما كفاك ياسيدتى أنك تريدين قتلى أنا نفسى فما أستطيع أن أقف حيا وسط جيش يموت ، نواجه جيشا بأسره من المغول لايبيدون . . أهكذا تكافئيننى على وفائى وتضحيتى أيتها الخائنة الجحود . . !

وكانت الملكه فى خلال ذلك قد فتحت عينيها فى ذهول وقد علتها صفرة كالموت . ولم يكد الملك ينتهى من كلامه حتى قالت الملكة تحدثه فى صوت مفزع رهيب أجوف . . . !

ـ وا أسفا أيها المسكين . . لقد كان يجدر بك أن تلـزم الصمت فتحفظ الوعد الذى قطعته من قبل . . ولكـن . . واحسرتاه . . لقد وقع ، مالم أكن أريـد أن يقع قط . . . وحدث مـالم يكن ثمة حيلة فى اتقـائه . فلتسمع أيها الإنسى المسكين . . إن هـذه النار التى ألقيـت بولدنا إليهـا لم تكن سوى « سمديـر» ربة الشتاء اللبقة الحاذقـة . عهدت إليها بتثقيف الأمير . . وهذه الكلبة التى ظننتنى ألقى بابنتى فى فمها . . لم تكن سوى حوريـة المملكة التـى تتولى تلقين الأميرات أصـول الآداب والفنون . . ولقـد أتمت كل منهما ماعهد به إليها . . وأعادتا الولدين كخير مايكون الأمراء . . !

وصفقت الملكة فإذا وصيفتان مـن الحور تدخلان وبين أيديهما الأمير والأميرة ينطلق من محيـا كل منهما نور وضـىء . . وجثا الملك على ركبتيـه يعانقهما ويحتضنهما . . حين استمرت شهرستانى تقول :

ـ أما المؤن التى تظننى أتلفتها ، فلم تكن سوى مـؤن مسمومة كانت كفيلة بالقضاء على جيشك وأنـت معه . . فقد دس فيهـا قائدك « ولى» السم الناقـع بعد أن تآمـر مع ملك المغول وأخذ رشوة مائة ألف دينـار ذهبا . . وإذا لم تكن تصدقنى فلتحمل القائد على تناول شىء من المؤن ولتر مايحل به . . !

وأمر الملك بإحضـار بعض المؤن وختم القائد لايزال عليها . . فقـدمها إليه وأمره أن يطعم منها . . غير أن القائد رفـض ونحاها عن فمه . . واستل الملك سيفـه وهو يأمره بأن يأكـل وإلا فصل رأسه عن جسـده . . . فأضطر القائد لـلاستسلام . . ووضع فى فمه بعض المؤن ، فلم تكد تبلغ جوفه حتى سقط ميتا فى الحال . . !

وبينما كان الملك يمتلىء اقتناعا ، كانت هى لاتزال تستأنف الحديث الذى بدأته :

ـ لعلك اقتنعت الآن أن الجن لايقدمون على شىء لاموجب له . . !

أجاب الملك وهو يعتذر فى حرارة وألم :

ـ لكم ظلمتك ياحبيبـة . . وما كان أفسدها ظنونا وأسوأهـا تهما ، تلك التى ألقيتها على رأسك . . ولكن . . ما الذى نفعل الآن بذلك الجيش الذى يقف مضطرا لمواجهة معركة رهيبة بغير زاد أو ماء . . !؟

أجابت شهرستانى :

ـ لاتخش شيئا يا ملك الصين . . . فما عاد جيشك بحاجة إلى مئونة والمعركة ستدور

بعد ساعات . . وتنتهى بتمزيق أعدائك وتحطيمهم ، وعودتك إلى عاصمة ملكك فائزا منصورا . . !

وكان هـذا هو مـاحدث حقـا . . فما كاد الليـل ينتصف حتـى انقض المغـول على جيوش الصين . وهنـا تقدمت شهرستـانى على رأس عسكرها مـن الجن وانقضت على جيوش المغول تثخن فيهم قتلا وتكتسحهم كإعصار . . .

وفوجئ الملك المغير بجيـوشه تتمزق وتنهار . . ولم يجد أمامه سـوى أن ينجو وحده . . فطار بفرسه هاربا من الميدان . . حين كانت جيوش الصين ، وقد أسكرها النصر، تستولى على كل ماتركه المغول من زاد وعتاد . . وذهب وفير . . . . !

وبينما رضوان شاد يقـف على باب خيمته يستقبل زوجتـه وقائدة جيش الجن . . إذا بها تقف منه غير بعيد . . ثم تقول له وفى نبراتها حزن عميق :

ـ الآن يا ملـك الصين . . وقد وضعـت الحرب أوزارهـا وبلغت النصر . . فلتعـش مطمئنا فى قصرك ، وسأنطلق أنا عائدة إلى مملكتى . . فما عاد بيننا لقاء قط . . إذ ذهب كل شىء مع تسرعك الذى أوقعك فى المحظور . . ! !

وجحظت عينا رضوان شاد وهو يصرخ :

ـ كـلا يـامليكتـى . . لايمكن أن يحدث هـذا . . فبحـق السماء اغفـرى لى زلتـى وجهلى . . واقبلى التوبة التى أقدمها وأنا تحت قدميك الحبيبين . .

وهزت شهرستانى رأسها وهى تستعد للابتعاد وتقول :

ـ لم يعد بد مـن الفراق ياملك الصين . . فهكذا تقضي شريعتنـا . . ولو كان العفو بيدى أنا وحدى لفعلت . . والآن وداعا أيها الملـك . . وعبثا تحاول بعد ذلك أن ترانى أو ترى ولديك . . فلن تقع علينا عيناك قط بعد اليوم . . !

واختفت شهرستانى وولداها . . وسقط رضوان شاد على الأرض وقد فقد الوعى . . !

مضت الأيام ثقيلة سوداء على الملك . . وما عاديطيق لقاء أحد قط . .

وازداد به الضيق حتى قرر آخر الأمر أن يدع الحكم لوزيره ينوب عنه فى تصريف كل الأمور . . وانطلـق وحده معتزلا الناس فى جنـاحه ، وقد أغلق مـن ورائه الباب ، لايجرؤ أحد على فتحه أو الاقتراب منه سوى الوزير وحـده . . يأتيه بطعامه وشرابه ، ويتلطف فى إدخال العـزاء إلى نفسه التى مـاعاد ينفعهـا سلوى ولاعزاء . . فـالحزن يقتلها ، والألم يهوى بها ، والموت يزداد اقترابا من الملك المسكين .

وانقضت أعوام عشرة كان الملك خلالها قد بات على شفا القبر . .

وبينما هو جالس ذات يوم يبكى ويحسب الزمـن الذى انقضى وهو بعيد عن زوجته وولديـه ، إذا بشهرستـانى نفسها تظهـر أمامه . . وعلى وجهها فرح كبير . . وأحـاطته بذراعيها وهى تقول :

ـ ها قد عدت إليك أيها الحبيب . . لأضع حدا لآلامك وأحزانك وأعيد إليك نضرة الحياة . . لقد انقضت الأعوام العشرة التى تقتضينا خلالها شريعتنا أن نبتعد عن الحانث فى يمينه . . فلا نراه إلا بعد تلك المدة إذا ظل مقيما على العهد وفيا تائبا . . والحق إننى لم أكن أتصور يوم ودعتك أننى سـأراك . . فما تخيلت أن بشراً يستطيع تحمل تلك المدة الطويلة مخلصا صابرا ثابتا على الوفاء . . وكنت مؤمنة بأنك ستنسانى وتضع سواى على عرش قلبـك وعرش وطنك . ولكـن ذلك الوفـاء الذى أبـديته وأنت تقضـى السنوات العشر تبكى وتنتحب ، كان فيها الكفاية لإثبات حقى فى العودة إليك . . أيها الحبيب . . بل حقى أيضا فى إحضار ولديك . . !

وفى اللحظـة ذاتها ، انطلق مـن خلفها صبيـان ألقيـا بنفسيهما فى أحضان والـدهما الذى كاد الفرح يقضى عليه . . والتقى الأربعة بعد ذلك فى عناق واحد طال حتى كاد اليوم ينقضى كله . . .

وعندما استفاق الجميع . . انطلقوا إلى حيـث الشعب المتعطش إلى فرحة الملك . . فأقيمت الأفـراح فى كل أنحاء الصين . . وعاد رضوان شاد يجلس على عرشه . . وإلى جواره شهرستانى . .

ولم يكن أحـد يدرى بعـد ، أن ابنتهما بلقيس ستجلـس على عرش شهـرستان بعـد أعوام . . لتصبح بعد ذلك . . زوج سليمان الحكيم . . !

أسطورة فارسية
رستم وملك الجن

كان الفرس يتغنون ببطولة رستم . . بطل الأبطال . . حتى لقد سموا قوس قزح بقوس رستم . وكانوا يبالغون فى بطولته حتى نسبوا إليه الخوارق . ولم يكتفوا بانتصاراته الرائعة على جيوش الإنس . . بل نسبوا إليه حروبا أخرى ينتصر فيها على الجن والشياطين والسحرة أيضا . .

أما مسرح هذه الأسطورة ، فبلاد مازندران أى طبرستان ، التى يسمونها أرض الجن الأبيض ، لأنهم كانوا بيض الوجوه . . واستطاعوا ذات يوم القضاء على جيش أوفده إليهم معاوية ، إذ فاجئوه من فوق الجبال بوابل من الحجارة والصخور . حتى هلك أكثره . . ولعل هذا هو سبب تسميتهم بالجن . . ولعل فى طبيعة أرضهم ومضايقها مايفسر مغامرات هذه الأسطورة .

كان « قابوس » ملك فارس ، جالسا على سرير ملكه حين وقف ببابه مغن حاذق من بلاد مازندران . وكان الملك مولعا بالشعر والغناء ، فأذن للغريب بالدخول عليه وتقديم بعض ألحانه .

وأخرج الغريب عوده ، وجس أوتاره ، ثم انطلق فى صوت كأنه الطيب ، يصف جنان الخلد التى تضمها مازندران ، ويحكى أقاصيص الهوى والعشق التى تعيش فيها عذاراها الرائعات . وطرب الملك للغناء ، بقدر ما اشتاق إلى تلك البلاد التى لم يذهب إليها من جيوش أجداده جيش قط . وفى غمرة النّشوة بالطرب والشوق ، قرر « قابوس» أن يستولى على بلاد الجنة . . وأن يجعل له عاصمة هناك . !

وأخذت الرعدة كل من بالمجلس . . فما من أحد إلا ويعرف أن مازندران مأوى الشياطين وموطن السحرة ، يعيشون فيها جنبا لجنب مع السباع والنمور والدببة والذئاب . ولكن أحدا من رجال القصر لم يجرؤ على رد الملك عما ارتآه . . . حتى جؤذر قائد الجيش امتثل للأمر ، ولم يستطع إلا أن يأمر كل قواته بالاستعداد للخروج للمعركة الجديدة . . وعلى رأسها قابوس نفسه . . ملك الفرس . .

ونزلت جيوش « قابوس» على حدود مازندران وانقض رجال الطليعة على المدينة التى لم تكن قد استعدت بعد ، فلم تدر إلا وحشود هائلة تخترق أبوابها ، وسيوف طويلة

تقتلع رؤوس الصغار قبل الكبار . . ومشاعل من نار تحرق وتدمر، ولا تبقى من بيوتها ومغانيها شيئا قط .

وبلغ أمر الهجوم أذنى ملك البلاد . فألم بـه الحزن ، ثم رفع رأسه ينـادى أحد جنود الجن وقد عرف بالمكر والدهاء . . وأمره أن ينطلق إلى سبيذديو ملك الجن يخبره بما صنع قابوس . . !

وانتفض ملـك الجن حين سمع النبأ . ولم يكد الليـل يهبط حتى كان قـد انقض فى جنوده على معسكر « قـابوس» فأطبق عليـه إطباق السحاب ، وأمطر عليـه من السماء حجارة ونصالا . . ثم أرسل جحافل الظلمة تحوطـه من كل جانب ، وتجعل الجيوش فى أعماق ليل دائم طويل .

وأطل رجـال الفرس ، فإذا بهم غارقـون فى بحر أسود كـأنه القار، لايرى أحـد من حولـه شيئا ، ولا يبصر إذا أراد حتى كفه . وعنـدما اطمأن ملك الجن سبيـذديو إلى أن أعداءه قد حبستهم الظلمة ، ولم يعودوا يـرون قمرا ولاشمسا قط . . وكل بهم اثنى عشر ألفا مـن الشياطين تحوطهم وتمنعهـم . . وأمرها ألا تسمـح لأحد منهم بـالخروج سوى واحد فقط . . ليذهـب إلى أهل بلده يقص عليهم الأمر ليعتبروا . . وليعـرفوا أن الهجوم على إقليم الجن والشياطين ليس من ورائه سوى الخسران . . !

واستطاع رسول « قابوس» أن ينفذ فعلا من الحصار . ولكنه لم يذهب إلى بلاده ، بل انطلق إلى الملك دستان أبى رستم يستغيث بـه . ويطلب النجدة منه على جيوش ملك الجن . . !

وحزن دستان لما ألم بصديقه قابوس، ، وأقبل على ولده رستم البهلوان وقال له :

ـ إلى النجدة أيها الفارس الذى إن حارب البحـار صارت دماء ، وإن كافح الجبال عـادت فضاء . جـرد سيفك وخـذ فرسـك وانهض إلى مـازندران ، تـدق عنق ملكهـا وتخلص الأرض من شرور جنها . فإذا بدأت السير فلا تأخذ الطريق الطويل السهل بل خذ أقصر الطرق لتكون أسرع إلى النجدة . . فهو لايزيد عن مسيرة أربعة عشر يوما . . على أن تحذر خـلاله مـا يحتـويه مـن شيـاطين وسباع . . وسـأنهض أنـا لأسجد لـرب السموات أن يحميك ويحرسك ويردك إلى أبيك مرفوع الرأس منصورا . . !

ونهض رستم فلبس سلاحه وركب فرسه «الرخش» فكأنه فيل على فرس . وانطلق فى الطريق الوعر الشاق ليكون أقرب إلى نجدة من استنجد ، وإغاثة من استغاث .

وراح رستم يخترق الصحارى الواسعة التى تلتهب أرضها بالنيران، ولا أنيس له غير سيفه وفرسه. وظل يمضى مع النهار ومع الليل حتى انقضى يومان لم يأكل خلالهما شيئا من طعام قط. فلما انتبه إلى نفسه وأحس الجوع، أطل حوله يبحث عن صيد، فإذا حمار وحش يروح هنا وهناك فانقض عليه فى لحظة وصرعه.. ثم شواه على نار أوقدها وأتى عليه جميعه. وعندما أحس رستم بالشبع، أوى إلى ظل قصب هناك. وترك فرسه «الرخش» يرعى فى أجمة بين يديه، واستسلم هو لنوم عميق...

ولم يكد رستم ينام حتى خرج من الغاب أسد راح يقترب فى بطء من البطل الراقد كركن جبل، وانتبه «الرخش» فوثب عليه، وضربه بقائمتيه ففلق رأسه ومزق جلده، وتركه غارقا فى لجة من الدم. وعندما استيقظ رستم ورأى صنيع فرسه، أقبل عليه ومسح غرته بيده وقال له: لو انتبهت لكفيتك شر القتال...

وعاد رستم يسير فى الطريق الموحش من جديد. وطالت مرحلة السير، والهجير يشتد حتى بلغ به العطش حد الهلاك. وكاد رستم يقع على الأرض حين لاح له غزال أعاد إليه نشاطه، فحث فرسه وأسرع خلفه.. فإذا الغزال يقف عند عين ماء يشرب منها ثم يستأنف عدوه.

وعندما رأى رستم الماء توقف عنده، وشرب وسقى فرسه.. ولم يتبع الغزال إذ حمد له أن هداه إلى الماء. ثم عاد يستأنف سيره حتى جاع، فاصطاد حمار وحش شواه وأكله. ثم استلقى لينام...

وبينما هو نائم خرج عليه تنين هائل تحرق أنفاسه ما حوله من الحشائش، ولم يكد الفرس يراه حتى أسرع إلى رستم فأيقظه بصهيله، وضرب حوافره فى الأرض. وإذ رأى رستم التنين حمل سيفه وهاجمه، ونشبت بينهما معركة طويلة دامية كادت تنتهى بهزيمة البطل، لولا أن نهض الفرس لمساعدة سيده، وحمل على التنين وقضم كتفه بأسنانه فقطعه، وانقلب التنين على ظهره فألقمه رستم السيف فشقه، ثم رجع إلى العين فاغتسل بمائها، ومضى لسبيله من جديد.

استمر رستم فى سيره يخترق الفيافى والقفار حتى بلغ لأول مرة أرضا خصبة كثيرة الخيرات. فأرسل فرسه يرعى، واتكأ ليستريح. وبينما هو كذلك جاءه ناطور تلك الأرض وصاح طالبا منه إبعاد فرسه عن أكل الزرع، وضربه على رجله بعصا كانت معه. وثار غضب رستم، وهجم عليه وجذبه من أذنيه فاقتلعهما. وحمل الناطور أذنيه الداميتين، وعدا هاربا إلى «أولاذ» ملك الناحية. فانطلق هذا ومعه حرسه إلى حيث

كان رستم الذى ركب فرسه وحمل عليهم ووقع فيهم كما يقع الأسد الهائج بين قطيع من الغنم. وتساقطت رؤوس أصحاب أولاذ الذى انطلق يتلمس سبيل الهرب. غير أن رستم عدا خلفه وقبض عليه . . وشد وثاقه وألقى به مقيدا بين قدميه . . .

وقال رستم يخاطب أولاذ :

ـ الآن أطلب منك طلبا وأعطيك عهدا. فإن أنت دللتنى على ملك الجن سبيذديو وأوصلتنى إلى المكان الذى حبس فيه الملك « قابوس» ، جعلتك ملكا على عرش مازندران . . .

وقبل أولاذ الاتفاق . . ففك رستم قيده ، وجعله يسير بين يديه ليدله أولا على مكان قابوس . وبينما هما فى الطريق إذ شهد رستم عن بعد نيرانا موقدة وشموعا مشتعلة ، سأل عنها أولاذ فأجابه :

ـ ذلك ياسيدى باب مدينة مازندران يحرسه قواد ملك الجن وجنودهم . . وهم لاينامون ثلثى الليل . .

فانتظر رستم حتى جاء الثلث الأخير الذى يستسلم فيه الجن للنوم فحمل عليهم . وخرج له قائد الجن « إرزنك» واشتبك معه فى صراع هائل عنيف ، انتهى عندما أنشب رستم براثنه فى عنقه ، واقتلع رأسه فحمله على ذبابة السيف . وشهد جند الجن ماصنع رستم بقائدهم ففروا هاربين . وعاد هو يسير مع دليله أولاذ إلى حيث يلتقى بقابوس . .

ووجد رستم الملك « قابوس» غارقا فى الظلمة ، قد عمى بصره وأحيط به مع كل جيشه . واستقبله « قابوس» والجيش فى فرح غامر، ثم طلب منه أن يسرع بمفاجأة سبيذديو ملك الجن قبل أن يبلغه نبأ مقتل قائده ، وقبل أن يعلم بمجيئه . . وقال له إن العمى الذى أصابه لايشفى إلا إذا اكتحلت عيناه بدم كبد ملك الجن .

ومضى رستم وأمامه دليله الملك أولاذ ، ومضيا يسيران مخترقين جبالا سبعة هى التى تفصلها عن المغارة التى يقيم فيها ملك الجن . وخلال الطريق أخبر أولاذ رستم أن الجن ينامون إذا حميت الشمس . . ويكون ذلك الوقت هو خير الأوقات لمهاجمتهم .

وانتظر رستم حتى ارتفعت الشمس . وإذ جاء الضحى امتطى فرسه وهاجم الشياطين وراح يعمل فيهم سيفه يمينا ويسارا حتى بلغ باب المغارة فوجدها غارقة فى الظلمات . ولم يعبأ رستم بالظلام بل اقتحم المغارة بفرسه يطلب سرير ملك الجن . وعندما بلغه وجد سبيذديو واقفا ووجهه أسود كالليل ، وعيناه يندلع منهما لهيب

كالجحيم . . . وشعره الأبيض يتشعب فوق رأسه . ولما رأى ملك الجن رستم وثب عليه فى حنق ، وانتبه رستم ، ورفع سيفه ثم انقض به على ساق سبيذديو فقطعها . . والتحم الاثنان فى قتال مـر عنيف . . كان الدم ينزف خلالـه من جرح الجنى غزيـرا يضع حدا لمقاومته . . ويسلمه لهزيمة سريعة قاسية .

وكان لابد لرستم أن ينتصر بعد أن بدأ سبيذديـو ينهار ويتساقط ، وهناك رماه رستم فى عنف على الأرض فسقط . . وانقض عليه بسيفه فقضى عليه وعندما اطمأن إلى موته انحنى عليه وقد استل خنجره وشق به جنبـه واستخرج كبده . ثم غادر المغارة فى زهو، وانطلق ومعه أولاذ إلى حيث كـان « قابوس» لايزال ينتظر فبشره بمقتل عـدوه ، وقدم له كبده . . وشكره الملـك وأثنى عليه ، ثم اكتحـل بقطرات من دم كبد الجنـى فعاد إليه بصره . ورأى من حوله كل شيء . .

واحتفل ملـك فارس وقواده ومعهم رستـم وأولاذ بالنصر الكبير سبعة أيام كـاملة . وعندمـا جاء اليـوم الثامن انطلقـوا شاهـرين سيـوفهم فانتشروا فى مـدينة مـازندران ، وأعملوا فيها الضرب والقتـل بعد أن فتحوها . . ثـم قرروا أن يرسلوا إلى ملكهـا يطلبون منه التسليم ، أو يقتحمون كل أملاكه وينزلون به القضاء . . . !

ونهض رستم طالباً أن يكـون هو نفسه رسول « قابوس» إلى ملـك مازندران وانطلق البطل على « الرخـش» حتى بلغ مكان الملـك الذى أمر قواد الجن وخير الفـرسان وأبرع الشجعان ليكونوا فى استقبال رستم ، وليطلعوه على مدى قوتهم . . .

وشهـد رستم مـن بعيد مستقبليـه ، فمال على شجرة قـريبـة ورفعها كما تـرفع عصـا الخيزران . واقترب بها منهم ثم رماها عليهم ، فـاضطرب شملهم وكاد يقع أكثرهم بين قتيل وجريح . . .

واقترب أحـد أبطالهم مـن بطل الفـرس وقبض على يـده . ولكنه لم يهتـم بالضغـط العنيف الذى أخذ الفـارس يضغطه على يده ، فلما انتهى ، مد هو يـده إليه وعصر كفه حتى تغير لونه ، وشحب وجهه ، وبدأ يصرخ .

وسمع الملك بما كـان ، فدعا إليه جنيا يسمـى كلاهور هو أقـوى من فى معسكره ، فأمره باستقبال الرسول وإظهار قوته أمامه . ومد كلاهور يده إلى يد رستم فعصرها حتى صـارت زرقاء كـالسماء . . ولم يبد على وجـه رستم شـيء من الألم ، وعنـدما جـاء دوره ليحيى كلاهـور ، عصر كفه حتى تساقطت أظفاره . . وصرخ الجنـى وانطلق إلى الملك

يغلى ويرتعد ويقول له : السلم خير لك من الحرب يامولاى . . فلا قدرة لنا على مقاومة مثل هذا الوحش . . !

وفى تلك اللحظة دخل رستم . فأجلسه الملك فى مكان يليق به ، وطلب أن يبلغه الرسالة التى يحملها .

وألقى رستم بما لديه ، فى صوت جهورى عنيف . ولم يكد ينتهى حتى ثار غضب الملك وقال له :

ـ قل لقابوس : إن كنت ملك فارس ، فأنا ملك مازندران المستقر على عرشها الخالد أبدا . . فارجع إلى مملكتك ولا تحدث نفسك بالاستيلاء على عروش الملوك . فإنى إذا زحفت فى جيوشى نحوك لم تعرف رأسك من ذنبك . وإنى إذا واجهتك فى مأزق الحرب حسمت موقفك بسيفى الصارم الذى لايخيب . . !

وغضب رستم من رد الملك . وانطلق عائدا إلى قابوس فأخبره بما حدث . وطلب منه أن يتأهب ويتقدم للقتال . . .

وكان ملك مازندران قد استعد منذ خرج رُستم من حضرته ، فأمر بضرب العسكر فى ظاهر المدينة ، وانطلق فى جيش جرار لا حصر له آخذا طريقه لاستقبال جيش رستم وقابوس . والتقى الجيشان . وتقدم فارس جنى عملاق من أصحاب ملك مازندران يسمى جويا يسأل هل من مبارز . . !؟ ولم يجبه أحد من أصحاب قابوس إذ سيطر عليهم الرعب من منظر الجنى . غير أن رستم استأذن ملكه فى مبارزة الجنى . .

وإذ أذن الملك نهض رستم وشرع رمحه وانطلق لمبارزة فارس الجن . .

وبدأت المبارزة عنيفة ، إذ راح كل منهما يدور حول نفسه خلالها مرات . . وكاد رستم يفقد النصر ، لولا أن تمكن من الدوران فى سرعة خلف الجنى ، ووضع سنان رمحه بين كتفيه . . ثم رفعه عليه كالطير على السفود . . وألقى به وسط جيشه صريعا مضرجا بالدم . .

وتعجب أسود مازندران وشياطينها . . وملأت الرعدة قلوبهم ، إلا أنهم اضطروا للامتثال لأوامر الملك حين أمرهم بالهجوم على رستم وجيوشه . .

وارتفعت من الجانبين أصوات الطبول . . ودارت المعركة وارتجفت الأرض وأظلمت الآفاق . وراحت الفرسان تتصاول والجيوش تتلاحق ، والنصر يتأرجح بين هذا وذاك .

ومر أسبوع كامل والقتال لايريد أن ينتهى ، عندئذ برز رستم يطلب مبارزة ملك مازندران نفسه . وانتفض الملك غاضبا ، وانطلق من بين رجاله وهو يطلق صرخة غضب عنيف . . وانقض على بطل الأبطال .

وكان الملك قويا ماردا . . فاندفع يهاجم رستم فى عنف كاد يكتسب معه النصر . . لولا أن رستم تحين فرصة طعن خلالها الملك فى خاصرته طعنة ألقت به على الأرض من فوق ظهر فرسه .

وعندما سقط الملك سحر نفسه فى سرعة ليبدو أمام الناس صخرة عظيمة لايقدر على زحزحتها أحد . ولكن رستم ، وقد أدرك ما فعل الملك ، تناول الصخرة العظيمة ورفعها فوق رأسه ، وسار بها والناس من حوله يعجبون ، حتى وصل بها خيمة قابوس .

وطرح رستم الصخرة العظيمة أمام صاحبه . . وخاطب الملك الساحر قائلا :

- إذا لم تخرج عن شكلك هذا حطمتك بالمعاول والفؤوس .

وارتجفت الصخرة لتعود من جديد إلى صورتها الأولى . وانحنى الملك إذ عاد إلى صورته وراح يستجدى عفو قابوس . . إلا أن هذا أمر الجلاد بقطع رأسه ، ورفعه على سنان الرمح ليريه للناس . !

وانطلقت جيوش قابوس تجمع الغنائم والأسلاب ، وتحصى الجواهر والذخائر. بينما دعا رستم أولاذ ليسمع من بين شفتى قابوس ، أمر تتويجه ملكا على مازندران تنفيذا للوعد الذى قطعه على نفسه من قبل .

وانطلق رستم مع الملك قابوس عائدين إلى الوطن فى مواكب رائعة لم يعرف لها مثيل قط . .

* * *

ومضت الأيام تجرى . .

وذات يوم . . جاء إلى الملك من يقول له إن حمارا وحشيا كالأسد ، قد استقر فى الصحراء القريبة من مرابط الخيل ، وراح يهاجم خيول الملك ويقضى عليها واحدا فى إثر آخر . . وأدرك الملك أن ذلك الحيوان لايمكن أن يكون حمار وحش . فطلب من رستم أن ينطلق فيحذر الأمر . . ويقضى على الوحش أينما كان . .

وركب رستم فرسه « الرخش » ، وخرج إلى الصحراء ، فمكث أياما ثلاثة يدور فى مروجها ومراعيها . . ولكن الوحش لم يبد منه شىء قط . .

وجاء يوم رابع ، لم يكد ينقضى نصفه حتى ظهر الوحش وهو يقترب من مرابط الخيل . . وخرج له رستم من مخبئه فلم يكد يراه حتى راح يجرى فى سرعة الريح هاربا . وأسرع رستم خلفه ، ورفع رمحه ليطلقه عليه . وفى تلك اللحظة اختفى الوحش كأنما قد ابتلعته الأرض . . وهنا اقتنع رستم بأنه لم يكن حمار وحش قط . . ولكنه «أكوان» الجنى . . جاء لينتقم لمن مات من الجن فى بطاح مازندران . . !

وقرر رستم ألا يترك ذلك المكان ، وأن يظل مقيما فيه حتى يضطر الجنى للظهور من جديد . .

ولم يمض يوم واحد حتى كان أكوان الجنى قد خرج من نفس المكان الذى اختفى فيه . وعندما شهده رستم انطلق خلفه فى سرعة هائلة ، وبدأ سباق عنيف لم تشهد مثله الأرض . . استمر أياما ثلاثة كاملة . . .

وعندما انتهت الأيام الثلاثة كان الجهد قد أخذ برستم ، وبدأ النوم يغالبه . .

وانحنى رستم على روضة معشبة فدخلها ، ونزل عن فرسه ، وخلع لجامه وحط عنه سرجه وأطلقه يرعى . ثم فرش لنفسه اللبد على حافة ماء العين واتكأ يستريح ، فأخذه النوم . .

وفى تلك اللحظة ظهر الجنى واقترب منه . فلما رآه نائما فى سلاحه لم يجرؤ على الاقتراب منه . . ولكن الفرصة كانت سانحة نادرة . . وحتى لايضيع الفرصة حفر الأرض من حول رستم النائم ، ورفع قطعة الأرض كاملة فى الهواء . . ثم راح يجرى به هنا وهناك ، ويفكر فى الطريقة التى ينتقم بها منه . . !

واستيقظ رستم فوجد نفسه على تلك الحال . وندم إذ نسى نفسه فنام ، وراح يفكر فى طريقة الخلاص من براثن الجنى . .

وأحس الجنى بحركته ، وعرف أنه استيقظ ، فقال له يخاطبه :

ـ أيهما أحب إليك : أن أرميك بين الجبال والصحارى ، أم أقذف بك فى أعماق المحيط . !؟

وفكر رستم قبل أن يجيب . . وسمع صوتا فى أعماقه يقول له :

ـ إذا هو ألقاك فى الجبال والتلال الوعرة تطايرت أوصالك وتحطمت بددا فوق الصخور ، والماء فى هذه الحالة هو خير الشرين . . ولكن أحذر دهاء الجنى . . فإنك إن قلت له اقذفنى فى البحر خالفك ولم يرمك إلا على الجبال والوهاد . . فهو سيعمل ضد رغبتك . . فاطلب منه عكس ماتريد . . !

وقال رستم يخاطب أكوان الجنى :

ــ اطرحنى على الجبال وفى الغاب أحطم قلوب السباع وأشهدها على قوتى وجبروتى . . !

ضحك أكوان فى سخرية وهو يقول :

ـ أمازلت تدعى الشجاعة والجبروت . . !؟ إذن لأرمينك فى مكان لا ترى فيه حيا ولاميتا . . !

وأسرع أكوان الجنى إلى البحر فألقى برستم فيه . ثم عاد وهو ينفض يديه وكأنه قد تخلص من حمل مخيف . .

ولم يكد رستم يسقط فى الماء ، حتى أحاطت به التماسيح وسباع البحر تريد قتله . فاستل بيمينه السيف ، وراح يضرب هنا وهناك بينما يده اليسرى تسبح لتبلغ به الشاطىء . .

وخرج رستم من الماء ، فخلع سلاحه ، واغتسل ، ثم وضع السلاح وعاد إلى العين التى سبق أن نام إلى جوارها أول مرة . وهناك قرر ألا يبرح المكان حتى يظهر الجنى من جديد ليلقى عليه درسا لاينساه أبدا . .

وفجأة ظهر الجنى وقال له :

ــ ألا تزال بك رغبة فى القتال والنزال . . !؟ أما سئمت تلك الهزائم التى تتوالى عليك ، وتريد أن تعود من جديد لتجلب لنفسك هزائم أخرى . . !؟

ولم يترك له رستم الفرصة ليتم حديثه . وفى لحظة ، انقض رستم برمحه فى قوة فاخترق قلب الجنى قبل أن ينتبه إلى نفسه . . وإذا به ينهار وينحط على الأرض كأنه الجبل . ومد رستم يده بالسيف فاجتز عنقه ، وحمل رأسه على سنان الرمح ليدور به فى كل مكان من عاصمة قابوس . .

واستمر ركب الحياة يسير . . !

أسطورة هنـــديـة
رامايـانـا

رامايـانا هـى أوديسة الهنـد فى تاريخ الأدب الأسطورى . وهـى أشهر أسـاطير الهند وأحبهـا إلى النفوس . . وتتناول حياة بطل اسمه راما ، نفاه أبوه فى غـابة الشياطين حيث لقى من المصائب والأهوال ألوانا شتى . ونشب صراع جبار بينه وبين رافنا ملـك الشياطين الذى تمكن من خطف زوجته ، فظلت تنتظر زوجها صابرة طاهرة لاتستسلم ليأس أبدا . .

والهندى يعتبر رامـايانا كتابـا مقدسا . ويعتبر راما صـورة مجسدة للألـوهية . ولا يزال يتوجـه إليه بالصـلاة . وهو حين يقرأ الأسطورة ، إنما يشعـر بأنه يستمد مـن قراءتها سموا دينيا ، كما يستمـد متعة أدبية وارتفـاعا خلقيـا . . إذ تطهره هـذه القراءة مـن أوزاره جميعا وتجعلـه ينجب ولـدا حتى ولـو كان عقيما . . !

كان الجميـع سعداء إلا الملـك . فبرغم العصر الذهبـى الذى كـان يعيش فيـه كل الشعب ، إلا أن شيئـا واحدا كان ينغص على الملـك الحياة . . فقد أبـت الآلهة أن تنعم عليه بولد . . يتولى من بعده عرش البلاد .

ولقـد كان سكـان مدينـة « أيوذيـا » يعرفـون تلك الحسرة التـى تأخـذ بقلب الملـك «داشاراذا» سيـد بلاد « كوسـلا» . إلا أنهم ماكانـوا يملكون شيئـا قط سوى أن يـرفعوا أيديهم ، وهم يقدمون القرابين ، يدعون « براهما» أن يمنح ملكهم الطيب وليا للعهد .

ولعل رب الأربـاب قد استجاب لدعـوات القوم الصـالحين ، فذات يـوم ، بينما كان الملك مجتمعا بكهنته يقدمون القـرابين لبراهـما ، إذ ظهر لهم الإله « فشنو» فى شكل نمر ، متربعا وسط النيران ، وقال للملك :

ـ خـذ هذا الأرز المقدس ، واللبن الحليـب ، ووزعهما على زوجاتك . فقـد أرسلنى بـراهما لأبشرك بغلام اسمـه رامـا ، يكون لـه ثـلاثة أخـوة آخـرين مـن كـل زوجة مـن الزوجات . . !

وحمل الملك اللبن والأرز إلى زوجاته وقسمهما عليهـن . فلم تمض أيام حتى انجبت

«كوشالا» زوجة الملك الأولى ولدا سماه « راما » ، ثم تبعتها « كايكى » بولد سماه «باراتا» . أما الثالثة فقد أنجبت ولدين هما « لاكشمان وساتروجنا » .

وعاش الأخوة الأربعة فى كنف الملك حتى شبوا . ومع مر السنين كان راما قد اتخذ من أخيه لاكشمان صديقا وتابعا ورفيقا ، وكان ساتروجنا قد جعل من نفسه هو الآخر حارسا لأخيه باراتا .

وكبر راما حتى بلغ السادسة عشرة . وبدأ الملك يمنحه من قلبه كل شيء ، ويدربه على أن يكون ملكا من بعده على كوسلا . ومن أجل أن يأمن على ولده متى تولى العرش من عداوات جيرانه ، امتلأ رأسه بفكرة تزويجه من سيتا . . كبرى بنات « جاناك» ملك « ميثالا» .

والحق أن سيتا كانت أجمل فتيات ذلك العصر . غير أنها لم تكن فى الحقيقة ابنة الملك . . فقد كان ذات يوم يحرث بستان قصره بالمحراث ، وإذا بالأرض تنشق من تحته ، وتخرج من مجرى الحرث طفلة صغيرة يشع من حولها النور ، ذات جبين من عاج ، وشفة من مرجان ، وأسنان تسطع بلمعة اللآلئ ، كانت هى نفسها سيتا . . التى اعتبرها الملك هدية من الآلهة ، فتعهدها فى قصره حتى شبت ، وعندما حان حين زواجها ، قرر جاناك ألا يزوجها إلا لمن يستطيع أن يثنى القوس المقدس الذى أهدته الآلهة لأجداده الأقدمين .

وتقدم لخطبة الأميرة أبناء القصور من كل الممالك حوله ، غير أن أحدا لم يستطع أن يثنى القوس . . فقد كان قوسا ماردا عملاقا ، صنعه الإله شيفا لنفسه ، ثم أهداه لأجداد جاناك . ومنذ ذلك اليوم عجز الجميع عن ثنيه فلا الآلهة ولا المردة ، ولا الشياطين . . كانوا يملكون القوة التى تستطيع أن تثنيه .

وقرر راما أن يشترك فى المباراة ، وانطلق إلى ميثالا حينما كان الملك يستعد لإقامة عيد الضحية .

وكان الشعب كله يحيى الملك حين دخل راما الساحة ، وأعلن عزمه على خطبة سيتا . . ابنة الملك !

وتحولت إليه كل الأنظار . . لقد كان صدره بارزا كليث ، وجسده فارعا كفيل ، وعيناه مهيبتين كنسر .

وأمر الملك بالقوس فأحضر على عربة ذات عجلات ثمان ، يجرها خمسة آلاف

عملاق. ومد راما يده فأخرج القوس من كيسه وبدأ يثنيه. وارتعد الجميع، فما كان أسهل ما انحنى القوس فى يد راما الذى ظل يثنيه حتى تلامس طرفاه، ثم تحطم فى صوت كالرعد، وهزة كالزلزال، حتى إن آلاف المشاهدين سقطوا على الأرض، عدا جاناك وراما والأميرة التى فتحت عينيها فى ذهول..!

وأقيمت الأفراح، وأرسل جاناك إلى جاره الملك داشاراذا يدعوه إلى حفل الزواج، فجاء ومعه أبناؤه الباقون، وعندما عادوا إلى أيوذيا.. كان مع كل منهم عروس أخرى رائعة.. من بنات ملك ميثالا الجميلات!

* * *

وظلت السعادة تغمر كل مكان من أرض كوسلا.. حتى دخلها الشر عن طريق كايكى.. الزوجة الثانية للملك..!

فذات يوم، أعلن الملك أنه يدعو الشعب فى الغد لحضور حفل تنصيب ولى عهده، وملأت الأفراح كل «أيوذيا» التى امتلأت قلوب سكانها جميعا بحب «راما» وزوجته الأميرة «سيتا» ابنة الآلهة. غير أن قلبا واحدا كان يمتلئ غما وحسدا، هو قلب الملكة كايكى. فقد أحزنها أن يكون العرش لابن ضرتها دون ولدها باراتا الحبيب..!

ولعل تلك الغيرة التى ملأت قلب كايكى، لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا لولا خادمتها العجوز «منتارا» فقد أشعلت العجوز فى أعماق مولاتها كل نيران الحقد والحسد، وراحت تحرضها على التخلص من راما، ليكون العرش خالصا لولدها باراتا.

وبكت كايكى غيظا ويأسا.. فما كانت تملك أن تمنع زوجها الملك من إعلان ولاية العهد لأى ولد. غير أن منتارا، ابتسمت فى خبث وهى تقول:

ـ إن فى إمكانك يامولاتى أن ترغمى الملك على إيلاء العهد لولدك.. وإرسال ابن ضرتك إلى أعماق غابة الشياطين، فلا ينافسه على العرش أبدا.

قالت الملكة كايكى:

ـ كيف يكون ذلك يامنتارا!؟

ومن بين شفتيها المملوءتين بحمى الحقد، راحت منتارا، تذكر سيدتها بذلك اليوم الذى أصيب فيه الملك بجراح خطيرة خلال إحدى معاركه مع شياطين الجن. ففى ذلك اليوم كانت كايكى تعيش فى ذلك المكان. وتصادف مرورها من نفس الطريق

الذى سقط فيه الملك غارقا فى لجة من الدم . وعندما شهدته ووجدته يقترب من الموت ، جاهدت حتى استطاعت حمله بعيدا عن الميدان ، وبذلت كل ماتملك حتى ارتد إليه الصواب . وأخذت تُعْنَى بجراحه حتى أنقذته من موت كان لابد منه . وعندما شفى الملك ، تزوجها ، وأقسم أن يحقق لها أى أمنيتين تطلبهما منه . . فى أى وقت تريد . . ! ومضت الأيام والشهور والسنون ، ولم تكن الملكة قد طلبت من زوجها شيئا بعد . . .

ودار رأس كايكى بنشوة كالخمر . . وقد بدأت تدرك ماتقصد إليه منتارا . واستمرت العجوز تقول :

ـ لقد حان الوقت لكى تطلبى من الملك أمنيتيك . اطلبى منه أن يتخلى عن العرش لولدك باراتا ، وأن ينفى راما فى غابة الشياطين أربعة عشر عاما . وفى خلال تلك السنوات يكون باراتا قد استطاع أن يجتذب لنفسه حب الشعب ، ولا يخشى منافسة أخيه .

وانطلقت كايكى إلى الملك تذكره بوعده . وأقسم لها أنه لم يحنث فيه ، وأنه سيحقق لها فى الحال كل ماتطلب كائنا ماكان . وهنا ألقت الملكة بالمفاجأة على رأس الملك ، الذى وقف كالمشدوه ، وما خطر بباله أنها تجرؤ على مثل ماتطلب الآن قط . . .

غير أن الملك لم يكن يستطيع أن يحنث فى وعده . .

ويقلب حطمته الأحزان ، أحنى رأسه للمرأة التى خدعته . . !

لقد كانت هذه هى أول مرة يحنى الملك داشاراذا فيها رأسه . ولقد اضطر إلى إحنائه مرة ثانية أمام راما الذى وقف ومن حوله كل رجال البلاط فى انتظار أن يباركه أبوه ويعلن له ولاية العهد . فإذا به يفاجأ بصوت الملك يخرج كسيرا محطما وهو يولى العرش لباراتا . ويأمر بنفيه هو نفسه أربعة عشر عاما فى غابة الشياطين . . !

وهتف الفتى فى حيرة :

ـ ولكن ما الذى صنعته يا أبتاه . . .

وأشار الملك إلى كايكى وكأنه يشير إلى الشيطان . وراح يقص على الجميع قصة الأمنيتين الخبيثتين ، والوعد الذى لم يكن يستطيع أن يحنث فيه . . !

واندفع باراتا نحو أخيه راما . . وأمسك بيده وهو يقسم انه لايمكن أن يمس عرشا

من حق أخيه وحده. غير أن راما هز رأسه وهو يقول :

ـ أبدا أيها الأخ الكريم . لقد انتقل التاج إليـك ، ولابد من تنفيذ الوعد الذى أعطاه أبى . ستجلس أنت على العرش . أما أنا فسـأنطلق لفورى وحدى إلى غابة وانداك ، فلا أعود إلا متى انقضت الأعوام الأربعة عشر كاملة . . !

واندفعت سيتا نحو زوجها ، وسجدت أمامه تتوسل وتقول له :

ـ خذنى معك يازوجى الحبيـب . . فما أستطيع أن أعيش فى هذا المكان بعدك . إن العربة والخيل المطهمـة والقصر المذهب كلها عبث فى حياة المرأة وهى تـؤثر عليها كلها ظل زوجهـا المعبود . إن سيتا ستهيـم معك فى كل مكـان فى الغابـة . . فذلك عنـدها أسعد مقامـا من قصور العالم كله . إنها لـن تفكر فى بيتها لحظة أو فى أهلهـا ، مادامت ناعمة فى حـب الزوج الذى اختارها لتشـاركه الحياة . وستجمع الثمار البريـة فى الغابة اليانعة العبقة ، فطعام يذوقه راما هو أحب الأطعمة عند سيتا الوفية .

وكذلك فعل لاكشمان ، فقد راح يتوسل إلى أخيه أن يأذن له بمرافقته . فإذا لم يكن يريده صاحبا فليكن حارسا له ، ولسيتا ، من هجمات سكان الغاب الملاعين . . !

وحـاول رامـا أن يثنـى زوجتـه وأخـاه عما أصرا عليـه ، غير أنهما ظـلا يلحّـان ويتوسلان . . ولم يكن أمامه سوى أن يذعن لرغبتيهما . . وانطلق الثلاثة معا فى الطريق إلى وانداك . . غابة الشياطين . . !

* * *

لم يكد الأمـراء الثلاثة يمضـون ، حتى سقط الملـك ميتا لفـرط ما ألم به مـن حزن . وبرغم أن كايكى ملأها الفرح لـوفاة زوجها ، إلا أن باراتا رفض العرش ، وأقسم إلا أن يحكم باسم أخيه حتى يعود من منفاه .

ومضت أعوام عشرة طويلـة ، عاش الأمراء الثلاثة خلالها متنقلين بين حنـايا الغابة الموحشة ، يقتـاتون فاكهة ، ويجمعـون عشبا ، ويصطادون طيرا وحيوانـا ، ويزداد بهم العجب لمرور السنين دون أن يلتقوا قط بأحد من الشياطين التى قيل إنها تملأ الغابة

وبينما كان الأمراء الثلاثة يستأنفـون تجوالهم ذات يوم ، إذ وجدوا أنفسهم فجأة أمام صومعة ناسـك هرم يدعى اجستاى ، لم يكد يلمحهم حتى رحـب بمقدمهم ، وأقسم إلا أن يستضيفهم أياما عددا .

ولم يكن بد من أن يقبل راما ضيافة الناسك . وخلال الأيام التى قضاها لديه ، عرف راما ، أن رافانا ملك الشياطين ، يقيم غير بعيد من أطراف الغابة عبر المكان الذى يقيم فيه الناسك ، إلا أنه لايجرؤ على الاقتراب منه ، لما يملكه الرجل الطيب من أسلحة رهيبة يخشاها الجن والشياطين . . ولعله كان أجدر براما ، أن يبتعد بزوجته وأخيه عن ذلك المكان ، غير أنه ـ وهو الشجاع الذى لايعرف الجبن قط ـ أبى أن يستسلم للخوف ، وأقسم إلا أن يستمر فى تجواله حتى تنقضى مدة النفى . . !

وعندما وجد الناسك أن الفتى وأخاه يرفضان إلا أن يمضيا فى طريقهما ، أقسم أن يساعدهما ويزودهما بما يقيهما شر الطريق . فأخذ بأيديهما إلى مغارة تحت الأرض حيث آلات حرب فتاكة أعدها لصراع الجن والشياطين . . فأعطاهما شيئا منها ، كما منح راما قوسا وسهاما مسحورة لاتحصى . ومنح لكشمان سيفا ذهبى النصل ، يثير الرعب فى قلب كل من يراه . .

وأخذ راما ورفيقاه طريقهم من جديد فى أعماق الغاب . وظلوا يسيرون حتى أخذ التعب بسيتا ، وأحست حاجة إلى الراحة . وهنا فقط ، حط الثلاثة الرحال ، وقرروا أن يبنوا مسكنا صغيرا يأوون إليه ، وترتاح سيتا فيه . . .

* * *

ومرت الأيام سعيدة هانئة . . حتى كان ذات يوم . . .

كانت « سورباناجا» أخت رافانا ملك الشياطين تتنزه فى الغابة ، حينما شهدت راما جالسا يناجى زوجته . وأحست « سورباناجا» نحو الفتى بهوى غريب ، وراحت تنتهز الفرص لتنفرد به . فلما واتتها الفرصة وراحت تصب فى أذنيه ترانيم الهوى ، صد عنها ، ورفض أن يستجيب لعاطفتها .

ولكن الرغبة المجنونة كانت تلح بالشيطانة العاشقة حتى بلغ بها الأمر ، أن أصرت على قتل سيتا التى تمنعه عنها . وراحت « سورباناجا» تتحين الفرص حتى وجدت الفتاة وحدها فهاجمتها ، غير أن لكشمان كان غير بعيد فأسرع إليها ، وبحد سيفه البتار قطع أنفها وأذنيها . وصرخت الشيطانه فى غضب ، وانطلقت تجرى والدم ينبثق متدفقا من جروحها ، حتى التقت بأخيها الصغير كارا . وعندما عرف كارا الأمر ، أقسم لينتقمن لها ، وأرسل أربعة عشر تنينا ضخما ليقتلوا الأمراء الثلاثة . . .

غير أن الشيطان الصغير قد قدر ما يتمتع به راما من قوة وهبتها له الآلهة . فإن

التنـانين لم تكد تهاجـم مقر رامـا ورفيقيه ، حتـى نهض هـو فخنقها جميعـا بيديـه بغير سلاح . . .

وهنا جن جنون كارا . وأعلنها فى الغابة حربا شعواء على راما ورفيقيه . . .

خرج كارا على رأس أربعمائة ألف تنين ، يثير كل منها رعب عالم بأسره . . !

ولمح راما صفوف الجيش الـزاحف ، فأمر زوجته وأخاه بالاختفـاء . ثم لبس درعه ، واستل سيفه ، وأخرج رمحه ، ووقف وحده ينتظر التنانين .

وكانـت التنانين تزحـف كأمواج البحـر . وتحتك حراشيفهـا فتخرج أصواتـا رهيبة كالرعد . وملأ الرعب قلوب كل من فى الغـابة ، إلا راما الذى وقف صامدا تطل النبال من كنـانته . وظل ساكنـا فى وقفته حتى ازدادت صفـوف الجيش الزاحف اقترابـا منه ، وهنا مد رامـا يده إلى نباله وسهامه ، وراح يـرسلها نارية عنيفة على التنانين التـى ملأها الرعـب والفزع ، وبـدأت تتراجع وتتلوى تتلمس النجـاة . غير أن سهام رامـا كانـت تلاحق الهاربين ، وأخذت أرض الغـابة ترتوى بالدماء . . والتنـانين تتساقط واحدا فى إثر آخر ، حتى لم يعد هناك سوى كارا وحده ، وليس حوله أحد قط . . !

واقترب كارا مـن راما . ونشبت معـركة عنيفة مهـولة ، راحـت شظايا النبـال وقطع الأخشاب تتطاير خلالها لتملأ جو الغابة . ثم فجـأة ، رفع راما قوسه وهزه كزلزال ، ثم أطلق سهمه مريشا سريعا إلى قلب الشيطان . .

غير أن المعركة لم تكن لتنتهى عند هذا الحد . . .

فقد تلقى رافانـا ملك الشياطين أنباء مصرع أخيه وجيوشـه فجن جنونه . . ونهض من فوق عرشه وهو يقسم ، ليقتلن راما ويمثلن به .

ونهض رافانا يستعـد لمعركة رهيبة قاسيـة مع راما وصاحبيه . غير أنـه لم يكد ينهض حتى انحنـى عليه أخـوه « ماريشـى » يحذره من قـوة راما ، ويكشـف له سر الـذخيرة الفتاكة التى منحهـا له الناسك ، ويقص عليه قصة الآلهة التـى اختارته ، ليقضى على الجن والشياطين ويشتتهم أجمعين .

وبدا الأمر لملك الشياطين أكثر صعوبة ممـا كان يتصور . وانحط على عرشه ساخطا يفكر : كيف يستطيع أن يأخذ بثأر أخيه .

إن له لعشريـن ذراعا يستطيع أن يحمـل فى كل منهـا سلاحا جبـارا . وإن له لعشرة

رؤوس يستطيع كـل منها أن يخترع ألف وسيلة لكسب النصر . ولكنه مع هـذا أحس بالجبن ، فقـد أقنعه أخوه « ماريشـى » أن النصر لن يكون حليفه إذا دارت المعـركة بينه وبين « راما » وجها لوجه . . .

وإذن فليبحث عن سبيل آخر غير القتال !

وراح كل رأس من الرؤوس العشرة يبحث الأمر .

وفجأة قفـز رافانا فى فـرح كبير . فقد خطرت لـه ، بعد طول التفكير فكـرة رائعة ، فقتل « راما» لن يذل كبرياءه وأنفته أو ينال منه ، ولكن الذى يذله وينغص عيشه ، هو أن يفقد أعز شخص لديه . . .

وهكـذا قـرر رافـانـا أن يـرسـل أخاه مـاريشـى ، ليخطـف سيتـا . . زوجـة رامـا الحنون . . !!

* * *

فى ذلك الـوقت كـان الأمراء الثلاثـة يجلسون تحت شجرة مـورقة يتلمسـون الظل ، ويتذاكرون بلادهـم وأهليهم . وفجأة لمحت سيتا منظرا أطلقت لـه صيحة فرح . لقد كـان هناك ظبـى صغير يقفز على مـدى البصر ، رائع الجمال ، له شعـر يبرق كما يبرق الذهب . . !

ولمس الأمير فرحة زوجتـه وشغفها لمرأى الظبى . وعندما تمنت أن تملكـه وتحتفظ به لأيام عودتها ، أقسم ليأتينها به . . حيا بغير جروح . .

وقفز « راما » من مكانه يعدو وراء الظبـى ، بعد أن أوصى أخاه بحراسة سيتا ، وألا يغفل الطرف عنها قط ، أو يتركها مهما جرى من الأحداث .

وأحس الظبى بالمطـاردة ، فاندفع يقفز ويعدو ، يظهر آنـا ويختفى آنا آخر . والأمير من ورائه لا يـريد أن يفلتـه ، يخترق وراءه الأدغال ، ويسعـى خلفه داخـل الجحور ، ويأبى أن يستعمل قوسه وسهامه حتى لايصيبه أو يجرحه .

وظل الظبى يخترق الغاب والأمير وراءه ، حتى أنهكه الجهد وأخذ به اليأس . وأطل خلفه فـإذا هو قـد ابتعد تمامـا عن مكـان زوجه وأخيـه . . وهنا فقـط ، ملأه القلـق ، وأحس أن فى الأمر مكيدة دبرتها له الشيـاطين . . فقرر أن يعود ، ولكن بعد أن يقتنص الظبى بسهامه ، ويحمل جلده البراق إلى سيتا الحبيبة . . !

وأرسل «راما» سهمه المسحور فأصاب الظبى. وأسرع يجرى نحوه ليحمله . وعندما اقترب وجد شيئا آخر ما كان يتوقعه قط ، فقد كان الظبى يتلوى على الأرض ، ويتحول شيئا فشيئا إلى صورة أخرى بعيدة كل البعد عن صورته . وحدق « راما» جيدا إلى حيث كان الظبى المحتضر . فاذا هو « مارتشى» نفسه . . شقيق ملك الشياطين .

وأحس « راما » فرحا ضخما عندما وجد أنه قتل الشيطان . غير أن هذا لم يدع فرحته تطول ، فقبل أن يلفظ النفس الأخير ، أرسل فى الغاب صرخة داوية قلد بها صوت راما ، ليوهم بها من يسمعها بأنه هو « راما» نفسه ، يطلب النجدة والغوث . . !

والحق لقد نجح الشيطان فيما رمى إليه . فقد ملأت الصيحة آذان سيتا ولكشمان ، وخيل إليهما أن « راما» يستغيث بعد أن دهمه خطر مخيف .

ونسى لكشمان كل تحذيرات راما ، وانطلق يجرى إلى الجهة التى خيل إليه أن الصوت يصدر منها . بينما جلست سيتا تنتظر ، وفى قلبها هلع وذعر .

ومضت لحظات ، راحت « سيتا» خلالها تلوم نفسها ، إذ أغرت زوجها بالسعى وراء الظبى . وبينا هى تفكر وتنتظر ، طرق سمعها وقع أقدام تقترب منها ، فقفزت وقد ظنت القادم زوجها ، غير أنها توقفت عندما وجدت أمامها ناسكا هرما يتوكأ على عصا ، وقد أحنت السنون ظهره ، وقوست قامته ، وقربت ما بين خطواته .

وطلب منها الناسك أن تأذن له بالجلوس لحظات يستريح خلالها . وفى أدب ورفق ، أذنت له سيتا ، وأحضرت ماء وفاكهة ، ثم راحت تنصت إليه وهو يسألها عن سبب وجودها فى ذلك المكان . وبرغم الدهشة التى ملأتها للسؤال الغريب ، طفقت تقص عليه الأمر حتى بلغت قصتها مع الظبى .

وهنا توقفت فى ذعر، فقد أخذ الناسك العجوز يضحك ويصفق ، ثم إذا بقامته تعتدل ، وظهره يستقيم ، وإذا به ينتفض ليصير شابا قويا ، له عشرون ذراعا ، وعشرة رؤوس . . !

لقد كان العملاق الواقف أمامها هو رافانا نفسه .

وانقض ملك الشياطين على « سيتا» وهو ينادى على مركبته ، ودفع الأميرة إلى داخلها ، وانطلقت بهما المركبة تخترق الجو فى طريقها إلى جزيرة سرنديب ـ وهى سيلانى أو سيريلانكا الحالية حيث مقر عرشه . . !

ظلت المركبة تطير ، والأميرة مشدوهة حائرة لاتكاد تعى . وأطلت فإذا ملك النسور

يطير غير بعيد فاستغاثت به ، وانتبه ملك النسور إلى الاستغاثة ، فإذا عدوه ملك الشياطين ، قد اختطف فتاة حملها فى عربته السحرية الطائرة ، وتحول النسر الضخم يتبع العربة وينقض عليها ، غير أن الشيطان كان أسرع منه ، فطعنه فى جنبه بخنجره طعنة قاتلة سقط النسر على إثرها من ذلك العلو الشاهق نحو الأرض ، وقد غرق فى بحر من الدم . . !

واستمرت العربة تطير ، حتى اجتازت غابة واندااك ، ثم حطت قليلا على جبل تعيش عليه مخلوقات تشبه القرود . وعندما استأنفت الطيران ، كانت الأميرة قد عمدت إلى إلقاء وشاحها وعقدها ليسقطا على سفح الجبل بين أيدى القرود . ولم ينتبه ملك الجن إلى سقوط الوشاح والعقد حين كان يسرع إلى جزيرته . أما هى ، فقد ملأها الأمل فى أن يعثر راما عليهما إذا كان قد نجا ، وتدله القرود على المكان الذى اتجهت إليه .

* * *

بينما كان كل ذلك يحدث ، كان « راما » قد انطلق فى طريقه عائدا إلى الوادى بعد أن انتصر على الشيطان مارتشى . وبينما هو فى طريقه إذ التقى بأخيه لكشمان الذى كان قد انطلق فى نجدته . وصرخ « راما » إذ وجد أخاه وحده ، وراح يؤنبه إذ لم يستمع إلى تحذيره وتوصيته بألا يترك « سيتا » وحدها . . فقد كان أدرك أن المؤامرة قد نجحت فى إبعادهما عنها ، لينفرد بها « رافانا » ويخطفها . وأسرع الأخوان إلى حيث تركا الأميرة ، فإذا المكان خال ، وآثار المعركة بادية ، ولاشىء هناك سوى السكون . !

لم يستطع « راما » احتمال الصدمة ، فسقط غائبا عن الوعى . وعندما انتبه إلى نفسه طفق يبكى ويصرخ وأخوه يحاول التخفيف عنه بغير جدوى . وأحس لكشمان خطورة الأمر إذا ما طال انتظارهما فى ذلك المكان ، إذ سيفقدان فرصة البحث ومتابعة أثر ملك الجن . فأخذ يدعو أخاه إلى مغالبة اليأس ، والإسراع إلى الجنوب حيث تقع مملكة «رافانا» التى يتحدث عنها الجميع . . . !

أخذ الأميران طريقهما إلى الجنوب . وبينما هما يسيران ، إذا بهما يبصران شيئا ضخما يتمدد على الأرض ومن حوله بركة واسعة من الدم . واقترب الأخوان يتأملان ، فإذا به ملك النسور يحتضر والدم لايزال يسيل من جنبه ساخنا حارا . واقتربا منه يسألانه سر ذلك الجرح ، فقص عليهما القصة ، وأشار إلى الطريق الذى سلكه ملك الشياطين .

وقبل أن يستأنف الأميران السير ، شقا مدفنا للنسر الذى فقد حياته وهو يدافع عن

فتاتهما . ثم أمعنا فى السير إلى حيث أشار لهما . وبلغا آخر الأمر جبلا ضخما وقفا لدى سفحه يفكران فى وسيلة لارتقائه . وبينما الحيرة تأخذ بهما ، إذ بقرد كبير يخرج عليهما من إحدى مغارات الجبل ويسألهما عن سر وجودهما فى ذلك المكان . وقال له راما :

ـ ومن تكون أنت . . وماهو اسمك ؟

قال له القرد :

ـ أنا « هانومان» سفير الملك سجريفا ، الحاكم الحقيقى لهذا الجبل . فما الذى تبغيان من حضوركما إلى هذا المكان !؟

وقص عليه راما قصته . وهز هانومان رأسه وهو يقول :

ـ لقد رأيت بنفسى مركبة رافانا وهو يطير بها نحو الجنوب . لقد كانت الأميرة الجميلة جالسة فى إعياء بداخلها ، وعندما مرت بالجبل أسقطت عامدة وشاحها وعقدها ربما لتدل الباحثين عنها إلى المكان الذى إليه تطير .

وأخذ « هانومان» بيد راما ، وانطلق به إلى الملك ، سجريفا لعله يمد له يد العون . وبينما هم فى الطريق قص القرد على راما ، كيف أن «سجريفا» يعيش الآن مغلوبا على أمره ، وحوله قليل من الأتباع ، بعد أن اغتصب أخوه عرشه وطرده من قمة الجبل . ووعد «راما» القرد أن يساعد سجريفا لاستعادة عرشه بعزيمته الماضية وسهامه القاضية ، إذا هو وعد بمساعدته فى الوصول إلى زوجته .

وكان هذا هو ماحدث بالفعل . فقد اتفق سجريفا مع راما على أن يتبادلا المساعدة . وحمل راما قوسه وسهامه ونباله ، فشن بها حربا شعواء على ملك الجبل الذى اغتصب عرش أخيه . وبعد صراع عنيف استطاع « راما» الفوز بالنصر ، فهزم الغاصبين ، وأعاد سجريفا إلى عرش الجبل . . !

ومن أجل أن يرد سجريفا الجميل لحليفه ، وجه أربعة من جيوشه التى تضم آلافا من القردة العملاقة الهائلة ، إلى جهات العالم الأربع ، وأمرها أن تسير فى الأرض باحثة عن المكان الذى نزل فيه رافانا والأميرة المخطوفة .

وكان على « راما» و«الكشمان» أن ينتظرا فى مملكة القرود عودة الجيوش الأربعة . وانقضت أيام طويلة كأنها السنون ، عادت بعدها ثلاثة جيوش بغير نتيجة . ولم يبق غائبا سوى الجيش الذى كان قد توجه إلى الجنوب وعلى رأسه هانومان سفير الملك الذى أخذ معه خاتم راما .

والحق ، إن جيش الجنوب ظل يلقى من الأهوال والمخاطر مالم يتصوره أحد قط . ولقد بلغ إخلاص هانومان لصديقه راما حدا جعله لايهتم أبدا بما يقاسيه هو وجيشه فى سبيل بلوغ مقر ملك الشياطين وظلت الأيام تمر وهو يقود جيشه حتى بلغ آخر الأمر شاطىء المحيط . وأطل فإذا هناك على مسافة بعيدة جزيرة مسحورة يحيط بها ضباب كثيف .

وأدرك هانومان أن هذه الجزيرة هى المكان الذى يسعى إليه . ويرغم طول المسافة التى تمتد بين شاطىء المحيط والجزيرة المسحورة ، فقد قرر هانومان الوفى أن يقفز قفزة جبارة هائلة . . إما أن تصل به إلى الجزيرة ، وإما أن توورده الهلاك . . !

وكان « هانومان » يحب المخاطرة ، فترك جيشه حيث هو ، واعتلى ذروة صخرة ناتئة من صخور الشاطىء . ثم قفز قفزة هائلة فى الهواء . . !

كانت القفزة رائعة حتى لقد كاد ظهر هانومان يصطدم بالسماء . وإذا به قد عبر المحيط الواسع ، وحطت قدماه على شاطىء جزيرة سرنديب . . !

وعندما أحس هانومان أنه قد نجح فى الوصول إلى الجزيرة ، استخدم سحره ليتحول إلى قرد صغير حتى لاتلتفت إليه الأنظار . وأخذ ينتقل بين بيوت الشياطين باحثا عن قصر « رافانا » حتى بلغه . وعندما اجتاز أسواره ، شهد سرادقا صغيرا ، يمتد فى حديقة القصر الواسعة . واقترب من السرادق ، ومد بصره يتلصص فى حذر ، وإذا به يقف مبهورا يمتلئ عجبا . فقد كانت سيتا هناك ، بارعة الجمال كملاك ، ترقد على فراش مريضة منهوكة . . ومن حولها ماردات من العفاريت يحرسنها ، ورافانا واقف على رأسها يهددها ويتوعدها ويقول لها : إن صبره قد نفد لطول ما أمعنت فى رفض الزواج منه ، والإصرار على الوفاء لزوجها راما . . ! وعندما عجز رافانا عن استرضاء سيتا ـ كما كان يعجز كل يوم ـ غادر السرادق وقد أقسم أن لن ينتهى ذلك اليوم ، حتى يكون قد أرغم أنفها ، وأذل كبرياءها . وما كاد رافانا يغادر السرادق ، حتى اقترب القرد الصغير من الفراش ، ثم همس باسم راما . .

وانتفضت الأميرة وتلفتت حولها ، فإذا قرد صغير ولا شىء آخر هناك . وظنت أنها كانت تحلم ، فأغمضت عينيها ، ولكن القرد عاد يذكر اسم راما ، ففتحت عينيها من جديد ، فإذا بالقرد يخرج خاتما ذهبيا ما كادت تراه ، حتى أيقنت أنه خاتم زوجها الحبيب . ! وقبل أن تصرخ من الفرح كان هانومان قد أشار إليها فى سرعة خفية يحذرها من الصراخ .

وأشار القرد من طرف خفى إلى « سيتا» أن تنتظر وتطمئن . وفهمت هى إشاراته ، وعرفت أنها النجاة .

وغادر هانومان المكان وقد قرر الرجوع سريعا إلى بلاده ليعود بجيش ضخم ومعه «راما» لينزل النقمة بملك الشياطين . ولكنه لم يكد يبتعد قليلا حتى ملأت رأسه فكرة جديدة ، هى أن ينزل نقمته هو أيضا بمملكة الشياطين ، ويحطم كبرياء ملكها ويذله .

وفى لمح البصر رفع « هانومان» عن نفسه السحر فعاد قردا ماردا ضخما ، راح يحطم الأشجار ويقتلع الصخور ويقذف بها نوافذ القصر. ولم يكد يفعل حتى أحاطت به الشياطين من كل جانب. وأطل حوله ، فإذا هو وحيد وهم كثيرون. وأدرك بعد فوات الأوان ، مقدار خطئه وتهوره ، وعرف أنه واقع لامحالة بين أيديهم ، وهنا خطرت له فكرة . فاقتلع من بهو القصر عمودا كبيرا من الرخام قفز به وسط جموع الشياطين ففرق شملهم. ثم قفز فى الهواء قفزة هائلة كان واثقا أنها تبلغه شاطىء المحيط ، إلا أن سهما أرسله أحد شياطين الجن أصابه . وبرغم أن الإصابة كانت خفيفة ، إلا أنها كانت كافية لأن تهوى به قبل أن يبلغ الشاطىء . فجذبه الشياطين ، وأوثقوه بالحبال ، وقادوه إلى « رافانا» الذى كان ثائرا يرغى ويزبد ويهتز كزلزال . . !

وأصدر رافانا أمره فى الحال بإحراق هانومان وأحاط الشياطين جسم القرد بلفائف القطن ، ثم أشعلوا النار فى القطن الذى أحاط بذيله . واشتعلت النار، وبدأت تتسرب بطيئة إلى جسد القرد .

وشهدت السماء ذلك العذاب الذى نزل بالمنقذ . . فأشفقت عليه ، وتجمعت السحب وأمطرت مطرا غزيرا كان فيه الكفاية لإخماد اللهب ، وتيسير سبل الهرب للقرد بعد أن أحرقت النار وثاقه ففكت قيده .

وأقلعت السماء فجأة ، وأطل هانومان فإذا طرف ذيله لايزال يشتعل به بعض النار. .

وخطرت له فكرة جديدة . لقد كانت الأميرة تجلس فى سرادق بعيد عن القصر، فلا خوف عليها إذا هو أحرق القصر نفسه . . .

ونهض لفوره وراح يقفز هنا وهناك ، يدور بذيله فى كل اتجاه ، ويشعل النار فى كل شىء حوله . وأمسكت النيران بكل جزء فى القصر. . ولم تمض لحظات حتى كان قد تحول إلى شعلة كبيرة هائلة .

وفى نشوة عارمة قفز هانومان قفزة هائلة ، بلغ بها شاطىء المحيط . وأسرع فى مثل لمح البرق حتى بلغ الجبل ، وراح يقص الأمر على « راما » الذى أسرع إلى الملك «سجريفا» يطلب منه أن يمده بباقى الجيوش .

وعلى رأس أضخم جيش شهدته الأرض ، سار راما ولكشمان وهانومان حتى بلغوا شاطىء المحيط ، ووقفوا فى مواجهة جزيرة سرنديب .

وأطل الشياطين من بعيد وملأهم الرعب . لقد استطاع قرد واحد فقط من هذا الجيش اقتحام جزيرتهم ، وإنزال الخراب بقصر الملك . . فكيف لو نزلت كل هذه الآلاف من القرود بالجزيرة التى ملأها هانومان وحده من قبل رعبا . . !؟

وكان « رافانا » على يقين من الهزيمة بعد أن تحالف ضده راما وهانومان . فجمع مستشاريه وشرعوا يبحثون الأمر من كل الوجوه .

واختلف الشياطين ونشبت بينهم ثورة . ونهض « فبهيشان » شقيق رافانا الأصغر يطالب بتنحية أخيه وتسليم « سيتا » إلى زوجها ، ليحل السلام محل الحرب . غير أن «رافانا» ثار عليه وكاد يقتله . فهرب هذا من أمامه ، وقد أقسم أن ينتقم . . .

وقفز الشيطان الصغير فصار على الشاطىء . وانطلق إلى « راما » يقص عليه قصته ، ويعرض عليه خدماته . وظنه « راما » أول الأمر جاسوسا ، لولا أنه أشار عليه بإقامة قنطرة من الأشجار والصخور تعبر عليها الجيوش البحر .

وفكر « راما » فيما أشار به الشيطان الصغير، واقتنع بصواب الفكرة ، ونفذها . . .

ولم تكد تمضى خمسة أيام حتى كانت ملايين القردة ، قد جمعت كل ما أمكنها جمعه من جذوع الشجر وقطع الصخر . وأقيمت القنطرة وعبرتها الجيوش فى جنح الظلام .

ونشبت المعركة هائلة مروعة بين جيوش راما وجيوش رافانا . ومن كل من الجانبين سقط الآلاف قتلى وجرى ، بيد أن قتلى الشياطين كانوا أضعاف ما أصاب جيوش «راما» الذى استعمل سهامه المسحورة ، فأخذت تعصف بالشياطين عصفا مخيفا .

واستمرت الحرب طاحنة عدة أيام انتهت بهزيمة جيوش الشياطين . وعندما وجد «رافانا» أنها الهزيمة ، امتلأ غيظا وحنقا ، وانتفض مقسما أن يقتل « راما» ولو كلفه ذلك حياته .

ونشبت مبارزة هائلة بالنبال بين راما ورافانا . . .

وكان ملك الشياطين عنيفـا فى مبارزته حتى لقد بدأ رامـا ينهار ، وكاد يستسلم . . لولا أن جمع قـوته كلهـا قبل أن يسقـط على الأرض فى رمية واحـدة بسهم مسحـور من قوسه . وأخذ السهم طريقه سريعا إلى قلب رافانا فأرداه . . .

وردت نشوة النصر إلى راما قوته ، وانطلق يجرى نحو السرادق الذى تقيم فيه زوجته يقوده هانومان الوفى . ولم يحس كل من الزوجين كم من الوقت مر بهما وهما متعانقان . . إلا أنهما عندمـا انتبها ، كان الهدوء قـد ساد المكـان . وكان فهبشان الشيطـان الحليف واقفا على رأس قومه الساجدين يطلبون الصفح والغفران . . !

وانتصـب « راما» قـائما مـن جديـد . وأصدر أوامـره بـالصفح عـن مـن بقى مـن الشياطين ، على أن يحكمهم فهبشان ويمنعهم من الهبوط إلى الأرض بعد ذ لك . .

وعندما أخذ راما وسيتا ولكشمان طريق العودة إلى الوطن ، كانت الأنباء قد سبقتهم إلى هناك على لسـان هانومان . . فخـرجت أيوذيا كلهـا وعلى رأسها نائب الملك بـاراتا الذى رفض أن يجلس على العرش طوال أربع عشرة سنة . . وظل محتفظا به ليضع التاج بعد ذلك بنفسه على رأس أخيه راما وزوجته سيتا الحسناء . . !

أسطورة هندية
المصباح المسحور

بين هذه الأسطورة فى أدب الهند . . وأسطورة علاء الدين فى ألف ليلة وليلة ، شبه كبير . . وليس هناك شك أن لكل منهما أصلا واحدا ، يؤكد ذلك أن أغلب أساطير ألف ليلة يوجد لها شبه فى أساطير الهند والصين . .

بل فى كثير أيضا من أساطير فينيقيا . على أن كل واحدة منها تختلف فى الغالب عن شبيهتها بتأثير البيئة وأصول الحياة التى تعيش فى أرضها كأسطورة . . كما حدث فى «المصباح المسحور» .

عندما فتحت الباب ، وجدت أمامها عملاقا أسود قبيح الخلقة وجهه كوجه عفريت . . ولما همت بأن تغلق فى وجهه الباب، وضع قدميه بين مصراعيه ليمنعها . . وقال لها :

ـ ماكنت أظن أمرأة فى العالم تستقبل شقيق زوجها الأكبر كما تستقبليننى الآن!

وتوقفت يدها فوق الباب وهى تحدق فى وجهه . أيمكن أن يكون هذا العملاق حقا شقيق زوجها الذى مات منذ سنوات!؟ لقد كان زوجها خفيف السمرة وهذا أسود . . وكان زوجها قصيرا وذاك عملاق، وكان لزوجها عينان صافيتان كماء البئر، وعينا العملاق تبرقان بريق الثعبان فى خبث ودهاء .

وانتبهت المرأة من تفكيرها على صوته يقول :

ـ لقد تركت تجارتى فى بلاد الرقراق وجئت لأطمئن على أخى الذى افترقت عنه منذ أكثر من عشرين سنة . وإنى لأكاد أموت جوعا لطول الرحلة عبر الصحارى والقفار ، كما أحس رعدة الحمى من البرد بعد أن أغرقتنى مياه الأمطار طوال ليلة أمس . . فهيا ياامرأة أخى خذينى بقرب النار استشعر الدفء بينما تعدين بعض طعام يزيل عنى الجوع الذى يكاد يقضى علىّ . . . !

وأمام المدفأة وهو يأكل، أخذ الرجل يسمع من الأرملة كيف مات أخوه فى حادث

بالبحر ، وكيف أحضروه إليها وهو لايستطيع أن يخرج من بين شفتيه سوى لفظ واحد فقط لم تستطع أن تفهم ما يعنى به . . فقد كان يقول . . الكنز . . الكنز . . ولاشىء بعد .

وفكر الرجل قليلا وهو يتلكأ فى المضغ قبل أن يجيب :

ـ الكنز يازوجة أخى العزيز . . الكنز . . أجل إنك تريدين معرفة مكانه . . ولعلك إذا أذنت لولدك بالخروج معى للبحث عن الكنز الذى أظنه فى واد كنا قد اجتزناه معا أنا وزوجك ذات يوم . . فسنعود معا محملين بجواهر لاحصر لها ولامثيل . .

وابتلعت المرأة لعابها وهى تبتسم فى فرح . . فقد استطاعت أخيرا أن تعرف سر الكنز . . !

ومكث الرجل ضيفا عليها بضعة أيام . وعندما جاء اليوم الذى حدده للرحيل خرج ومعه الغلام يحمل كيسا كبيرا ملأته لهما بكل مايلزمهما خلال الرحلة من طعام وشراب . وقطع الاثنان معا عدة أميال فى طرق طويلة وعرة . وحين أحس الغلام التعب قال لعمه :

ـ لقد تعبت ياعماه . . وما عدت أقوى على السير أكثر مما سرت . . .

وعنف الرجل الغلام فى قسوة لضعفه وخوره . . فاندفع يمشى بأقصى مايستطيع من سرعة يمكن أن يحتملها جهده الصغير . . .

وتوقفا آخر الأمر عند تل تسلقاه . وعندما بلغا قمة التل أمر التاجر الفتى الصغير بجمع حمل كبير من الحطب ، وإشعال النار فيه . وجمع الفتى الحطب ثم وقف أمامه لايدرى كيف يوقده فى حين وقف عمه يتأمل . . ولا يفعل شيئا قط . . !

وأمره الرجل أن ينفخ بفمه كما لو كان يشعل النار . وظل الغلام ينفخ وينفخ والنار لاتريد أن تشتعل . وقال لعمه :

ـ عماه . . .

ولم يتركه الرجل يكمل . . فقد صفعه على وجهه وهو يقول :

ـ اسكت أيها البغل فلست عم أحد . . انفخ . .

وعاد الفتى ينفخ فى الحطب ورأسه يدور . . فهذا الرجل إذن ليس عمه . . وهو لذلك يعذبه ويصفعه ويقسو فى معاملته قسوة لا مبرر لها . .

وفوجىء الفتى بالرجل يلطمه من جديد ويقول :

- إنك لاتنفخ جيدا . . انفخ وإلا قضيت عليك . !

وبكى الغلام . . وأبى أن يعيد النفخ . .

وانهال الرجل عليه ضربا وركلا حتى تعب وتحول هو إلى الحطب ينفخ فيه بقوة . . حتى اشتعلت النار فجأة ، وأمسكت بالحطب حتى أتت عليه . وعندئذ . . ظهر بين الرماد باب سحرى ، أمر الرجل الفتى الصغير أن ينحنى عليه ويفتحه بيديه .

وأخذ الغلام يجذب الباب بشدة . ولكن الباب أبى أن يفتح . . وعاد الرجل يضرب الفتى بشدة ويقول له :

- إنك بغل كبير . . . لاتريد أن تعمل إلا تحت ضرب السياط . . .

وعاد الصغير يجذب الباب بكل مامنحه الله من قوة . . وأخيرا رفع الباب من مكانه . . وإذا تحت الرماد سرداب طويل يضيئه مصباح . . تراكمت حوله كميات كبيرة من الزهور مصنوعة من ذهب !!

وأمر الرجل الغلام بالنزول فى السرداب ، وحذره من أن يطأ الزهور الذهبية بقدميه ، وأمره أن يذهب إلى المصباح المعلق فيأخذه وينير لنفسه المكان . حتى يستطيع أن يجمع ما يستطيع جمعه من الأزهار الذهبية ، ويضعها على صحفة من ذهب كانت هناك .

ونفذ الغلام الأمر ، ورفع الصحفة المملوءة بأزهار الذهب فناولها الرجل ، ثم طلب منه أن يرفعه إلى الخارج ليغادر السرداب . غير أن الرجل لم يكد يأخذ صحفة الذهب حتى ضرب الكفين الممدودتين إليه فى قسوة ، ثم أغلق الباب الحديدى السحرى . . ومضى تاركا الصبى حبيسا داخل السرداب المظلم المخيف . !

وأخذ الغلام يبكى ويستغيث . ولكن صوته الضئيل لم يكن من الممكن أن يخترق الباب الحديدى الضخم الذى يفصل بين السرداب وسطح الأرض . . !

ومرت الساعات طويلة قاسية ، وبدأ اليأس والجوع يحطمان أعماق الفتى الصغير .

وبدأت عينا الفتى تنضبان فلا تجدان حتى الدموع . ومد يده الصغيرة يمسح مافوق خديه من آثار الدموع . . وقد خطر بباله أن ينهض ليدور فى السرداب عله يجد أى شىء يستطيع أن يأكله .

ومد الفتى يده إلى الأرض يتكىء عليها فاصطدمت كفه بالمصباح الذى كان ملقى على الأرض فى الظلام . . واحتك الخاتم الذى يضعه فى إصبعه بجوانب المصباح . . وفى لحظة . . أضاء المصباح كأنه البرق . . ثم خرج منه فى الحال عفريت مارد . . انحنى أمام الغلام فى احترام وقال له :

ـ مولاى . . أنا خادمك بين يديك . . مر بما تريد أنفذه فى اللحظة والتو . . !

وارتعد الفتى الصغير حين رأى العفريت . غير أن انحناءته وكلماته العامرة بالاحترام أزالت من قلب الفتى شبح الخوف . . وانطلق لسانه يقول فى دهشة :

ـ هل تستطيع ياسيدى أن تفتح الباب وتخرجنى . . !

وفى لمح البرق ، مد العفريت ذراعه العملاقة فنحى الباب الحديدى ، ثم مد يده فرفع الغلام من داخل السرداب ليضعه على سطح الأرض . ولم يكد يفعل حتى اختفى فجأة . . تماما كما ظهر من قبل .

وانطلق الغلام يجرى ويجرى ، وفى يده المصباح حتى بلغ داره . وعندما دخل البيت ألقى بنفسه فى أحضان أمه التى صرخت حين رأت هزاله ، وسألته عما به فقال لها : إنه لايستطيع أن يقص عليها الأمر حتى تقدم له مايسد رمقه .

وقالت الأم فى أسف حزين :

ـ ياولدى المسكين . ليس فى المنزل شىء أقدمه لك . . !

قال الغلام :

ـ لاتحزنى يا أمى . . سأبيع هذا المصباح الذى وجدته فى السرداب . ثم نشترى بثمنه طعاما كثيرا .

وبدأ الفتى يحك المصباح لينظفه . ومرة أخرى لمس الخاتم جوانب المصباح . . فإذا البرق يخطف ، وإذا العفريت ينطلق منه ، وينحنى فى احترام قائلا :

ـ مولاى . . أنا خادمك بين يديك . . مر بما تريد أنفذه فورا .

ولم يرتعد الفتى هذه المرة . بل قال له فى شجاعة :

ـ أرجوك أن تأتينى بأرز مطهو . . وآخر غير مطهو . . !

وفى اللحظة نفسها . . امتدت أمام الفتى وأمه مائدة حافلة بأطباق أرز ساخنة ، وإلى جوارها أكياس أخرى مليئة بأرز كأنه حصد منذ لحظات .

ومضت أيام . . ونسى الغلام أمر المصباح . . !

ثم مضى عام . . وتبعته أعوام . . وبلغ الغلام مبلغ الشباب .

وذات يوم . . بينما هو يسير فى الطريق . . مرت به ابنة حاكم المقاطعة تزهو فى محفتها وهى فى الطريق إلى البحيرة . وأخذ الفتى يرقبها ويتبعها حتى بلغ حاملو المحفة جانب البحيرة . . ونزلت الأميرة الجميلة وخلعت ملابسها . . ثم انزلقت إلى الماء تستحم .

واختبأ الفتى خلف شجرة ، وراح يرقب حركات الأميرة ، التى شغفته حبا . وعندما عاد إلى البيت آخر اليوم كان ملء أعماقه رغبة فى أن تصير الأميرة زوجة له . . !

ـ كيف يا ولدى . . وهل تجرؤ على خطبة ابنة الراجا ونحن فقيران لانملك شيئا!؟

أجاب الفتى العاشق :

ـ اذهبى إليه يا أماه واسأليه عن شروطه . . لعل السماء التى ملأت بالحب قلبى أن تمنحنى ما يطلب الراجا لقاء هذا الحب . . !

وانطلقت الأم إلى الراجا فوقفت ببابه . وقالت له فى استحياء إن ولدها يحب الأميرة . . ويسأله أن يأذن له بزواجها . . !

وأجاب الراجا :

ـ لا مانع لدى من أن تتزوج ابنتى . . ولكنى لن أزوجها إلا لمن يستطيع أن يقدم لها من المال مايزيد على ما أملكه أنا نفسى . . !

ورجعت الأم إلى ولدها فحدثته بما أجاب الراجا . وامتلأ الفتى حيرة وراح يقضى النهار والليل يفكر ويبكى . . والعشق يكاد يقضى عليه .

وبينما الفتى فى عذابه إذ ذكر العفريت الذى كان يظهر له عندما يحك المصباح بخاتمه . فأسرع إليه وحكه بخاتمه ، فإذا العفريت أمامه . . وما إن طلب منه مايريد حتى قدم له من المال أضعاف مايملكه الراجا . .

وحمل الفتى كنزه إلى قصر الراجا الذى فتح عينيه دهشة . ثم قبله خاطبا لابنته ، حدد موعدا قريبا لإتمام الزفاف .

وانقضى الموعد ، والحب يكاد يهلك الفتى ، والراجا لايريد أن ينجز وعده . وعندما ذهبت إليه أم الفتى آخر الأمر تستنجزه الوعد ، أخذ يحاول التهرب والتحلل مما

وعد به ، فلما ضيقت عليه الخناق طلب أن يعد الفتى لابنته قصرا لايقل عن قصره رونقا وفخامة . !

وأمسك الفتى المصباح من جديد . . وطلب من العفريت أن يبنى إلى جوار قصر «الراجا» قصرا يفوقه رونقا . . وما إن أسفر الصبح حتى كان العفريت قد انتهى من تشييد قصر رائع بدا قصر « الراجا» إلى جواره كوخا ضئيلا .

وكان لابدللراجا بعد ذلك أن يمتثل . .

وتزوج الفتى بفتاته . . .

ومضت شهور . . وتلتها شهور . .

وذات يوم خرج الفتى فى رحلة صيد . وبينما هو على مسافة غير قصيرة من القصر . ظهر أمام الرتاج رجل كئيب الوجه عملاق . كان هو نفسه « العم الشرير» الذى حبس الغلام فى ظلام السرداب .

وفتحت الأميرة باب القصر للرجل الذى كان يحمل مصباحا جديدا يتألق ويبرق . وعرض الرجل على الأميرة المصباح الجديد متنازلا عنه مقابل أى مصباح قديم تعثر عليه فى القصر . . !

وفرحت الأميرة بالمصباح الجديد . . وانطلقت تبحث عن مصباح زوجها القديم الذى علاه الصدأ ، فأعطته للرجل . . وهى لاتدرى من أمره شيئا . . !

وعندما ابتعد الرجل قليلا عن القصر . . حك المصباح بخاتمه . . فظهر العفريت وانحنى يقول له :

ـ مولاى . . أنا خادمك بين يديك . . مر بما تريد أنفذه فى التو واللحظة . . !

وطلب الرجل من العفريت أن ينقل القصر والأميرة بداخله إلى بلده عبر البحار. . .

وعندما عاد الأمير من صيده راعه ألا يجد لقصره أثرا . . فطفق يصرخ ويبكى كمن أصابه مس . . وينادى على زوجته الحبيبة . . ولكن رجع الصدى وحده هو الذى كان يجيبه من بعيد . . !

ولم يكن من الممكن أن يفهم « الراجا» شيئا من ذلك السر المجهول . . كل ماكان يبغيه هو أن تعود ابنته التى اختفت مع القصر . . وصرخ « الراجا» فى الفتى وهو يهدد ويتوعد :

ـ سأمهلك أيها الفتى ثلاثة عشر يوما . فإذا لم ترد إلىّ ابنتى خلالها . . قطعت رأسك قبل الصباح .

وانطلق الفتى يبحث فى جنون . وطفق يدور فى كل مكان . . فى الصحارى والقفار . فى الجبال والوهاد ، ولكن أحدا لم يستطع أن يهديه قط . . !

وجاء اليوم الثالث عشر ، وأيقن الفتى أن الغد سيحمل له الموت . . فاستسلم لقدره، وصعد إلى قمة جبل ينام على الصخر ويريح جسده المنهوك .

وبينما هو نائم . . إذ احتك خاتمه بالصخرة التى أسند إليها رأسه . . وفى لحظة . . ظهرت جنية أيقظته وسألته عما يريد . . !!

وصرخ الفتى :

ـ لقد فقدت زوجتى وقصرى . . فدلينى على مكانهما إذا كنت تعرفين .

وتحولت الجنية إلى نسر كبير طار به فى الهواء . وعندما بلغ بلد التاجر هبط النسر وترك الفتى أمام باب القصر . . ثم اختفى كأنما ابتلعته الأرض .

وبقدرة السحر حول الفتى نفسه فى هيئة كلب . وانطلق فى حديقة القصر حيث كانت الأميرة تستلقى فى ذهول . وعندما رأته يتمسح بها ، وأطلت فى أعماق عينيه أدركت أنه زوجها الحبيب . . فعانقته وراحت تحدثه عن التاجر الذى خطفها . وعندما سألها الفتى عن المصباح . . قالت له إن التاجر لايتركه فى القصر أبدا . . بل يحمله فى سلسلة تحيط بعنقه حتى لايخطفه منه أحد . . .

وسألها زوجها :

ـ وما الذى يمكن أن نصنعه الآن . . !؟

أجابته الزوجة الوفية :

ـ إن الشر لايقضى عليه سوى الشر فدعنى أدس له السم فى طعامه هذا المساء . . !

وعندما عاد التاجر من عمله . . أمر بعشائه فأعد له . ولما انتهى منه أحس آلاما كريهة قاتلة . . ولم يكد يدرك سرها حتى سقط على الأرض ميتا . . !

وعاد الكلب إلى صورته الأولى . . ومد الفتى يده فخلع المصباح من السلسلة التى تحيط بعنق التاجر . وسأل العفريت أن يعيد القصر وهما فيه إلى مكانه الأول . . بجوار قصر الراجا . . .

وحمل العفريت القصر فوضعه فى مكانه القديم . . ولكنه قبل أن يختفى أقسم ألا يعود أبدا . . فما عاد يستطيع حمل القصور . . !

أسطورة هندية
عريس واحد وستّ فتيات

هذه الأسطورة فى الأدب الهندى مثل ما المجنون ليلى من مكانة فى الأدب العربى . ففيها يتمثل الحب بكل ما فيه من وفاء ، وبكل ما فيه من تضحيات ، وبكل مايصور من مثل عليا لها طابعها الفريد الخاص . .

ولكن . . جنبا إلى جنب مع قصة الحب البرىء ، تبرز من بين السطور قصة أخرى تزيح الستار عن نقائص المرأة السبع الكبرى . . الكسل ، والغرور ، والبخل ، والحسد ، والشراهة ، والغضب ، والإسراف . . وهو ما لم تنس أن تقدمه هذه الأسطورة . . !

لم يكن « مادهو » الحكيم الهندى يأسف لشىء أسفه لعجزه عن الحصول على زوج لكل من شقيقاته الست . . . كان يعلم جيدا أن فتياته يقضين فى داره أياما شقية ، وأن كلا منهن تتمنى أن تهجرها وترحل عنها إلى بيت أى زوج يمكن أن يقع فى شباكها . غير أن أحدا لم يحاول الاقتراب من بيت مادهو . فقد كان قبح « زهرة اللوتس » كبرى شقيقات الحكيم ، وسوء خلقها ينفران أى عريس من خطبة إحدى شقيقاتها الصغيرات . . . فقد كان لها هى وحدها الحق فى الخروج ، والحق فى الكلام ، والحق فى مخاطبة الشبان ، والحق أيضا فى الحصول على أول الأزواج . . !

وبلغت « زهرة اللوتس » سن الأربعين ، ولم يعد فى استطاعة شقيقاتها الانتظار أكثر مما انتظرن ، وانقلب حبهن لها حقدا وغيظا واستياء . . حتى لقد بدأت كل منهن تفكر فى وسيلة للخلاص من « العانس العجوز» لولا بعض خير يرسب فى قلوبهن . . من ذلك النوع الذى يملأ قلب شقيقهن .

ولمس « مادهو» مابلغ إليه الحال من حرج . . فأقسم ألا يرفض زوجا يتقدم لأى من الفتيات . . حتى ولو طلب الخاطب يد « نور الفجر» الصغيرة التى لم تتجاوز السابعة عشر بعد . . !

فى ذلك الوقت ، التقى مادهو بضابط شاب غنى يسمى « شاندور » . . وكان

شاندور من ذلك النوع من الشباب العربيد الذى لايعرف كيف تكون الحياة بعيدا عن زوجات الآخرين . . !! غير أنه فى ذلك اليوم الذى التقى فيه بمادهو، كان قد سئم عبء هذه الحياة وقرر أن ينفض عن نفسه ثوب الخطيئة . . . ويتزوج . . !

وعرض الحكيم على الضابط أن يزوجه واحدة من شقيقاته الست « الجميلات». ولم يرفض شاندور عرض صديقه . . غير أنه اشترط أن يقضى فى بيته أربعا وعشرين ساعة . . يكون له الحق بعدها فى اختيار العروس التى يريد . . .

وانطلق « مادهو » يبشر شقيقاته بالعثور على الزوج . . ويخبرهن بالشرط الذى أبداه .

وهزت « زهرة اللوتس» رأسها فى استنكار وهى تقول :

ـ يتخير عروسه . . !؟ هل نحن بقرات يأتى الغريب ليقلبهن ويركبهن ليشترى منهن واحدة . . !؟

وقال لها مادهو :

ـ إن هذا من حقه . . ومع ذلك فإن لك امتياز التقدم إليه قبلهن . . بحكم الأقدمية . . !

وهتفت الفتاة :

ـ ولكن لم لاتقدمني وحدى على شقيقاتى . . ثم يكون لهن حق الزواج بعد ذلك من أى فتى يردن . . !؟

ـ لقد فعلت ذلك مدى عشرين عاما . . ولكن الضابط أصر على شرطه . . فهل أدعه يفلت منا . . ؟

هتفت الفتيات الباقيات فى صوت واحد :

ـ لا . . لا . . إن من حقنا نحن أيضا أن نتزوج . . ومن حقه وحده أن يختار الزوجة التى يريد . . !

وعاد الحكيم يقول :

ـ ولكن أريد أن أصارحكن بما لا أبوح به لأحد غيركن . لقد اجتمعت فيكن النقائص السبع الكبرى : الكسل ، والغرور ، والبخل ، والحسد ، والجشع ، والغضب ، والإسراف . . ويجب أن تتخلصن منها قبل أن يأتى الزوج المنتظر . . !

وصاحت « زهرة اللوتس» فى شقيقاتها وكأنها وضعت على رأسها هالة قديسة :

ـ إن النقائص السبع تجتمع فيكن . . ولهذا فلن تستطيع واحدة منكن اختطاف العريس الجديد الذى سيكون من نصيبى وحدى . .

وهتفت أسولا :

ـ إن النقائص فيك أنت وحدك . أما أنا فطاهرة نظيفة لايستطيع أحد أن يعثر لى على نقيصة . . !

ودبت المعركة بين الفتاتين . واشتركت فيها بعد ذلك بقية الشقيقات . . عدا نور الفجر . . أصغرهن وأجملهن . . وأبعدهن عن أى نقيصة من النقائص السبع الكبرى .

وهتف مادهو:

ـ سكوتا . . وإلا فلا زوج . . !

وفى لحظة انتهت المعركة . وبدت كل منهن كأنها كانت بعيدة كل البعد عما دار فى القاعة منذ لحظات . واطمأن مادهو إلى الهدوء الذى ساد المكان ، فنهض ليدبر غرفة للضابط شاندور ، والجندى الذى يقوم على خدمته .

* * *

لم يكد « مادهو» يغادر القاعة حتى تسللت «زهرة اللوتس » إلى مخدعها ، فأوصدت من خلفها الباب ، وأخذت تلتهم أوراق كتاب « فن الحب » وتحفظ ماجاء به من نصائح تمكن المرأة من الفوز بقلوب الرجال . وعندما استوعبت كل ماقرأت من نصائح ، تزينت بأجمل مالديها من جواهر ، وارتدت أغلى مالديها من ثياب ، وفتحت الباب لتشترك مع شقيقاتها فى قاعة الجلوس . . !

وأطلت « زهرة اللوتس» إلى شقيقاتها . . فإذا كل واحدة منهن قد فعلت بنفسها مافعلته هى أيضا . . إلا نور الفجر ، فقد كانت لاتزال جالسة فى المقعد الذى كانت تجلس عليه من قبل بغير زينة أو جواهر ، تقرأ كتابا فى الشعر ، وكأنها لاتهتم بما يدور حولها على الإطلاق .

قالت موراري ، وهى التى تلى « زهرة اللوتس» فى السن :

ـ أقسم أننى وحدى التى سأفتن الضابط شاندور . . !

فأجابتها « يادادة » :

ـ لن يفتنه إلا جمالى . . وأنا واثقة من أننى أنا التى ستفوز بحبه وإعجابه .

وأسكتتها « زهرة اللوتس » وهى تستعيد فى رأسها نصائح كتاب « فن الحب» التى استوعبتها منذ لحظات وقالت :

ـ إنما تخدعن أنفسكن . . فأنا التى سأفقده وعيه . . !

فأجابتها أسولا ساخرة :

ـ طبعا سيفقد وعيه . . ولكن لقسوة الواقع . . !

وانطلقت اللعنات من فم زهرة اللوتس . . وأجابتها بألعن منها كل من الشقيقات الأخريات . وبينما الشجار يكاد يتحول إلى معركة ، ارتفع صوت « نور الفجر» فى رقة وعذوبة :

ـ ياشقيقاتى العزيزات . . خير لكن بدل الشجار أن تصلين لكاما . . إله الحب . . حتى يسبغ عليكن من الجمال مايسحر قلب الضابط ويغريه بالاختيار!

وسكتت الفتيات فى الحال . . ثم ركعن جميعا فى خشوع رافعات أيديهن إلى السماء يسألن كاما أن يزيدهن حسنا وجمالا فى عين العريس المنتظر . .

وفى تلك اللحظة ، دخل مادهو يعلن قدوم الضابط .

وانقطعت الصلاة . . فليس هناك وقت لإتمامها . . وأسرعت كل من الفتيات تتخذ لنفسها خير الأوضاع لإبراز محاسنها والكشف عن مفاتنها . . وترسم على شفتيها ابتسامة حارة تنم عن الترحاب الصادق ، والاستقبال الحافل . .

ودخل شاندور القاعة . ومن خلفه جنديه وتابعه « سانفو» . . وراح ينحنى تحية لكل من الفتيات اللائى وقفن كتماثيل مرسوم على وجهها بسمات صناعية جلية المعالم . . فرسم هو الآخر على وجهه بسمة من النوع نفسه وهو يقول :

ـ مرحى مرحى . . ما أروع المشهد الذى يتبدى لعينى ! لقد ملأتن أحلامى منذ أيام . . ورأيتكن بعين خيالى . ولكن خيالاتكن عجزت عن أن تصور الحقيقة الرائعة التى أتمثلها أمامى الآن . . فأنتن فى الواقع أكثر جمالا وأروع حسنا من كل ماتخيلت !

وتصنعت الفتيات الخجل ، وتركن أخاهن يجيب التحية الرقيقة العذبة بخير منها قائلا :

ـ مرحبا بك أيها الضابط العظيم . . الذى جمع كل صفات المجد والنبل والثراء . . !

وتحركت « زهرة اللوتس » إلى الأمام . . وبدا لها أن تكون البادئة بالكلام لعلها تلفت نظر الضابط إلى جمالها ورونقها . ورآها شاندور فانحنى من جديد أكثر مما انحنى من قبل . . والتفت إلى مادهو وهو يشير إلى زهرة اللوتس ويقول باحترام :

ـ ليحرسكما الرب فيشنو . . وليسبغ رعايته عليك وعلى أمك . . !!

وصرخت « زهرة اللوتس » مجفلة كأنما لدغتها عقرب :

ـ أمه . . أمه . . إننى صغرى أخواته . . أصغرهن جميعا . . !

وقال مادهو :

ـ أجل إنها من أصغر أخواتى . . فقد كان لى ست وثلاثون أختا رزق بهن أبى من ثلاث نساء . وقد تزوجن جميعا عندما كبرن . . ولم يبق سوى هؤلاء الفتيات الست الصغيرات . . !

وانحنى شاندور من جديد لزهرة اللوتس وهو يقول :

ـ ما أشد غبائى . . فقد خدعتنى الأصباغ على وجهك فحالت بينى وبين الحقيقة . . !

وجذب مادهو ضيفه فى اضطراب إلى الحجرة التى خصصها له . وعندما جلسا وحدهما قال شاندور :

ـ ما أجمل شقيقاتك وأفتنهن ! وما أسعدنى بالحصول على عروس منهن تزيل وحشتى وتملأ وحدتى وتترع حرمان قلبى .

وأجابه مادهو فى ابتسامة راضية :

ـ إذا أردت أن تسعد حقا فأنا أرشح لك « زهرة اللوتس » . . فهى مثال الرقة والعفة وعلو النفس .

وهز شاندور رأسه وهو يقول :

ـ حقا . . حقا . . إن لها لصفات حميدة كثيرة . . ولكن هناك سنها . . !

أجابه مادهو :

ـ لاتخدعنك الظواهر . ومع هذا أليست الكبرى هى أقدر الجميع على الفهم والإدراك وأكثرهن اهتماما بأمور الزوج وحاجات البيت . ؟

قال شاندور :

ـ أعلم هذا . ولكن ألست ترانى سريع الغضب عنيف الرد، وقد تعجز فتاة مثلها عن إرضائى؟ ومع ذلك فهبنى لا أميل إليها ولا أبغيها . . !؟

قال مادهو :

ـ لتكن الثانية إذن . . مورارى . . إنها مثال اللطف والسماحة والبراعة فى الحب والإرضاء .

هز شاندور رأسه وقال :

ـ لنفرض أننى لا أجد مايجذبنى إليها . فماذا يكون الأمر . . !؟

أجاب مادهو :

ـ تكون أحق بالثالثة . . رادها . . فهى أقدرهن على خلق السعادة وملء جو البيت فرحا وبهجة .

قال شاندور:

ـ هب أننى . . .

وقاطعه مادهو :

ـ يبقى بعد ذلك اثنتان . . يادافا ، وأسولا . ودعنا من أمر نور الفجر فمازالت صغيرة يافعة . . !

وسكت شاندور ، وسرح ببصره فى شرود . ثم قال وهو يهمس :

ـ إنها لطيفة . . .

وأسرع مادهو قائلا :

ـ بل إنها غاية فى اللطف والرقة . . وهى أفضل من جميع الأخريات إذ هى خلو من كل العيوب . . !

وانتهز الضابط الفرصة وهتف :

ـ إذن للأخريات عيوب !؟

وعض مادهو على نواجذه لزلة لسانه . ولم يجد إلا أن يقول له :

ـ إن بوسعك على أى حال أن تختبرهن بنفسك . وستجد متسعا لذلك خلال الساعات الأربع والعشرين التى ستقضيها بيننا . وأؤكد لك أنك ستجد كل واحدة من

الفتيات خيرا من الأخرى حتى لتعجز عن اختيار أفضلهن . . !

ووافق الضابط على فكرة الاختبار، وقرر أن يختبر كل واحدة من الفتيات على حدة . . . يجلس إليها فترة فى المساء ، يتحدث إليها ، ويستشف أخلاقها وثقافتها ويقارنها بالأخريات .

وقبل أن يهبط الليل خرج الجميع إلى الحديقة ، وراح شاندور يجرب أمامهن قوسه وسهامه ، فيصفقن له كلما أصاب هدفا . وظلوا على ذلك حتى جاء المساء .

وهنا بدأ الاختبار . . وكانت « زهرة اللوتس» قد ذهبت إلى مطبخ الدار تصنع عجة . فحمد شاندور للقدر تلك الفرصة وجلس مع الفتاة التى تليها « مورارى» .

لم تكد مورارى تدخل قاعة الجلوس حتى تثاءبت . وعندما دعاها للجلوس ليتبادلا الحديث قالت له :

ـ مادمت تريد أن نتحدث . . فأرجو أن تحضر ذلك المقعد الذى فى أقصى الغرفة لأجلس عليه . . !

ونهض « سانفو» من مكانه ليقدم لها المقعد وعندئذ لمحت فى يده مروحة صغيرة فقالت له :

ـ ماأشد الحر هنا ! ألست ترى أننى ، وأنا امرأة ، أحق منك بهذه المروحة؟

وقدم لها « سانفو» مروحته فى هدوء . فأمسكتها بيدها وظلت فى جلستها ساكنة والعرق يغشى جبهتها وخديها . وعندما ازداد عرقها قال لها الضابط :

ـ حركى المروحة حتى تمنع الحر عنك . . !

قالت له وهى لاتزال ساكنة :

ـ إننى تعبة . . فهل لك ياعزيزى أن تأمر الخادم بتأديه تلك المهمة !؟

وانحنى التابع فى سخرية ، وأمسك المروحة وراح يحركها أمام وجهها ليخفف عنها الحر . أما الضابط فقد أخذ يحدثها فى شؤون شتى . . يتنقل بها من حديث إلى حديث ، فلا يجد جوابا بأكثر من لا أو نعم . وخيل إليه أنها قد استكثرت حتى الإجابة بإحداهما عندما وجدها لاتجيبه . وبعد لحظات سمع غطيطا خفيفا يتصاعد مع زفرات مورارى . . لقد كانت نائمة . . !!

وتناول الضابط المروحة فألقاها على وجهها فلم تتحرك ، فنهض من مكانه ليغادر القاعة ، وإذا ضحكة صاخبة تنطلق لدى الباب . . فأطل فإذا «زهرة اللوتس» التى

كانت تسترق السمع تدخل القاعة هاتفة :

ـ هل نامت الكسول كالعادة . . ؟ إن هذا هو عيبها الذى تفشل دائما فى إخفائه .

وتقدمت « زهرة اللوتس» من أختها وراحت تهزها فى عنف . . فلما استيقظت وأدركت ماكان ، صرخت باكية ، وغادرت القاعة فى خطوات سريعة متعثرة وهى تخفى وجهها بين يديها فى خجل شديد . .

وجلست « زهرة اللوتس» بجوار الضابط . وبدأت تحدثه وتقول :

ـ لست أدرى كيف نامت هذه الكسول. وهل يطيق الرجل امرأة تنام بين يديه . . !؟ إننى لايمكن أن أنام حين يحدثنى زوجى الحبيب ويجلس معى .

وبينما هما يتحدثان إذا بالشقيقة الثالثة ، رادها ، تدخل القاعة فى صخب بلا استئذان ، ثم تهتف فى أختها وهى تختلس النظر إلى الضابط الجميل :

ـ أهكذا تهملين العجة وتتركينها على النار حتى تحترق !؟ لو كنت مكانك لاهتممت بالطعام وأتقنت صنعه بدل أن أتركه يفسد . . !

وأدركت « زهرة اللوتس» أن أختها تريد أن تنتهز الفرصة لتكشف عيوبها . . فقالت لها ساخرة :

ـ هل تظنين أنك بمسلكك هذا قادرة على إسعاده ؟

قالت لها رادها :

ـ بالطبع أستطيع إسعاده . سأهتم دائما بطعامه وأتقن صنعه . سأقدم له حساء السلحفاة فى السابعة صباحاً متى استيقظ من النوم ، وأقدم له الفطائر المحشوة فى الثامنة . وفى التاسعة أكون قد أحضرت له الإفطار وفيه طبق من المربى التى أتقن صنعها بيدى . ومتى جاءت العاشرة أكون قد صنعت له طبقا من الأرز بالتوابل . أما فى الحادية عشرة فسيكون اللحم قد تم طهوه فأقدمه له . وعندما يحل الظهر أكون . . . .

وصرخ شاندور يقاطعها :

ـ كفى كفى يا آنستى فمن المستحيل أن آكل كل هذا . . !

قالت رادها فى زهو :

ـ إننى أحب الطعام . ولذلك لايمكن أن أترك « العجة» تحترق . . .

وتذكرت « العجة» المتروكة على النار . فغادرت القاعة وانطلقت إلى المطبخ . . . وابتسمت « زهرة اللوتس» فى ارتياح ، فقد اقتنعت أن الضابط قد أدرك عيوب « رادها»

كما أدرك من قبل عيوب موراري . وهكذا اختفت من أمامها منافستان خطيرتان .

وعادت « زهرة اللوتس» تتحدث عن أختيها ، وتتبسط فى ذكر معايبهما . وبينما هى كذلك إذ انحنى التابع على ضابطه وأسر إليه كلمات ابتسم لها فى سخرية . وغاظ هذا التصرف « زهرة اللوتس» وظنته يسخر بها فهتفت فى عنف :

ـ منذ متى يتدخل الخدم فى أحاديث سادتهم؟

وسكت « سانفو» وهو يكظم غيظه ، حين حاول شاندور تهدئتها وتغيير مجرى الحديث وقال :

ـ وكيف تستطيعين أنت إسعاد زوجك !؟

أجابته زهرة اللوتس :

ـ ألا يكفى لإسعاد زوجى أن أبدأ حياتى معه بصداق كبير . . أكبر من صداق كل أخواتى إذ إننى أكبرهن . . !؟

قال لها شاندور :

ـ أنا لا أهتم بالصداق أو المال . . فأنا أملك منه مايزيد على حاجتى . . !

وتذكرت « زهرة اللوتس» أنها لم تنفذ النصائح التى قرأتها فى كتاب « فن الحب» . وحاولت أن تتذكر شيئا من تلك النصائح دون جدوى .

ونهضت « زهرة اللوتس » تستأذن فى الانصراف قليلا . . وفى ذهنها أن تذهب إلى حجرتها لتعيد قراءة « فن الحب» .

وعندما غادرت « زهرة اللوتس» القاعة . . ظهرت « أسولا » بالباب تختال رشاقة وهى تنحنى وتستأذن فى الدخول . وهمس الضابط كأنما يحدث نفسه :

ـ لقد ذهبت الكسول ، والأكول ، وسليطة اللسان . فماذا يكون وراءك أنت . . !؟

واستقبل الضابط « أسولا» فى ترحاب . ودعاها إلى الجلوس وهو يقول :

ـ ما أغبانى إذ أنسى الأسماء دائما . ! أليس اسمك أ . . س . . . ؟

وأسرعت أسولا تقاطعه :

ـ أسولا . . اسمى أسولا . . وإن شقيقاتى يسميننى « ذات الأنف المثلج» !

وفتح الضابط عينيه فى دهشه وقال :

ـ ولماذا يطلقن عليك ذلك الاسم ؟

أجابت الفتاة وهى تضحك فى مرح :

ـ لأن جسمى يصطك بردا فى أشد الأيام قيظا . . !

وهز شاندور كتفيه وهو يقول :

ـ مهما يكن الأمر فأنا لا أهتم بالجسد بقدر ما أهتم بالروح . ولهذا فأريد أن أسألك أولا سؤالا لم أستطع أن أجد جوابه عند شقيقاتك ، مما يجعلنى انصرف عن زواجهن . . . كيف تستطيعين إسعاد زوجك وما وسائلك إلى راحته؟

قالت له أسولا :

ـ ليس الأمر عسيرا قط . . فهناك وسيلة واحدة شاملة لإسعاده . . هى أن أفعل كل مايريد .

قال لها وهو يفتح عينيه دهشة :

ـ ماذا تقصدين بكل مايريد . . ؟

أجابت أسولا :

ـ أعنى كل شىء ، فعلى المرأة أن تطيع زوجها ، وألا تكون كسولا أو أكولا ، أو سليطة اللسان .

واهتز شاندور طربا وشعر كأنه قد وجد بغيته وعاد يسألها .

ـ وهل هناك وسائل أخرى لإسعاد زوجك؟

قالت الفتاة :

ـ إذا لم يكن يكفيه هذا فأنا أستطيع أن أجذبه إلى بمختلف الوسائل الأربع والستين التى ذكرها الإله كاما فى كتابه .

وامتلأت نفس الضابط غبطة وراحة وسرورا . فقد أيقن أنها هى الزوجة التى تستطيع أن تجعل من بيت زوجها جنة . . وقال لها :

ـ إنك نعم الزوجة يا أسولا . . خاصة إذا كنت تعرفين الرقص .

وضحكت أسولا . . فقد كانت بارعة فى الرقص . ونهضت فى رشاقة تقدم رقصة مثل رقصة شيفا . . لم تكد تستمر فيها حتى انطلقت من فم سانفو ضحكة جهد أن يخفيها . ولم تكد أسولا تراه يضحك حتى اقتربت منه ومدت كفها فصفعته فى غضب وهى تصرخ :

ـ أيها العبد . . خذ هذه لك . . !

ونهض شاندور غاضبا وصرخ فيها :

ـ لماذا فعلت هذا ! ؟

فمدت أسولا يدها من جديد وهبطت بصفعة أخرى على خد سانفو قائلة :

ـ وهذه لسيدك . . !

وانطلقت أسولا . . إلى خارج القاعة !

وفى تلك اللحظة كانت « يادافا » تتنزه فى الحديقة . وعندما أحست ضجة فى القاعة أسرعت لترى ما هناك . فوجدت شاندور منحنيا على « سانفو » يخفف عنه ما أصابه . وعندما شهدها شاندور ، اعتدل فى وقفته واستعد لاستقبالها . غير أنها أدارت ظهرها وانطلقت وهى تقول فى صوت مسموع :

ـ ألا ما أحقر سيدا ينحنى على خادمه . . ! إنما أريد أن أتزوج سيدا يحترم نفسه لاسيدا يحترم عبده . . !!

وذهل شاندور . وجلس على مقعده وراح يفكر . لقد كان من العجيب ألا يجد بين ست فتيات واحدة فقط تصلح للزواج . . وتخلو من العيوب . . فالأولى كسول ، والثانية أكول ، والثالثة سليطة اللسان ، والرابعة طويلة اليد ، والخامسة مغرورة يملؤها الكبر. والسادسة . . . .

ولكن أين هى السادسة . . نور الفجر ؟ إنه لم يختبرها بعد ، ولم تحاول هى الحضور إليه كما تتابعت شقيقاتها الأخريات . . !

وقرر أن يذهب هو ليراها . . !

وتسلل شاندور من القاعة ، وسار فى خفة حتى بلغ غرفة مسدلة الستائر ، وأطل من خلال أحد الثقوب ، فإذا « نور الفجر » رائعة وديعة . . جالسة فى هدوء تكتب على الورق. ووقف فترة طويلة يتأملها ، ثم سمح لنفسه أن يدخل الغرفة بغير استئذان. وانحنى أمامها معتذرا على جرأته فى اقتحام عزلتها ، وقال لها فى أدب :

ـ هل أستطيع أن أسمح لنفسى بسؤالك عما تكتبين . . ! ؟

وترددت « نور الفجر» لحظات . . ثم أجابته فى بساطة وخجل :

ـ كنت أنظم قصيدة . . .

قال الضابط :

ـ هل أستطيع أن أسمع بعض أبياتها . . !؟

ورفضت الفتاة فى خجل . غير أنه ألح عليها . فخجلت من الرفض ، وفتحت الورقة وراحت تقرأ له ماكتبته . . لقد كانت أبياتا رائعة من شعر الحب .

قال لها وقد سمح لنفسه أن يجلس :

ـ ما أروع معانيها ، وما أرق ألفاظها ! إنها لتكاد تحكى روعة جمالك ورقيق نفسك ، وتكشف الفرق الكبير بينك وبين شقيقاتك الأخريات .

وقالت له نور الفجر :

ـ إن شقيقاتى جميعا لطيفات . . رقيقات . . ولن تجد خيرا منهن زوجات . . !

ـ بل إن اختيار إحداهن زوجة لأمر شاق . فما وجدت واحدة منهن خالية من العيوب . . !

قالت له نور الفجر :

ـ لقد فهمتك الآن . فأنت صاحب مثل أعلى تريده فى المرأة . إنك تريدها أن تكون رقيقة عذبة ، بعيدة عن الغرور والحسد ، ربة منزل متحفظة ، أى أن تكون حائزة لجميع الصفات الحسنة . . وهذا ما لا يمكن أن يتوفر فى امرأة . . !

ـ ولكنها متوفرة كلها فيك يانور الفجر . . فهل تقبلين أن أكون زوجك !؟

وانطلقت من بين شفتيها كلمة واحدة :

ـ لا . . !

وفوجئ شاندور ، فما تصور أن تجيب امرأة على عرضه بالرفض . وأحست الفتاة مقدار الصدمة التى أصابته بها . ولكنها قررت أن تواجهه بحقيقة رأيها فيه :

ـ إنك ياسيدى تظن نفسك مالك رقاب . . يكفى أن تزور أسرة لينحنى لك كل فرد فيها . . وأن تصدر أمرك فيتلهف الجميع إلى إرضائك . إنك مستهتر مغرور ياسيد شاندور . ولن يشرف امرأة ، أن تقبلك زوجا . . لأنك تستهين بالمرأة وتحتقرها . . وترى فيها محظية فحسب . . !

وأراد شاندور أن يحتج ويعترض . . غير أنها لم تمكنه ، واستطردت :

ـ إذا كنت ترى أننى كاذبة فيما أقول . . فهل تقسم على أن هذا لايدور فى خاطرك !؟

وسكت شاندور . وراحت مظاهر الإعجاب المختلط بالدهشة تتضارب فى أعماقه . . وهنا قالت :

ـ إن سكوتك يعنى أننى صادقة . ومع هذا فأنا لا أستطيع أن أنكر أنك نلت إعجابى . وأننى إذا فكرت فى قبولك زوجا فإن لى شروطا أنا الأخرى .

وهتف شاندور مغضبا .

ـ شروط . . !؟ لعلك تظنين نفسك خير النساء . . لا يا سيدتى . . إنك لمغرورة متكبرة تغالين فى تقدير صفاتك . .

قالت له فى ابتسام :

ـ إذا كنت مغرورة فلدى ما أغتر به . أما أنت فماذا لديك . . أتراك كريما . . أم ذكيا !؟ إنك لاتستطيع أن تنكر أنك كسول . . !

وضرب شاندور الأرض بقدمه فى غيظ . ونهض من مكانه وغادر الدار مغضبا . وقد أقسم ألا يتزوج على الإطلاق . . !

* * *

فى اليوم التالى انطلق مادهو ومعه شقيقاته الخمس إلى الوزير ، وقد قررن أن ينتقم من الضابط الذى رفض زواج إحداهن . ولم تكن « نور الفجر » قد ذهبت معهن ، فقد أبت أن تشترك فى عمل لايرتاح له ضميرها ، أو هى فى الحق كانت قد أحبت الفتى فاستكثرت أن تشترك فى مؤامرة تدبر ضده . .

ووقف مادهو يطلب من الوزير إنزال النقمة بشاندور . غير أن الوزير لم يجد فى مواد القانون مايجعله يصدر حكما على شاندور . . ولم يكد يعلن ذلك حتى هتفت مورارى :

ـ هنا قانون يا سيدى يعاقب من لايدفع الضرائب . وشاندور لايدفع الضرائب قط رغم غناه .

وهتف الوزير :

ـ فكرة صائبة يا ابنتى . . فلنستدعه للتحقيق . . !

وأرسل الوزير جنوده لاستدعاء الضابط . وعندما حضر كان الوزير جالسا فى حجرة جانبية يدبر الأمر مع مادهو . . فى حين كانت الفتيات الخمس يجلسن مع «أونا» زوجة الوزير التى راحت تستمع إلى وصفهن له فى إعجاب . . ظل يزداد ويزداد حتى دخل الضابط القاعة . فأحست قلبها يخفق بين جنبيها ، ودار رأسها فى سرعة وأخذت تدبر أشياء أخرى غريبة . .

تقدمت « أونا» من الضابط وقالت له :

ـ لماذا ترفض دفع الضرائب أيها الضابط . . ؟

أجابها شاندور :

ـ ولماذا أدفعها . . !؟

قالت له :

ـ إن الضرائب تضمن للوزير حسن سير أمور الولاية .

قال لها :

ـ وإذا كنت لا أرى أن شؤون الولاية تسير سيرا حسنا . . !؟ بل أراها تسير من سيىء إلى أسوأ . .

وكان الوزير قد دخل فى تلك اللحظة . . فأثاره رد الضابط ، وأصدر أمره فى الحال باحتجازه حتى يتم التحقيق . . .

واقتيد الضابط إلى غرفة الحجز . . فى حين كانت « أونا » تتبعه بنظرات تشتعل برغبة متأججة .

وبينما هو فى غرفة الحجز ، إذ أطل عليه من خارج النافذة وجه كان يعرفه جيدا . . إنه وجه « نور الفجر » ، التى لم يستطع أن ينساها منذ غادر دار أخيها حتى تلك اللحظة التى ظهرت له فيها وهو غارق فى ظلمات السجن . . .

وهمست الفتاة :

ـ أيها الضابط . . أسرع بالفرار . . وخذ هذه الأدوات فاكسر بها نافذة السجن لتفر . . !

وهز شاندور رأسه وقال لها :

ـ ولماذا أهرب !؟ إننى أعرف جيدا كيف أرد على التهم التى يريدون إلصاقها بى . . .

ولكن نور الفجر هتفت فيه متوسلة :

ـ إن المسألة أدق وأخطر من كل مايبدو لك . . فهناك مؤامرة تدبر ضدك . فاهرب فى الحال أو ادفع لهم الضرائب التى يطلبونها منك قبل أن يلصقوا بك تهمة الاعتداء على الحكومة . . . !

قال شاندور :

ـ لن أدفع حتى أعرف سر الأمر بالقبض على . ومع هذا فما سر اهتمامك بى . . !؟

أجابت الفتاة :

ـ لقد شعرت بالخطر الذى يحيط بك . ولقد كرهتك عندما كانت النساء يتلهفن عليك . . أما الآن ، وأنا أحس الخطر المحدق بك ، فلا يسعنى إلا أن أسرع إليك لأنقذك . . فأنا . . أنا أحبك . . !؟

وفى تلك اللحظة سمع وقع قدمى الوزير . فاختفت نور الفجر . . فى حين دخل الوزير والحكيم وأونا والفتيات الخمس . ووقف الوزير يقرأ الحكم الذى أصدره على المتهم . .

ـ لقد حكمنا عليك أيها الضابط بالحرمان لمدة عام كامل من الحب . فإذا خالفت القرار كان عقابك الموت . كما تعاقب بالموت أيضا كل امرأة تشاركك الحب خلال تلك المدة . . !

وطربت الفتيات الخمس وصفقن شماتة ، فى حين رنت « أونا » إلى زوجها الوزير وهى تغمز بعينيها . .

وملأ الذعر قلب شاندور . . وفى لحظة كان قد ارتمى على قدمى مادهو وهو يهتف :

ـ إنى أرتمى على قدميك أيها الحكيم طالبا يد نور الفجر . . !

وصعقت الفتيات . . بينما كانت نور الفجر تدخل من الباب . وتحول الجميع إليها فإذا بها تقف فى جرأة وتعلن أنها تحب شاندور . . وأنها لن تتزوج سواه .

وهتفت « زهرة اللوتس » فى غيظ وشماتة :

ـ ولكن الحكم يحرم على الضابط الحب ولو ارتبطت معه برباط الزواج . . .

هز الفتى كتفيه وقد ارتاح لاعتراف نور الفجر . وقال :

ـ من أجل أن أكون جديرا بنور الفجر . . أقبل أن أظل عاما كاملا محروما من نيل ثمار حبى . . !

وتحول الحكيم إلى أخته وقال لها :

ـ إن من المستحيل ياشقيقتى أن يظل رجل وفيا لامرأة بعيدة عنه عاما بأكمله . فلا تصدقيه . . ومع هذا فإن عليه أن يدفع أيضا الضرائب كاملة . . !

فصاح شاندور :

ـ لا . . لن أدفع . . !

وعندما رأى الحكيم جرأة أخته ، وتصميم الضابط . . أمر اثنتين من أخواته باقتياد نور الفجر إلى البيت وحبسها هناك حتى لاتحاول الاتصال بالضابط السجين .

وبينما كان الجميع يغادرون غرفة السجن . . تأخرت « أونا » لتهمس فى أذن الضابط :

ـ إنك الآن تتحدى النساء . . ولكنك ستثوب إلى رشدك بعد حرمان شهر كامل منهن . وسأكون عندك أنا بعد انقضاء تلك المدة . . وسترى يومئذ أنك سترتمى تحت قدمىّ أنا . . . ملتمسا حبى . . !

وضحك شاندور فى سخرية فقد أقسم أن يكون وفيا لنور الفجر مهما طال به الحرمان . . ولو تجاوز العام . . .

والحق أن شاندور قد أثبت وفاءه للعهد . . فبرغم أن الحكيم ترك « زهرة اللوتس» لتراقب تنفيذ الحكم على الضابط بالابتعاد عن حب النساء . . وبرغم محاولات « أونا» خلال زياراتها له فى السجن لإغرائه بحبها . . ظل شاندور ثابتا على وفائه لنور الفجر . . ساخرا بكل رقابة . . مقاوما كل إغراء ، مثيرا بتلك المقاومة قلوب كل الناس الذين راحوا يهاجمون الوزير لقسوة الحكم الذى أصدره على الفتى . . ويتهمونه بالسماح لامرأته بالتدخل فى شؤون الحكم وإصدار أحكامه كما تهوى النساء . . !

وازدادت ثورة الرأى العام ضد الحاكم . . واضطر آخر الأمر صونا لكرامته إلى الذهاب إلى مادهو ، ودفع مبلغ كبير له كهدية صداق لإغرائه على قبول زواج الضابط بنور الفجر . . ودفع الضرائب المتأخرة من الهدية . . !

وانطلق مادهو إلى شاندور فى سجنه . . وعندما دخل عليه تلقاه بين ذراعيه . . وقال له :

ـ دعنى أهنئك على ثباتك فى حبك لنور الفجر . ولاتظن أننى قصدت أن أسبب لك كل تلك المتاعب فإنما كنت أريد أن اختبر قوة حبك وإخلاصك لها . وهانذا أقدم لك أختى نور الفجر لتكون زوجتك . . أما الضرائب المتأخرة عليك . . فقد ذهبت إلى الوزير بنفسى ودفعتها . . وهكذا سقط عنك الحكم . . !

وفى اليوم نفسه تم زواج العروسين . ومدت زهرة اللوتس يدها بنفسها فوق رأس اختها الصغرى تبارك زواجها . . وتتمنى لها التوفيق !

أسطورة يابانية

ابـن السـماء

ابن السماء . . هـو الاسم الـذى يطلقه اليابـانيون على الميكادو . . الجالـس على عرش اليـابان . ويعتقد سكان بلاد الشمس المشرقة أن نسب الميكـادو يمتد بضعة آلاف من السنين إلى زمن لم يكن فيه شىء قط . . سوى آلهة تلد ذكرا وأنثى . . ثم تموت . . حتى جاء يوم تعلم فيه إلهان شابان سر اتصال الذكر بالأنثى من الضفادع . . فبدأت قصة الخلق . . وجاء ابن السماء . . !

على رأس قوس قزح . . ذلـك الجسر الرائع الذى ينحدر مـن السماء إلى حيث مياه المحيط الواسع اللانهائى . . وقف الإله الشاب إيـزاناجى وفوق رأسه إكليل من النور ، يطل فى حيرة إلى رفيقتـه الإلهة إيزانـامى ، بجمالها الرائع وشعـرها المسترسـل على كتفيها كأسلاك الذهب .

وكانت الحيرة تملأ رأسى الإلهين الشابين ، فقد كانا يدركان خطورة المهمة التى عهد بها إليهما مجمـع الآلهة ، حين أصدروا إليهما أوامـرهم بـالهبوط مـن السماء ليخلقا أرضـا يقيمان على سطحها الحياة . !

ووقـف الإلهان الشابـان يحدقان فى الميـاه الصـاخبة التـى تهدر عند نهايـة الجسر . . أيمكن أن يكون هناك شىء صلب وسط هذا المحيط المتلاطم الأمواج يتخذان منه مقرا للعالم الذى كلفا أن يخلقا فوقه الحياة . . !؟

وبدا لايـزاناجى أن يتحسـس برمحه الطويل المرصـع بالجواهر صفحـة الماء عله يجد الأرض ، غير أن شيئا صلبـا لم يحتك بـالرمح قـط . . ويئس الإلـه فرفـع رمحه . ولم يكد يفعل حتى تساقطت من الرمح قطـرات من الماء راحت تتجمع وتتكثف وتصلب وتمتد فوق صفحة المحيط ،لتصبح أرضا صلبة واسعة . . كانت هى نفسها جزيرة أنوجورو.

وعلى سطح هذه الأرض هبط الإلهان . . وبدأت قصة الخلق . . .

* * *

لم تكد أقدام الإلهين تمس الأرض الجديدة ، حتى أحس كل منهما رعشة ضخمة وهو يطل إلى عين الآخر. وشعرا كـأن شيئا غريبا حارا يضطرب فى صـدريهما . وبدا لهما كأن

كلا منهما يرى الآخر لأول مرة . .

لقد كـان هناك شيء جديـد غريب يحدث للمرة الأولى على هـذه الأرض . . شيء اسمه الحب . . !

وكما لم يحدث لهما فى السماء من قبـل ، بدأ إيزانـاجى يرى فى إيـزانامى أشيـاء أخرى جديدة رائعة ، أحسها جيدا وهو يتأمل شعرها الطويل ، وعينيها السوداوين ، وشفتيها السـاختتين ، وذراعيها المليئتين ، وقـوامهـا الفارع الممشـوق . ولم تكن إيـزانـامى هـى الأخرى بـأقل منه إعجـابا به . . فقد وجـدت أمامها شـابا رائعا ، فى صـدره قوة ، وفى ذراعيه عنفوان ، وفى نظراته دعوات كأنها السحر . . .

وراحت الربـة الحسناء تتأمله فى إعجـاب وهو يقيم نصبا ضخما يبـدآن منه دورتين يكتشفان خلالها هذه الأرض الجديدة . . ثم يعودان ليلتقيا عنده مرة أخرى . . .

وبدأ كـل منهما دورته . . فـأخذ إيزانـاجى أحد الاتجاهين ، وسـارت إيزانـامى فى الاتجاه المضاد . . .

وبينما كان كـل منهما يأخـذ طريقه على طـول شاطىء الجزيـرة ، أخذا يشهـدان ما تصنعه الضفـادع فى الماء وفوق الـرمال ، وأخـذ بهما العجب وهما يكشفـان سر اتصال الذكر بالأنثى . . وبدأت تملأ رأسيهما فكرة جديدة لم يعرفاها من قبل . .

وهكذا لم تكد إيزانامى تصل إلى النصب وتلتقى بإيزاناجى ، حتى بادرته وفى عينيها فرح كبير.

ـ ما أقواك يا إيزاناجى . . وما أشوقنى إلى أن اتزوجك كما تتزوج هـذه الضفـادع . . !

واضطرب إيزاناجى . . فقد كان يريد أن يبدأ هو بالكلام . وبدا على وجهه غضب كبير وهو يهتف فيها :

ـ كيف . . وأنت امرأة . . تتكلمين أولا ؟ إننى أنا الرجل . . وبهذا الحق كان يجب أن أبدأ أنا الكلام . . إن هذا لنذير سوء . . !

وبكت إيـزانامى ، وطـأطأت رأسها إلى الأرض . وبـدأ الهدوء يعود إلى إيزانـاجى ، وهو يرى دموعها الإلهية لأول مرة . . وقال لها :

ـ لنستأنف الدوران من جديد . واحذرى أن تبدئى الكلام متى التقينا . . !

وعاد الإلهان يستـأنفان الـدوران حول الأرض . وفى هذه المرة . . عنـدما التقيـا عند النصب الكبير . . بادرها إيزاناجى بالحديث وهو يقول :

ـ إيزانامى . . ما أبهجنى إذ ألتقـى بعروس حسناء مثلك . . فهل تقبل الحسناء أن

نكون زوجا وزوجة . . !؟

وأومأت إيزانامى برأسها . . .

وهكذا تزوج الإلهان . . !

ولم يكد يمضى من الوقت سوى قليل ، حتى أنجبت إيزانامى أربعة آلاف ومائتين وأربعة وعشرين ابنا هم مجموع جزر اليابان . . بكل مافيها من جبال وصخور وأنهار . . وبكل مايعمرها من أناس وحيوان ونبات . . !!

وجلس الزوجان ذات يوم يتحدثان . وقالت إيزانامى لزوجها إيزاناجى :

ـ لقد أنجبنا هـذا العدد الكبير من الأبناء لنخلق الأرض ونملأهـا بالحياة . . فلم لا نخلق ابنا جديدا يكون سيدا لكل الأرض . . !؟

ولم يكن هناك مايمنع التنفيذ . . .

وولدت إيـزانامى أنثى هـى أماتيراسو . . ربه الشمـس . . التى بلغت من الـروعة والجمال حدا جعـل والديها يقرران إرسالها على الجسر الإلهى إلى السماء . . لتستقـر هناك . . ولترسل أشعتها الذهبية البراقة لتنير الأرض . . !

وعاد الإلهان ينجبان من جديد . .

وكان الابن الثانى هو تسوكى يومى . . إلـه القمر الذى كان تألقه الفضى أقل روعة من تـألق شقيقته . إلا أنه بـدا حقيقا بأن يكون رفيقـا لها ، فأرسله أبواه على قـوس قزح ليستقر هو الآخر فى السماء . .

غير أن الأخويـن سرعان ماتشـاجرا واختلفا وصرخت امـاتيراسو فى أخيها تسـوكى يومى ذات يوم :

ـ إنك دعى محتال . . إننى أكرهك . . ولا أريد أن أرى وجهك بعد الآن . . !

وذهب تسوكى يومى إلى أبيه يشكو أخته . فلم يسع الأب إلا أن يبعد كلا منهما عن الآخر . . ومنح أماتيراسو مملكة النهار، كما منح أخاها تسوكى يومى مملكة الليل . . !

واستمر الأب والأم ينجبان . . .

وكان الوليد الجديد هو سوزانـو ، الذى لم يكد يهبط على الأرض، حتى أثار صخبا وضجيجا وزوابـع جعلت منـه رب العواصـف . واضطر أبـوه أن يسلمه مملكـة البحار بأمواجها التى تبلغ ثمانمائة ألف موجة . . !

ولم تكن إيزانامى قد اكتفت بالأبناء بعد . . .

وكان الـوليد الجديد الذى أنجبتـه هذه المرة هو كـاجوتسوشى ، رب النـار، الذى لم

يكد يولد حتى أصاب أمه بحمى قاسية شديدة . . أحرقتها . . !

وكان لابد لإيزانامى بعد ذلك أن تنحدر إلى العالم السفلى . . بعيدا عن الأرض التى خلقتها . . !

* * *

اختفت ربة الأرض ، وبقى زوجها وحيدا شقيـا لايحس لحياته معنى على الإطلاق . وكان إيزاناجى يعلم أن الأموات عندمـا ينتقلون إلى العالم السفلى لايدركهم الفناء ، بل يقضون هناك حياة أخرى جـديدة . وكان يعلم أنه سيأتى يوم يـذهب هو الآخر فيه إلى العالم السفلى حيث يلتقى بزوجته . . .

غير أن إيزانـاجى ، لطول مـاحزن وتألم لفراق زوجتـه ، لم يطق انتظار ذلـك اليوم ، وقرر أن يذهب بنفســه إلى أرض الجحيم ليراها ، وليحاول انتزاعها مـن هناك والعودة بها إلى الأرض !

وانطلق إيزاناجى إلى المنفذ الـذى يفصل بين الأرض والعالم السفلى ، وانحدر منه إلى مملكة الجحيـم ، حيث الظلمـة تطغى على كـل شىء ، وراح يجوب الطـرقات المظلمـة محاولا اختراق حجب الظلمة ببصره بحثا عن زوجته الحبيبة . . ولكن دون جدوى .

وحين ملأ اليـأس قلب إيزانـاجى من العثـور عليها ، قرر العـودة إلى سطح الأرض ليحبس نفسه حتى لو قضى عليه بالذهاب إلى عالم الظلمات . . !

وبينما هو يدير قدميه ليعود أدراجه ، فوجئ بصوت رقيق يهمس فى أذنه :

ـ هذا أنـت يازوجى الحبيب . ألا مـا أسعدنى بلقياك . . ومـا أعظم الشرف الذى أضفيته على بمجيئك بحثا عنى فى عالم الظلمات . . !

وتلفت إيزاناجى إلى حيث مصدر الصـوت ، وحاول أن يرى زوجته ، ولكن الظلمة الحالكة لم تكن تبدى له شيئا قط .

وقال يخاطب صوت إيزانامى :

ـ زوجتى الحبيبة . . تعالى إلى . . اقتربى منى . . لقـد اخترقت من أجلك كل هذه الظلمات . . عودى معى إلى عالم النور . . إلى الأرض التى لاتزال تنتظر منا الكثير . . .

وسمع إيزاناجى صوت إيزانامى يقول :

ـ أبدا يازوجى الحبيب . . لقد مضى الوقت الذى كان يمكن أن أعود فيه إليك . . فقد جئـت متأخرا جـدا . . إذ أكلت منذ لحظات طعـام الجحيم الذى لايستطيـع من يذوقـه إلا أن يستلقى ليستريـح فى عالم الظلمات . فاذهـب أيها العزيـز . . اذهب ولا

تحاول الاقتراب منى أو النظر إلى أو رؤية وجهى . . فالقانون هنا صارم مخيف . . لايسمح فيه للأموات أن يراهم الأحياء قط . . !

وصرخ إيزاناجى . . أيمكن بعد كل تلك المتاعب التى لقيها خلال رحلته الشاقة عبر العالم السفلى ، أن يعود بغير أن يراها . . !؟ أبدا . . إنه لن يستطيع العودة بغير رؤية زوجته الحبيبة . . !

وبرغم الوعد الذى قطعه على نفسه بألا يحاول رؤيتها ، فقد وجد نفسه آخر الأمر ، مدفوعا بفضوله وعاطفته معا ، إلى أن ينقض الوعد . . .

وفى بطء مد إيزاناجى يده إلى مشطه المغروز فى شعره فانتزعه من مكانه ، وكسر إحدى أسنانه . . ثم أشعل فيه النار . . !

وكان المشهد الذى طلعت عليه عيناه مروعا مخيفا .

ففى اللحظة التى استنار فيها الجحيم . . سقطت إيزانامى فى عنف ، وانقلب وجهها الجميل فى سرعة بشعا مخيفا ، وانطفأ البريق الرائع الذى كان ينبثق من عينيها فإذا بهما ثقبان غائران مخيفان ، يسرى فيهما الدود وينتشر منهما إلى كل جزء من الجسد الذى حلله البلى . .

وانطلق صوت إيزانامى ، وهى تتلوى ، مرعدا رهيبا :

ـ خسئت أيها الشقى . . ولتنصب عليك كل لعنات السماء جزاء مانقضت عهدك فألقيتنى إلى العذاب ولوثتنى بالعار . . !

وعادت جثة إيزانامى تتلوى فى جنون . فقد انقضت عليها آلهة الرعد الثمانية منبثقة من رأسها وثدييها وبطنها وكفيها وقدميها ، وهى ترعد بأصوات قوية بشعة صاخبة ، يهتز لها الجحيم .

واندفع إيزاناجى يجرى فى رعب مذعور . . . وصرخت إيزانامى الغاضبة المعذبة تهتف داعية زبانية الجحيم المخيفات ليتبعن الرجل الذى خدعها وألقى بها إلى التهلكة .

واندفعت من أعماق الجحيم زبانية مخيفات فى صورة نساء يمثلن القبح والدمامة والشراسة ، أسرعن خلفه ، واستمر هو يجرى أمامهن هاربا فى منحنيات الجحيم . . حتى إذا وجدهن قد كدن يلحقن به أسرع فخلع الإكليل الذى يحيط برأسه وألقاه نحوهن . وفى لحظة . . تحول الإكليل إلى عناقيد من العنب ، لم تكد الزبانية البشعات ترينها حتى توقفن . . ثم انحنين فوقها يأكلن فى شراهة وجوع . . !

وعادت إيـزانامى تصرخ فى مسوخ أخـريات أن يتبعن الهارب . . واندفعـت المسوخ خلفه فى قـوة حتى كـدن يبلغنه ، فمـد يده فخلـع مشطه وألقـاه نحوهـن . وفى الحال انقلبت أسنـان المشط إلى عيـدان طويلـة من القصـب سال لها لعـاب المسوخ فتـوقفن ورحن يلتهمنه فى لذة وبأصوات كهزيم الرعد .

واستمرت إيزانامى تصرخ . . وفى هذه المرة انطلق خلف الإله الهارب ألف وخمسمائة من جنـود الجحيم . فأخرج إيـزانامى سهامـه وراح يلقى بها إلى الخلف وهو ينـدفع إلى الأمام حتى وجد نفسه آخر الأمر قريبا من المنفذ الذى يقوده إلى خارج عالم الظلمات .

وفى ذلك الوقت كانت جثة إيزانامـى هى التى تجرى بنفسها مندفعة خلفه . وكادت يداها المعقوفتان تمسكان به فى الوقت الـذى كان هو ينطلق من الثقب الذى يفصل بين العالمين ، ويمد يده إلى صخرة كبيرة هائلة يدفعها ليسد بها الثقب الملعون . . !

وسمع إيزانامى تصرخ من الناحية الأخرى :

ـ انتظرنى يـازوجى العزيز . . لاتذهـب . . لاتقل الـوداع . . عد إلى . . فإنك إذا هجرتنى فسوف أهلك فى كل يوم ألف رجل على الأرض .

وأجاب إيزاناجى وهو يثبت الصخرة على مدخل الجحيم :

ـ اصنعى ماتريدين فلن أعود . . وسوف أعمل على أن تستقبل الأرض ما لايقل عن ألـف وخمسمائة طفل جديد كل يوم بزيادة خمسمائة عن العدد الذى سوف تهلكينه . . !

وهكذا هرب إيزاناجى من الجحيم . . وقدر لسكان الأرض أن يموت منهم كل يوم ألـف شخص . . وأن يحل محلهم ألف وخمسمائة من المواليد .

وبينما كان كـل ذلك يجرى فى أعماق الجحيم ، كـان سوزانو ـــ رب العواصف ـــ قد انتهز فرصة غياب والديه وراح يلعب دورا آخر على الأرض .

والحق أن « سوزانـو» كان ذا خلق عنيـف ميال إلى الشر . وكان بـرغم لحيته الطـويلة البيضاء التى تبعث على الاحترام لايـدع وقتا يمر إلا ويرسل فيه عويلـه الطويل ونحيبه الذى يثير التشـاؤم فى كل النفوس ، ولايعبأ خـلال ذلك بتحطيم كل مـايعترض سبيله بسيفه الطويل البتار .

وعندمـا عاد إيزانـاجى ووجد ولـده « سوزانـو» سادرا فى غيه قـرر أن ينفيه إلى أرض الجحيم .

ولم يكن سوزانو يستطيع الاعتراض . غير أنه أجاب أباه :

ـ أنا طوع أمرك يا أبتاه . . وسأهبط فورا إلى العالم السفلى . ولكنى أرجو قبل أن أذهب إلى عالم الظلمات أن يسمح لى بالصعود إلى السماء لأرى أختى العزيزة « أماتراسو» قبل أن أختفى من هذا العالم إلى الأبد .

ووجد رب هذا العالم أن رغبة ولده ليس فيها مايضر، فأذن له بالصعود إلى السماء . . .

وتحرك «سوزانو» فى طريقه إلى السماء . . وفى أثناء صعوده عوت السماء والأرض والبحار والجبال عواء رهيبا مخيفا .

وبلغت الأصوات الرهيبة أذن أماتراسو . . ربه الشمس . . ولما أطلت من عليائها رأت أخاها الشرير يقترب من مملكتها ومن حوله رعود وبروق .

وارتعدت ربة الشمس وهى تحدث نفسها :

ـ لماذا يزحف أخى الشرير إلى مملكتى ؟ لخير قدم أخى ياترى أم لشر؟ ولكن أى خير يمكن أن يفكر فيه هذا الجحود . إنه ولاشك يهدف إلى أن ينحينى عن عرشى . . برغم أن أبوينا حددا لكل منا حدوده . ليكن إذن مايريد . . وسأعرف كيف أقاومه وأنزل به عقابا صارما لا ينساه مدى الحياة .

وأخذت اماتراسو أهبتها لمعركة عنيفة رهيبة . فجذبت شعرها الذهبى الطويل وجمعته فى عقد كثيرة متألقة ، وثبتت كل جواهرها ولآلئها فى العقد الذهبية ، ثم وضعت فوق ظهرها كنانتها وفيها ألف سهم ، وأمسكت بإحدى يديها درعا قوية صلبة وباليد الأخرى قوسا رهيبا ، واندفعت متأهبة فوقفت على ضفة نهر السماء ، وأزاحت طبقة من الثرى فهيأت لنفسها فيه خندقا غاصت فيه حتى الركبتين . .

على أن كل مافعلته كان عبثا . . . فعندما وصل أخوها ووقف على الجانب الآخر من النهر لم يكن يبدو على وجهه شىء من نيات الشر التى توقعتها . وتحدث إليها سوزانو فى هدوء قائلا :

ـ ما هذا الذى أراه أيتها الأخت ؟ ولأى سبب تستقبلينني هذا الاستقبال العدائى فى حين أنا قادم إليك وكلى شوق لرؤيتك والاستماع إلى صوتك الحبيب؟

وأجابت اماتراسو :

ـ ولكن ما الذى جعلك تحضر إلى مملكتى بغير إذن منى ؟

أجابها سوزانو:

ـ لقد قرر أبى نفيى إلى عالم الظلمات . ولم أطق الذهاب دون أن أرى شقيقتى

الكبرى الحبيبة . ولقد اجتزت على قدمى من أجل أن أراك كل تلك السحب والغيوم وصعدت كل هذا الارتفاع الشاهق بغير سلم استعين به . . فكيف لاتصيبنى الدهشة عندما أجدك تستقبليننى هذا الاستقبال العدائى؟

وتقبلت أماتراسو حديث أخيها بشىء من الشك، فما كانت قسوته وخداعه ليخفيا عليها . . وقررت أن تكرم وفادته على أن تكون على حذر حتى تتأكد من حسن نياته .

والواقع أن الغطاء البراق الذى كان « سوزانو» يضعه على وجهه سرعان ما انكشف . . وكانت اماتراسو قد زرعت بضعة حقول للأرز فى السماء، بعضها ضيق قصير وبعضها واسع طويل . وما كان أسعدها بهذه الحقول التى زرعتها بيديها . وعندما جاء وقت بذر البذور فى الربيع إذا بسوزانو يفاجئها يوما بتخريب كل القنوات التى صنعتها، وإذا ثغرات الرى قد سدت، وحواجز الحقول قد هدمت ودمرت تدميرا .

وثارت ربة الشمس . غير أنها كظمت غيظها وظلت تنتظر صابرة .

غير أن الأخ الشرير الثقيل لم يكفه ماصنع . وإذا به يفاجئها ذات يوم وهى جالسة فى غرفة النسيج السماوية ترقب صناعة أردية الآلهة ، فثقب سقف الغرفة وألقى عليها وعلى الغازلات جثة حصان مسلوخ يقطر من جراحه دم فاسد غزير.

وذعرت ربة الشمس، واضطربت حتى كادت تجرح نفسها بإبرة الغزل . . وملأها غضب جبار، وتحول وجهها إلى لون أحمر قانٍ كالدم . وأطبقت قبضتها من جديد تلوى كل خيوط شعرها الطويل، وأقسمت فى صوت كالرعد على أن تترك عرشها احتجاجًا على الآلهة الذين يسمحون لمثل هذا الشقى الفظ بالبقاء فى مملكتها .

وأسرعت ربة الشمس تتوارى خلف صخور السماء . واندفعت إلى كهف ضيق فدخلته، وأحكمت إغلاق بابه خلفها، وقبعت بداخله تبكى وتنتحب .

وغمر الظلام العالم ، ولم يعد هناك ليل أو نهار ، ولا نور أو ضياء .

وارتفعت صرخات سكان الأرض تستنجد بآلهة السماء . واجتمع الآلهة الذين يبلغ عددهم ثمانية ملايين إله على شاطئ نهر السماء . وراحوا يبحثون كيف يزيلون أسباب الهول الأعظم الذى حل على الأرض . .

وكان لابد للجميع أن يفكروا فى وسيلة يمكن بها إقناع ربة الشمس بالعودة إلى عرشها العظيم . واستمرت المناقشات طويلة هادرة لم تستقر وتهدأ إلا حين خرج عليهم رب الحيلة بفكرة وجدها صالحة جديرة بالنجاح .

قال رب الحيلة وهو يعرض فكرته إن ربة الشمس أنثى . . وكل النساء يمكن التأثير عليهن إذا شحذت غيرتهن وأثير فضولهن وأغرين بالزينة واللآلىء والجواهر البراقة . .

وكل ذلك يمكن أن نقدمه لربة الشمس إذا أتيتمـونى بمرآة مصقولة أضعها فى مواجهة باب الكهف وزودتمونى بعقود علوية من الجواهر واللآلىء . . !

وجمع بعض الآلهة نجـوما مـن السماء ضموا بعضهـا إلى بعض لتـؤلف مـرآة رائعة . وانطلق آلهة آخرون يجمعون طيورا صداحة مـن كل جوانب العالم الخالية ، فى حين شرع آخرون يبتدعون آلات موسيقية جديدة ترسل أنغاما لاتصدر إلا من السماء .

وعندما تـم إعداد كل شيء انطلـق الآلهة مجتمعين إلى الكهف الذى تختفى بـداخله ربة الشمس ، وتجمعـوا أمامه فى حفل صـاخب عربيد ، حين كـان رب الحيلة يغطى فروع شجرة الساكى التـى تواجه الكهف بعقود من أثمن المجوهـرات وعناقيد من أروع الـلآلى . وفى وسط الشجـرة فيما يـواجه بـاب الكهـف أقـام رب الحيلة المرآة السماويـة المصقولة .

ومن كل جانـب انطلقت ألحان شجية صدحت بها طيور الخلـود . . وعلى أنغامها راحت ربة الـرقص أوزوم فى ردائها القدسى تـرقص رقصا هازلا عربيـدا انفجر له الآلهة جميعا ودوت ضحكاتهم صاخبة تهز أركان الكون . .

ومـن وراء باب الكهـف كانـت ربـة الشمس تنصـت إلى الصخب والضجيـج فى استغراب وعجب كبيريـن . وعندما ازداد فضولها وثارت بها الرغبـة فى كشف سر ذلك السرور الذى يملأ المكان فتحت الباب قليـلا فى هدوء . . وفى هذه اللحظة أشرق النور مرة أخرى على العالم الذى كانت الظلمة تغمره ، وامتدت خيوط الذهب فى الشعاعات المتألقة تفيض بالضياء الذى يبعث الحياة .

وشهـدت ربة الشمـس المجمع الإلهى الـذى كـان يصخب فى سرور وانطـلاق . . وأخذت تتساءل عن سره . . فأجابتها ربة الرقص أوزوم :

ـ تسألينا عن سرصخبنا وفرحنا . . !؟ إذن فاعلمى أننا قد وجدنا ربة أخرى تفوقك جمالا وروعة . . !

وفتحت ربة الشمس عينيها فى استغراب وقلق .

وبـدأت تـدور بعينيها فى الجمـع الحاشـد علها تستطيع أن ترى منـافستهـا . . . واضطرت مـن أجل أن تـرى المجموعـة كلها أن تفتـح الباب كلـه وتطل أمـامها . . . وعندئذ عكسـت المرآة المصقولة الصورة الـرائعة لربـة الشمس . . تتألق حسنـا وروعة وبهاء .

وملأ القلـق الربة وهـى ترى أمامها هـذه الحسناء الرائعـة التى تواجههـا . وبدأت تغادر الكهف لتزداد قـربا من الربة الجديدة . . وهى لاتـدرى أنها إنما كانت تقترب من المرآة .

ومد أحد الأرباب يده ليمسك بيدهـا . . فى حين كان رب آخر ينصب وراءها حبلا من قش ليمنعها من العودة إلى الكهف . . .

وعندما أدركت ربة الشمس الخدعـة ، لم تغضب ولم تصر على العودة . . بل أبدت موافقتها على الصعود إلى عرشها بشرط أن يعاقب الآلهة رب العواصف . .

وفى لحظة . . كان الملايين الثمانية من آلهة السماء يهجمـون على « سوزانو» ويلقون به على الأرض . . ويحلقون لحيته . . وينتـزعون أظفار يديـه وقدميه . . ثم يحملـونه جميعا ليلقوا به من السماء إلى الأرض .

ومنذ ذلك اليوم لم تغب ربة الشمس عن عرشها قط . . .

وعادت الحيـاة إلى الأرض . . وانقطعت عن الآلهة صرخـات الاستنجاد التى كـانت تنبعث من أهلها . .

ومع ذلك فقد عاد الآلهة يجتمعون من جديد . . ولم يكن سكان الأرض هذه المرة هم السبب . . ولكن الضيق الذى أصاب الآلهة كان مبعثه ذلك الطنين المزعج المنبعث من كل ماعلى الأرض من جبـال وصخور وسهول وأشجار . . فقد كانـت كل هذه الأشياء لاتزال تتكلم تماما كأبناء البشر . وكان الطنين الـذى يحدثه كلامها ، خاصة فى سكون الليـل ، يؤرق آلهة السماء . واجتمـع شملهم للبحـث عن وسيلـة يقضون بها على هـذا الضجيج . . وينشدون الهدوء والسلام على الأرض .

وعندما ارتفعت أصوات الآلهة فى خلال مناقشاتهم . . تقدمت ربة الشمس تعرض أن ترسل حفيـدها نينيجى ليحكم هـذا العالم المضطرب ويعيد إليـه المجد والسلام . . على أن يرسـل الآلهة قبل ذلـك رسولا يمهد لـه الطريـق . وأعجب الآلهة بفكـرة إرسال واحد من أبناء السماء ليكون سيـدا على الأرض . واتفقت كلمة الجميع على أن يهبط إلى الأرض الرسول امانوهو ، ليمهد الطريق لابن السماء . . حفيد ربة الشمس .

ومضت سنوات ثلاث ولم يعـد امانوهو . . وأرسل الآلهة من بعـده ولده يبحث عنه ويعيده . ولكن الابن أعجبته الحياة على الأرض فلم يصعد إلى السماء قط . وتتابع الرسل إلى الأرض . . وتتابعت خيـاناتهم للسماء . . فلم يكن بـد بعد ذلك من أن يهبـط حفيد ربة الشمس . . وابن السماء . . نينيجى نفسه . . ليضع حدا لكل تلك الخيانات . . .

وقربت امـاتراسو حفيدهـا منها ، ومنحته بركـاتها ونصائحها ، وزودته بهدايـا قيمة ثمينة من بينها أحجار كريمة اقتطعت من سلم السماء وكرات شفافة من قبتها ، وسيف

خالـد وجد فى قلب التنين ولم تكتـف ربة الشمـس بهذه الهدايا ، بل منحتـه أيضا المرآة السماوية التى أهداها لها الآلهة من قبل يوم غضبتها الخالدة .

وودع نينيجى جدته ، وأخـذ طريقه إلى الأرض ، يحيط به موكـب من الآلهة ، بينهـم ربـة الـرقص أوزوم ، تلـك التـى أثـارت رقصـاتها العربيـدة ضحكـات الآلهة الملايين الثمانية .

وراح مـوكب الآلهة يخترق السحـب حتـى بلغوا مفـرق الطـرق الخالـد حيث يتفـرع الطريـق الرئيسى إلى ثمانيـة فروع . وهناك توقـف الجميع فجأة ، وبـدءوا يتراجعون إلى الخلف فى ذعر .

وعند المفرق الخالد كان يقف وحش هائل تبرق عيناه بلهب صاخب له فحيح . . .

وبدأت أقـدام الآلهة وبينهـم نينيجى تضطـرب وتتراجع ، عدا أوزوم التـى وقفت فى جرأة وتقـدمت مـن الوحـش تسأله عمـن يكون ومـاذا يريـد وكيف يجرؤ على اعتراض الموكب الإلهى . وأجاب الوحش :

ـ أنا رب حقول الأرض . . وقد قدمت لأكون فى استقبال ابن السماء « نينيجى » سيد الأرض كلها . . ولأكـون مرشده الأمين . عـودى إلى سيدك ، أى أوزوم ، وارفعـى إليه رسالتى .

وأبلغت أوزوم رسالـة رب الحقول إلى ابن السماء . وعاد الموكب يستأنـف طريقه عبر السحب حتى بلغ جسر السماء الذى تم عبوره وبلغ الموكب بعده أرض تكاشيهى .

وبدأ رب الحقول يرشد ابن السماء فى رحلة طويلة مرهقة حول الأرض التى كان عليه أن يحكمها ويهديها إلى السـلام . . وفى إحدى المناطـق القدسيـة استقر رأيه على إقـامة قصره .

ووجد ابن السماء أن من واجبه أن يقدم شكـره لمرشده الأمين . . فمنحه زوجة رائعة . . إلهية . . هى أوزوم ربة الـرقص نفسها . . وعندما شهد فـرحة العروسين . . أحس هو الآخر برغبة قوية فى أن يفرح كما فرحـا . . وراح يطل حوله باحثا لنفسه عن عروس حيث شاهد حسناء رائعة الجمال تنتصب قائمة إلى جوار حدائق الزهور .

وتقدم ابن السماء إلى الحسناء يسألها من تكون . أجابت الحسناء :

ـ أنا كونوهانا . . ابنة ملك الجبل المقدس . . ومهمتى أن أصنع الزهور التى تغطى الأشجار على هذه الأرض .

وسرعان ما وقع « نينيجـى » فى هوى كونوهانا . . فانطلق إلى أبيهـا . . « أوهو ياما » وطلب منه يد ابنته . . .

وكان لملك الجبل المقـدس ابنة اسمها ايهاناجا ، طويلـة كعمود من الصخر ، تكبر كونوهانا ، ولكنها كـانت بالغة الدمامة والقبح . ومع ذلك فقـد أراد أوهو ياما أن يكون لأبناء « نينيجى » أعمار طويلة خالدة كعمر الصخـور. ومن أجل هذه الرغبة أبى إلا أن يقدم ابنتيه معا زوجتين لابن السماء . . .

ولم يجد « نينيجى » بدا مـن الزواج بالأختين . غير أن كل حبه كان يتجـه إلى الزوجة الحسناء . . وبدا منه إهمال كبير لشقيقتها المشوهة .

وملأ الغضب قلب ايهاناجا . . ووجدت نفسها تصرخ ذات يوم فى نينيجى :

ـ لو أنك اخترتنـى وأحببتنى . . لجعلت عمر أبنائك خالـدا مثل عمر الصخور. . أمـا وقد فضلـت على أختى الصغـرى . . فـإنكما وأبناءكما ستـذوون سريعا كما تـذوى الزهور . . !

وقد كان . . .

وعاش نينيجى ابن السماء سعيدا مع زوجته الحبيبـة كونوهانا . غير أن هذه السعادة لم تدم طويلا ، فقد أعمت الغيرة قلب نينيجى ذات يوم . . وملأت رأسه بالجنون . ولم يكن هناك من سبب لهذه الغيرة المجنونة التى شقيت بها كونوهانا . . . فما كان هناك من يغار منه زوجها . . فانطلقت إلى كوخ أغلقته على نفسها . . ثم أشعلت فيه النار. . .

ومن بين ألسنـة اللهب خـرج ثلاثـة أطفال ، كـان من بينهـم « هورى» . . الـذى تسلسلت منه سلسلـة مقدسة متصلة الحلقـات من « الميكادو» . . هم الـذين جلسوا على عرش اليابان منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .

أسطورة صينية
مكافـأة الآلهـــة

استطاع « باكو » أول الخلق فى أساطير الصينيين أن يشكل الأرض حوالى عام ٢٢٩،٠٠٠،٢ قبل الميلاد بعد أن ظل يعمل ويكد ويجهد فى تشكيلها مايقـرب من ثمانية عشر ألف عام . وتجمعت أنفاسه التى كان يلهث بها فصارت رياحا وسحبا ، وأضحى صوته رعدا ، وتحولت عـروقه أنهارا ، واستحال لحمه أرضـا ، وشعره نبتـا وشجرا ، وعظمه معـادن ، وعرقـه مطرا . . أما الحشرات التى كانت تعلق بجسمه . . . فأصبحت آدميين . . وهم أصل وجود البشر . . !

ومع تقـدم البشر وتحضرهم بدأ الملوك ، وهـم من نسل الآلهة . . يعلمون الآدميين كيـف يعيشون حياة نظيفة طاهرة كان أبـرز مافيها إخلاص الأبناء لآبائهم وطاعتهم طاعـة عمياء ومن هنا صار حب الآباء مثل العبادة .

كان تونج يونــج قد فكر طويلا جدا قبل أن يترك بيته وينطلـق إلى الساحة العامة فى المدينة حيث يعرض الأرقاء والمدينون أنفسهم للبيـع . ولم يكن تونج قد اتخذ هذا القرار عن يـأس من سداد ديـن أو رغبة فى حياة الـرق . فقد كان الأمـر أبعد من كـل ذلك . فهناك . . بين جدران غرفته الحقيرة الضيقة ، كانت جثة أبيه لاتزال تستلقى فى سكون ، لاتجد من يستطيـع أن يؤدى لها مراسـم الدفـن ، برغم كـل مابذلـه تونـج من محاولات وجهود ذهبت كلها مع الريح . . !

والحق إن تونــج حين خرج يبحث أول الأمـر عمن يمكن أن يمـد له يد العـون لسد نفقات دفن أبيه ، لم يكـن لديه أمل كبير فى أن يجد أحدا . فقد كان بـالغ الفقر تماما كما كان أبوه . . والفقير لايجد سـوى الفقراء أصدقاء لـه . وقد كان هؤلاء الأصـدقاء فعلا البؤساء الذين يعجزون عن تقديـم أى عون لتونج ، كان الألم يملؤه وهو يجد نفسه غير قادر على القيام بطقوس دفـن الأب الذى عاش حياته فى ضيق و تقتير مـن أجل تعليم ولده ، والذى عجـز فى الوقت نفسه عـن ادخار قطعة واحدة مـن النحاس للمستقبل الأسود الكئيب .

ومع ذلك ، فقـد أصر تونج على القيام بطقـوس الدفن التى تعـارف عليها الناس ، وتخليد ذكرى والده بإقامة نصب جميل على قبره يليق بوالد طيب حنون .

ولم يكـن أمام تـونج لكـى يحصل على قطـع النحاس والفضـة سوى طـريق واحـد

رهيب، هو أن يبيع نفسه كعبد لأى سيد من الأثرياء .

وانطلق تونج يونـج فى طريقه إلى ساحة الرقيق ، بعد أن وضـع فوق كتفه لافتة تحدد الشروط الباهظة لعبوديته ، والأعمال التى يمكن أن يؤديها بنشاط و إتقان .

وفوق مقعد حجرى كبير جلس تونج يونج فى انتظار من يشتريه . وما أكثر من مر به من رجال راحوا يبتسمون فى سخرية وهم يقرءون الثمن الباهظ الذى علقه فوق كتفه .

واستمر تونج يونج جالسا فوق الحجر ، لايجد من يشتريه . . !

ومرت الساعات طويلة ثقيلة باردة . . وما من أحد يحاول أن يعرض على تونج ذلك الثمن الذى يبغيه . وبـدأ اليأس يأخذ بخناقه . وأحس بحقارتـه إذ عجز عن الحصول على سيد يشتريـه . ونهض من مكـانه، ومن عينيـه يكاد يطفر دمـع غزيـر. وفى هذه اللحظة، دخل السوق على صهوة جواد أشهب ، سيد بارز من سادة المقاطعة ، يعرف كل أهلها أن لديـه من العبيد بضعة آلاف ، ومن الأرض إقطاعيـات واسعة الأطراف . ووقف السيد يتأمل الشـاب الذى عاد فملأ صدره أملا بعد يأس. وقـرأ الرجل اللافتة المعلقة فوق ظهره. وعـاد فصعد بصره إلى كل عضو من أعضائه القـوية البارزة . وراح يتأمل وجهه الباسـم السمح . ثم التفت إلى رفيق كان يصحبه. وأمره بـأن يدفع للفتى الثمن الذى يبغيه .

وهكذا أصبح تونج يونج عبدا. غير أنه أحس وهو يستسلم لمصيره الجديد ، أنه قد حقق أعز أمانيه، إذ كان أول ماصنعه حالما تسلم ثمن حريته، أن انطلق إلى بيته فجهز جثة أبيـه وأعدها للـدفن ، وأقام عليها الطقـوس الجنائزية فى تقـى وورع ، ووضع بين شفتيه الفضة المقدسـة ، وأحرق عرائس الورق بكل أشكالها فى النار الطـاهرة ، ثم دعا المنجمين والسحرة ليستخبروا من الآلهة عن المكان الذى يمكن أن يقام فيه نصب أبيه ، ليختاروا البقعة التى لايقترب منها شيطان أو تنين. وعنـدما تم اختيار مكان الضريح، انطلق الفتى إلى أمهر الفنانين فشيدوا قبرا من رخـام نقشوا على حجارته أبدع النقوش، ثم نثر على جانبـى الطريق قطعا من فضة ونحاس ، قبل أن يعـود إلى الدار ليبدأ جنازة أبيه ، ويسير بها فى الطـريق إلى الضريح ليوسـدها اللحد، بعد أن تمت كـل إجراءات الدفن كأحسن مايشتهى أغنى الأغنياء . !

وعندمـا أتم تـونـج يونـج أداء العمل الصـالح الذى كـان يبغيه ، انطلـق إلى سيده الجديد وقد قرر أن يجعل من نفسه خير العبيد . . !

والواقع أن تونج كان أبرز الجميع إخـلاصا لسيده وإتقانا لعمله . . وما قصر قط فى

أمر عهد إليه ، حتى إن السيد قرر فى أعماقه أن يسهل له مهمة الحصول على مايساوى أجر حريته . . خلال سنوات قليلة يقضيها لديه .

على أن الإخلاص فى العمل لم يمنع تونج يونج من الاستمرار فى الحزن على أبيه الطيب الحنون . ولم يكن يترك مناسبة تمر إلا ويزور قبره ومعه أعواد البخور يحرقها أمامه ويقيم الطقوس التى اعتادت أسرته القيام بها فى مثل هذه المناسبات ، ويوزع على الفقراء مايشتريه من فواكه ولحوم بالمال الذى كان الجميع يتوقعون أن يدخره ليجمع منه ثمن عتقه . . !

وكان لابد للحزن العميق ، والتفانى فى العمل ، مع الإرهاق المستمر بغير مايكفى من غذاء ، أن ينتهى بالفتى إلى مرض منهك يقعده عن أداء كل شىء . فإذا به ملقى فى فراشه بالكوخ الصغير ذات يوم يتقلب على نار الحمى ، ولا أحد يرعاه أو يهتم به ، حتى زملاءه لم يجدوا لديهم من الوقت مايجعلهم يزورونه وهم يقضون نهارهم كله فى المزرعة ، ويعودون مع الغروب مرهقين لايكادون يحفلون بشىء قط عدا النوم . . !

وهكذا جاء الوقت الذى بدأ فيه تونج يونج يستسلم لموت لابد منه . وغامت عيناه ، وخنقته الحمى ، وراح فى إغفاءة عميقة طويلة . . .

وبينما تونج فى إغفاءته ، إذ رأى فى حلمه حسناء رائعة الجمال تقترب منه ، وتمد كفها الرقيق إلى جبينه ، وتمر بأصابعها الطويلة الدقيقة على وجهه . وشعر تونج بما يشبه السحر يسرى فى جسده المنهوك ، وكأن حياة جديدة قد بدأت تتدفق فى عروقه التى كانت قد أخذت تتقلص وتنهار . . !

وفتح الفتى عينيه ، فإذا هو أمام حسناء شيقة تنحنى عليه . . لم تكن تختلف قط عن الحسناء التى شهدها فى حلمه اللذيذ .

وفى لحظات . . كانت الحمى قد زالت عنه ، والحياة الجديدة الرائعة تتدفق فى عروقه ، والحسناء لاتزال تحرك أصابعها على وجهه وجبينه وعينيه ، وترميه بنظرات رقيقة حانية فيها سحر فريد عجيب .

وداخل الفتى شعور لذيذ ، فيه راحة وفيه رهبة ، وحاول أن يخرج من بين شفتيه كلمات يسأل فيهامن تكون . غير أنها أشارت إليه أن يسكت . . وانطلقت تقول له فى صوت كأنه يهبط من السماء :

لا تسألنى شيئا أيها الحبيب . . فيكفيك أننى جئت لأعيد إليك قوتك ، ولأكون زوجة لك . . فانهض معى نصلى للسماء !

وكاد تونج يبتسم فى سخرية وهى تطلب منه النهوض . . فقد ظل عدة أيام لايستطيع حركة على الفراش قط . . .

وأحست الحسناء بما يعتمل فى أعماقه . فمدت إليه ذراعها يعتمد عليه فى نهوضه . ووجد نفسه بالرغم منه يستسلم لها . . وإذا به لدهشته ينجح فى النهوض ، بل ويجد فى نفسه القدرة على المشى والجرى والقفز أيضا . . !

لقد عادت إليه كل قواه . . ولم يعد يحس ألما أو انهيارا أو ضعفا . . !

وأدرك الفتى أن الحسناء كانت صادقة فيما وعدت به من إعادة قواه . . ولكنه لم يدر كيف يمكن تنفيذ وعدها الآخر بالزواج منه ، وهو فى ذلك الحضيض من الفقر والبؤس والامتهان . . !

وكأنما أحست الفتاة بما يدور بخلده ، فعادت تربت كتفه فى حنو كبير، وقالت له فى صوت طاهر نقى :

ـ لاتخش مسئوليات الزواج . . فسأزودك بكل ماتحتاج إليه . . !

وفتح الفتى عينيه فى دهشة ، وراح ينقل بصره بين أسماله البالية . . وملابسها التى بدت فيها هى الأخرى فقيرة ضئيلة كمثيلاتها من بنات الشعب .

وشعر باطمئنان كبير، برغم الحيرة التى انتابته ، ولم يكد يفتح شفتيه ليتكلم حتى كانت هى قد أخذت بيده ، وجعلته يركع إلى جوارها ، ويصلى معها . .

وفجأة رفعت الفتاة كأسا من النبيذ ، لم يعرف من أين جاءت بها ، وأدنتها من شفتيها ثم من شفتيه ، ليشربا معا نخب الزواج . . .

وقد كان . . وأصبحت الحسناء الغريبة النقية زوجة طيعة لتونج يونج . . !

* * *

عاش تونج يونج أيامه التى تلت ذلك اليوم عيشا لم يعش مثله من قبل . فقد بدت له الحياة هنية شهية ، فيها سحر وفيها روعة وفيها جمال ، برغم الحيرة والخوف الغامض الذى كان يملؤه وهو يعيش مع زوجة لم يجرؤ قط على سؤالها من تكون ومن أين جاءت .

غير أن تلك الحيرة لم تطل به ، فقد قرر أن يدع كـل ما يتعلق بماضيها وماضيه ، وأن يعيشا معا حياتهما الجديـدة الرائعة . . فى ذلك المسكن الصغير الذى لم يعـد باردا جافا حقيرا ، بل صار بفعل قوة سحرية بديعا هادئا ، تغطى حقارته زخارف وزينات صنعتها الحسناء بيديها الرقيقتين العامرتين بالسحر .

ولم يكن ذلك وحده هو ما أسكت يونج عن أن يفكر فى حقيقته . فقد كان ثم شىء آخر غريب لم يدر سره . . فقد كانت زوجتـه الحسناء تقضى نهارها كله وجزءا كبيرا من الليل ، تنسج حريرا لم تشهد مثله المقاطعة من قبل .

لم يدر تونـج كيف تصنع « تشى » هذا النسيج العجيـب . غير أنه لم يحاول أن يسألها أبدا عن السر الذى لاتـريد أن تبوح به . وكان يكفيه أن يأخذ منهـا النسيج ليعرضه فى السوق ، فيلتف حوله كل أغنياء المقاطعة ، ويدفعون له مكعبات من فضة وهم يطلبون منه كميات أخرى كثيرة هائلة .

وذاع صيـت « تشـى » ونسيجهـا العجيـب . وبدأ الأمـراء والتجـار يتـوافـدون على المقاطعة مـن كل مكان ، يطلبون مشاهـدة النسيج الساحر ، ويتـوسلون إلى « تشى » أن تعلمهم سر صنعه . ولكن الزوجة الحسناء كانت تهز رأسها وهى تبتسم وتقول :

ـ أؤكـد لكم أن أحـدا منكم لـن يستطيع صنعه . . . فليـس بينكم مـن له أصـابع كأصابعى .

والحق إن أحدا لم يكن يستطيع أن يتبين أصابعها خـلال قيامها بنسج الحرير . فقد كانت أصابعها تتحرك فى سرعة عجيبة كأجنحة نحلة تطير .

واستمرت الأيام تمضـى ، ومكعبات الفضة التى يبيـع بها تونج يونـج أثواب النسيج تزداد يومـا بعد يوم وتتراكم فى صندوق كبير ، بينما « تشى » تعمـل فى دأب لإنتاج أثواب أخرى كثيرة ، حتى تفى بوعدها الذى قطعته على نفسها حين قالت لزوجها إنها ستزوده بكل ما يحتاج إليه .

ثم جاء يوم . . .

وبينما كان تـونج يونـج يستعد لمغادرة الـدار فى طريقـه إلى السوق قبل الـذهاب إلى مزرعة سيده ، نادته زوجته وقالت له :

ـ لا تخرج اليوم . . فما عاد هناك مايدعوك للذهاب إلى المزرعة !

ولم يفهم تـونج ماتعنيـه زوجته ، إلا عندما أخـذته إلى حيث كـان الصندوق الكبير

ففتحه ، وأخـرجت منه وثيقة تحريـره من العبوديـة ، بعد أن ابتاعتها بمكعبـات الفضة التى ادخرتها من أثمان الحرير النفيس . . !

ورقـص تونـج يونـج ، وانحنى على زوجتـه يقبلها ثـم حاول أن يسجـد لها شاكـرا فمنعته ، وقالت له .

ـ الآن قد مضى زمن عبوديتك . . فلا تحاول أن تبيـع حريتك بعد ذلك . كن سيد نفسـك ، واعمل لصـالحك أنـت وحدك . ولقـد اشتريت لـك هـذا المنزل ، وابتعـت باسمك المزرعة التى تحيط به ، ودفعت ثمن غـابات شجر التوت فأصبحت كلها ملكا لك . . !

* * *

ومضى عام جديد . . كان تونج يونج قد أصبح خلاله أبرز أغنياء المقاطعة وأحبهم إلى قلوب النـاس . وحتى العبيد الـذين اشتراهم ليعملـوا فى أرضه ، ملأتهم أحـاسيس بأنهم لم يعودوا عبيدا قط ، بما كان يعطيهم من مـال ويمنحهم من عطف ، فأخلصوا له الحب ، كما قـدسـوا السيـدة تشـى . . زوجـة السيد التـى لم يـروا منهـا شيئـا سيئـا على الإطلاق .

وأنجبت « تشى » طفلا رائع الجمال ، كان على جبينه هالة من النور .

وتحدث كل أهل المقاطعـة عن ذلك الطفل العجيب ، إذ كان أعجـوبة لم يروا مثلها من قبل . فقد ردد وهو بعد فى الشهر الثالث من عمره أمثال الحكماء ، وعندما بلغ شهره السـابع بـدأ يتلو الصلـوات المقدسـة ، وقبل أن يبلـغ سن العـاشرة كان يجيـد الكتابـة ويتحدث إلى الكهان ويناقشهم فى أصول العبادات .

وكان الفـرح يملأ قلب تونـج يونج وهو يشهـد أعاجيب ولده . وكـان يتحدث إلى زوجته فى زهو وأمل بالمستقبل الذى ينتظـره . . فى حين كانت هى تتابع سروره وزهوه فى رضا كبير.

ونهض تونـج يونـج ذات أمسية باردة ، فـأحس فى أعماقة انقبـاضا كـريها بغيضا ، وشعر كأن أطرافه قد جمدت . . ونهض إلى النار فـأشعلها ، واقترب من زوجته فإذا هى راقدة فى هدوء ، وعلى وجهها نور مضىء كأنه السحر . . وأخذ تونج يونج يتأمل وجه زوجته وهو يـراه أكثر جمالا مما كان فى يوم مـن الأيام . واستمر فى تأمله وهـو ذاهل عن مضى الليل ، وخمود النار، وسكون الرياح التى كانت تصفر قبل ذلك فى جنون . . !

وفجأة . . فتحت « تشى» عينيها ، ونهضت وعلى شفتيهـا سكون ، ثم مدت يدها إليه . . تماما كما مدتها إليـه يوم جاءت لتشفيه . . وسارت به إلى حيث كـان الطفل يرقد فى الفراش .

وكما حدث يـوم التقت عيـونها أول مرة ، شعر تـونج برعشـة رهيبة وعينـاه تلتقيان بعينيها .

إلا أن الرهبة التى ملكته ذلك اليوم كان لها طـابع آخر غريب ، أحس معه بقوة غير منظورة تدفعه إلى أن يسجـد أمام « تشى» كما يجثو ناسك أمـام إلهه . وعندما نهض من سجوده ، ورفع عينيه إليها ، انطلقت من بين شفتيه آهة رهيبة . . .

فقد كانـت « تشى» تنتصب أمامـه ، طويلة فارعـة ، ومن وجهها يشع بـريق هائل كأنه الشمس . وسمع صوتها يحدثه فى رفق وحنان :

ـ والآن أيها الحبيب . . لقد حـان الوقت الذى أتخلى فيه عنك . . فما عـدت بحاجة إلى . . بعد أن أديت لك كل ما أرسلنى مـن أجله سيد السماء ، مكافأة لك على حنوك البنوى ، فتجسمـت لك فى صـورة امرأة لأنجب لـك ولدا جميلا يكـون لك محبـا رفيقا عطوفا كما كنـت أنت نفسك لأبيك . . وبات على أن أعـود الآن إلى مقرى العلوى . . فأنا . . أيها الفتى الحبيب . . الإلهة تشى نيو . . !

ولم تكـد تنتهى مـن كلماتها حتى تـلاشى البريـق الهائل الذى كـان يغمر المكـان . وحدق تونج يونج بعينيه أمامه ، فما رأى شيئـا قط . . إذ كانت تشى نيو قد ارتفعت إلى السماء كومضة البرق الخاطف .

أما الفراش الصغير . . فقد كان الطفل لايزال يرقـد فيه . . ومن وجهه الوضىء يشع بريق رائع . . لايقل روعة عما كان عليه وجه تشى نيو.

الفهـرس

رقم الإيداع ٧٢١١/ ٩٨
الترقيم الدولى 3 - 0464 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



أساطير من الشرق

الأسطورة والحكاية الشعبية.. لايكاد يخلو منها أدب من الآداب. ولا يكاد يوجد شعب من الشعوب. دون أن يتوارث أبناؤه بعض الأساطير والحكايات التي قد تصبح في صورتها الأخيرة أحيانا.. «حدوتة».. تماما كهذه الحواديت التي تعود الصغار أن يركنوا إلى جداتهم لكي تحكيها لهم. ولقد تتشابه مواضيع بعض هذه الأساطير والحكايات الشعبية بين مختلف الشعوب.. بل وقد تتشابه أحداثها بصورة تزيد القارئ ثقة في وحدة الإنسانية ووحدة الجوهر الأساسي للتفكير الإنساني وتصوراته للخير والشر والفضيلة والرذيلة والعدل والظلم وما إلى ذلك من قيم إيجابية أو سلبية.

ومثل هذه الأساطير والحكايات الشعبية تتناقلها الأجيال في الغالب شفاها باعتبارها جانبا من التراث الشعبي.. وتظل المشافهة هي طريقة حفظها زمنا طويلا حتى يبدأ تدوينها في عصور الانتعاش الأدبي التي تحفظ جانبا كبيرا منها من الضياع.

ولقد اهتم الكثيرون من الأدباء والكتاب المعاصرون بدراسة مختلف ألوان التراث التي عرفتها شعوبهم. وراحوا يعملون جهدهم على جمع هذا التراث لكي تكون صورة حية لضمائر الشعوب من واقع ماضيها.. وفي هذا الكتاب بعض من ألوان هذا التراث الحي الذي مايزال يعيش.. وسيظل.. طالما عاشت هذه الشعوب.

دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

الغلاف للفنان حلمي التوني